مرجان كمالي

مكتبتنا الكبيرة
في كل مكان

مكتبتنا الصغيرة في طهران

رواية

المركز الثقافي العربي

إهداء لـ ..

القلب الجميل في درعا

هذا شيء جميل يشبهكم

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

مرجان كمالي

مكتبتنا الصغيرة في طهران

الكتاب

مكتبتنا الصغيرة في طهران

تأليف

مرجان كمالي

ترجمة

مصطفى بنعمي

الطبعة

الثانية، 2023

الإيداع القانوني:

2022MO2659

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-41-9

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للرواية:

Marjan Kamali

The Stationery Shop

© 2019 by Marjan Kamali

All rights reserved

t.me/soramnqraa

5 1 2025

مرجان كمالي

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبتنا الصغيرة في طهران

رواية

ترجمة: مصطفى بنعمي

المركز الثقافي العربي

إلى كامران،
أنت حبي

وانزلقا بخفة إلى حميمية لم يتعافيا منها قط.

هذا الجانب من الجنة، فرنسيس سكوت فيزدجيرالد

لا جديد في هذا العالم سوى التاريخ الذي لا تعلمه.

هاري ترومان

القسم الأول

الفصل الأول

2013

دار الرعاية

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أخذت موعداً للقائه».

قالت ذلك كما لو كان الأمر يتعلق بلقاء طبيب أسنان أو معالج نفسي أو بائع الثلاجات اللحوح الذي كان وعدها ووالتر أن الطراز الجديد من الثلاجات يضمن لهما الحليب البارد والخضر الطرية وجبن لا يفسد مدى الحياة.

جفف والتر الصحون ونظراته مسلطة على منشفة المطبخ حيث يظهر رسم لِصُوص أصفر يحمل مظلة. لم يناقش ولم يجادل. لقد كان جنوح والتر آرتشر إلى المنطق وقدرته على تغليب العقل على كل شيء شهادة على حسن الاختيار عند رويا. ألم تتزوج رجلاً عاقلاً ومتفهماً إلى حد لا يصدق؟ ألم يُجهض زواجها من ذلك الفتى في نهاية المطاف؟ الفتى الذي قابلته قبل عقود عديدة في مكتبة صغيرة بطهران، لكنها بدلاً منه عقلت حياتها بابن ماساتشوستس هذا، الذي ضمن لها الاستقرار؟ والتر هذا. الزوج الذي يأكل بيضة مسلوقة على الفطور كل يوم تقريباً، الذي قال لها وهو يجفف الصحون: «إن أردت لقاءه، فعليك ذلك. أخشى القول إنك كنت مرهقة قليلاً مؤخراً».

أصبحت رويا آرتشر اليوم أمريكية، أو تكاد، وليس ذلك بفعل زيجتها فحسب، بل وبموجب عيشها في هذه الولايات المتحدة لما يفوق خمسة عقود من الزمن. لا تزال تتذكر طفولتها التي أبلتها في شوارع طهران الحارة والمتربة تلعب لعبة الملاحقة مع أختها الصغرى زاري، لكن حياتها طوقت بعناية في نيو إنجلاند.

مع والتر.

وفي زيارة إلى أحد المحلات لشراء مشابك الورق قبل أسبوع فقط، انشرم كل شيء وألقي بها من جديد في مستنقع سنة 1953. سينما متروبول وسط أكبر مدن إيران خلال ذلك الصيف المتقلب. الأريكة الحمراء المدورة في الردهة وفوقها تتألق بلورات ثريا كأنها دموع غزيرة، وضفائر دخان السجائر تطوف في الأرجاء. قادها أعلى السلالم وإلى قاعة العرض حيث عرضت الشاشة نجوماً لهم أسماء أجنبية يعانقون بعضهم البعض. انتهى الفيلم فتمشيا في شفق الصيف تحت سماء خزامية تغطيها ظلال أرجوانية متنوعة، فبدت غير حقيقية. طلب يدها للزواج قرب الشجيرات الغارقة بالياسمين فتكأكأ صوته عندما تفوه باسمها. تبادلا رسائل حب لا تُحصى وخطّطا لزواجهما. ولكن في النهاية، لا شيء. سحبت الحياة من تحتها كل ما خططا له.

لا بأس.

كانت أم رويا دائماً تقول إن قدر الإنسان مدوّن على جبينه منذ يوم ولادته. تستحيل رؤيته وقراءته، ولكنه هناك مدوّن بالحبر الخفي، والحياة تمشي على ما يسطره، مهما يكن.

لقد طردت ذلك الفتى من خلدها منذ عقود، فأحلت محله أموراً أخرى: بناء حياتها، والتعرف على بلد جديد، ووالتر، وتربية

طفلها. أما فتى طهران ذاك، فقد عصرته إلى قعر الجردل كما لو كان خرقة بالية عديمة الفائدة، ودحرته أسفل السافلين، حتى طواه النسيان بعد مدّة.

ولكنها الآن ستتمكن أخيراً من سؤاله عن سبب تركها هناك وسط الميدان.

ناور والتر بالسيارة إلى حيث البقعة الزلقة التي ضيقتها الثلوج من كلتا الضفتين، حين توقفا، لم تستطع رويا فتح باب السيارة فقد صارا، على نحو ما، حبيسين داخلها خلال رحلتهما.

دار ناحيتها وفتح لها الباب، لأنه والتر، ولأنه تربى على يد أم (أَلِيس: المرأة الطيبة واللطيفة التي تنبعث منها رائحة سلطة البطاطس) علمته كيف يعامل المرأة، ولأنه كان في سن السابعة والسبعين ولا يستوعب لماذا لا يعامل شبان هذا العصر زوجاتهم كأنهن زجاج هش. ساعد رويا على الترجل من السيارة وتأكّد من أن وشاحها المحبوك يحمي أنفها وفمها من الريح، ثم مشيا سوياً وبتأنٍّ من مرأب السيارات إلى سلالم البناية الرمادية التي اتُّخِذت دار دوكستون لرعاية المسنين.

استقبلتهما دفقة هواء محموم في الردهة. وهناك، وراء مكتب، جلست شابة ثلاثينية ذات شعر أشقر محزوم على شكل كعكة وقد ألصقت على صدرها شارة بلاستيكية كتب عليها اسم «كلير». كانت وراءها لوحة إعلانات عُلِّقت عليها نشرات تصيح منها عبارتا «ليلة عرض فيلم!» و«غداء بافاري!»، وكلتا العبارتين ختمتا بعلامة تعجب، رغم أن أطراف النشرات كانت مثنية وكان هناك أناس

غزتهم التجاعيد يشقون طرقهم ببطء على متن كراسيهم المتحركة فوق المشمع الذي يشكل الأرضية، وآخرون يدفعون مشايات طبية ويثبتون أنفسهم حذر السقوط.

بادرت كلير في صوت جهوري: «مرحباً! هل تشارك في غداء الجمعة اليوم؟».

فتح والتر فمه ليقول شيئاً، لكن رويا كانت أسرع منه: «مرحباً، كلا لن يشارك. سيجرب زوجي لفافة الكركند الشهيرة في مطعم دانديليون ديلي. لقد أجريت بحثاً عنها على موقع يَلْب. يندر أن تجد محلات تقدم لفافة الكركند في الشتاء، أليس كذلك؟ كان تقييم الموقع خمس نجوم». كانت تتفوّه بكلام غير متماسك، كانت تحاول ألا تنجر إلى التوتر.

بدت موظفة الاستقبال متفاجئة إذ سألت: «ذلك الديلي؟».

غمغمت رويا: «بل لفافة الكركند التي يقدمونها».

تنهد والتر ورفع خمسة أصابع مشيراً لكلير أن زوجته تؤمن بمسألة الخمس نجوم.

أومأت كلير. «طيب! الكركند!» ونطقت كلمة «الكركند» على الطريقة البريطانية. «يجب أن نثق في تقييمات يَلْب هذه!».

«هيا إذاً»، قالت رويا لزوجها برقّة، ثم استندت إلى أصابع قدميها لتقبيل وجنته حديثة الحلاقة، ذات جلد متجعد تفوح منه رائحة صابون أيريش سبرينغ. لقد أرادت طمأنته.

أومأ والتر قائلاً: «حسناً. لك ذلك. سأغادر إذاً». لكنه لم يتزحزح، فشدت على يده في قبضتها الرقيقة التي اعتادتها طوال حياتها. وفي الأخير، وجّه كلامه إلى موظفة الاستقبال في صوت ممزق: «لا تدعيها تتورط في الكثير من المتاعب الآن».

ملأت نسمة من الهواء البارد جو الردهة عندما خرج والتر من الباب المزدوج ونزل إلى المرأب الجليدي.

وقفت رويا على نحوٍ مضطربٍ أمام المكتب وفجأة غمرتها رائحة الأمونيا ونوع من اليخنة. أيكون لحم العجل؟ بالتأكيد لحم العجل مع البصل. أما الحرارة، التي رُفِعت لتقوض برد نيو إنجلاند، فقد أججت رائحة اليخنة. لم تستطع تصديق أنها قد أتت هاهنا بالفعل. هسهست مشعات التدفئة وصرصرت الكراسي المتحركة فباغتها إحساس أنها قد اقترفت خطأً رهيباً.

- «وكيف أستطيع خدمتك **أنتِ**؟»، سألتها كلير والصليب الذهبي يتدلى حول عنقها، ونظرت إليها بتعابير غريبة كما لو كانت تعرفها.

- «لقد أخذتُ موعداً للقاء أحدهم، أحد مرضى دار الرعاية».

- «تقصدين أحد النزلاء. عظيم. ومن يكون هذا الشخص؟».

- «السيد بهمان أصلان».

خرجت الكلمات من فم رويا بطيئة كحلقات دخان، مرئية وحقيقية. لقد خلت سنين منذ نطقت اسمه كاملاً بصوت عالٍ.

كان الصليب الذي على عنق كلير يومض تحت الأضواء الساطعة. قد يكون والتر الآن قد خرج من مرأب السيارات.

وقفت كلير واستدارت حول المكتب لتواجه رويا، ثم تناولت كفيها وشدت عليهما بلطف. «كم يطيب لقاؤك أخيراً سيدة آرتشر. أنا كلير بيكر، المديرة المساعدة في دار دوكستون، وأشكر لك قدومك. لقد سمعت عنك الكثير ولكم أعتز بحضورك هنا».

إذاً لم تكن موظفة استقبال، بل مديرة. كيف عرفت كلير بيكر اسم رويا؟ لا شك أنه مقيد في دفتر المواعيد، فلقد أخذت موعداً

على كل حال. ولكن ما الذي جعل هذه الشابة تتصرف كما لو كانت تعرفها؟ وكيف سمعت عنها الكثير؟

قالت كلير برفق: «رجاء تعالي معي، سآخذك إليه». وهذه المرة لم توظف نبرة الحماسة التي بدت ضرورية للتغطية على البؤس المحيط بالمكان.

تبعتها رويا إلى رواق ومن ثم إلى بهو واسع تؤثثه طاولة طويلة يحيط بها من كلا الجانبين كراسي بلاستيكية قابلة للطي، ولكن لم يكن على الطاولة من يلعب البينغو أو يتجاذب أطراف الحديث.

أشارت كلير إلى طرف الجانب المقابل من الغرفة قائلة: «لقد كان في انتظارك».

قرب النافذة جلس رجل على كرسيه المتحرك قبالة كرسي بلاستيكي شاغر. كان ظهره إليهما فلم تستطع رويا رؤية وجهه. بدأت كلير تدنو منه ثم توقفت ونصبت رأسها وأخذت تطالع رويا من رأسها إلى أخمص قدميها كما لو كانت تقيس احتمالات الأمان والضرر والمأساة فيها، ثم لمست قلادتها قائلة: «هل أحضر لك شيئاً؟ ماء؟ شاي؟ قهوة؟».

- «كلا، أنا بخير، شكراً على سؤالك».

مكتبة
t.me/soramnqraa

- «هل أنت متأكدة؟».

- «هذا لطف منك، ولكن لا».

بعد والتر، جاء الآن دور كلير في التردد. فتاللّه، ما رغب أحد في ترك رويا وحدها مع هذا... النزيل. يا للغرابة. كما لو أن امرأة سبعينية ضئيلة البدن كمثلها لم تزل تتمتع بأي سلطة عليه أو على سواه. كما لو أنها، رويا آرتشر، قادرة على حرق المكان من خلال وجودها، أو قادرة على إحداث انفجار بمجرد كونها هناك.

«أنا بخير»، قالت. تعلمتْ قول ذلك من الأمريكيين. تعلمت عبارات مثل: I'm good وI'm fine وIt's all okay وOkey-dokey. عبارات أمريكية سهلة يسيرة. كانت تعرف كيفية فعل ذلك. خفق قلبها بقوة لكنها نظرت إلى كلير في ثبات. خفضت الأخيرة رأسها وانطلقت مغادرة في الأخير، فطابقت قرقعة كعب حذائها، إذ غادرت البهو، دقات قلب رويا العالية للغاية.

كان لا يزال أمامها مجال لتتبع كلير وتترك هذا المكان كريه الرائحة، فتلحق بوالتر قبل أن ينهي غداءه، ثم تعود إلى المنزل وتقعد فوق سريرها وتتظاهر أنها لم تقدم قط على سوء تقدير غريب كهذا. لم يكن الأوان قد فات بعد. تخيلت والتر منحنياً على جعة الزنجبيل ولفافة الكركند في ذلك الديلي. مسكين! ولكن كلا. لقد أتت هاهنا كي تعرف السبب أخيراً.

قدم أمام الأخرى، تقدمت على مضض نحو الكرسي المتحرك قرب النافذة. لم يحدث كعب حذائها قرقعة. كانت تنتعل حذاء رمادياً ذا نعل سميك. كان والتر قد حثها على انتعال جزمة الثلج لكنها أبت؛ فقد كانت على استعداد لتقبل الكثير من الأشياء، ولكن أن تقابل حبيبها القديم بعد فراق ستين عاماً وهي تنتعل جزمة إسكيمو سميكة كان من الأمور القليلة التي لم تستطع قبولها.

كان الرجل غير مبال بوجودها ولكأنها لم تكن هناك.

«كنتُ في انتظارِكِ». جاءها الصوت بغتة باللسان الفارسي فرن له بدنها، فلطالما كان هذا الصوت ينشطها ويريحها عندما كانا جسماً واحداً غير قابل للانفصال.

كان ذلك في صيف عام 1953 وكانت في ربيعها السابع عشر. تلاشت نيو إنجلاند وتبخر برد الخارج وحرارة الداخل المزيفة...

فألفت رويا ساقيها مسفعتين وثابتتين وهما يقفان، هي وهو، أمام المتارس يستندان إلى الخشب المتشقق، يصيحان جهد حنجرتيهما. اتسعت رقعة الحشد وأحرقت الشمس فروة رأسها وتدلت ضفيرتان طويلتان من شعرها حتى انتهيتا إلى نهديها، وأغرق العرق ياقة قميصها المدورة. الناس حولهما من كل جانب يلوحون بقبضاتهم ويصيحون بصوتٍ واحدٍ. الترقب، ومعرفة أن أمراً جديداً وأفضل على وشك الحدوث، اليقين أنها ستكون له زوجة في إيرانَ حرةٍ ديمقراطية - كان كل ذلك لهما. كانا يملكان مستقبلاً ومصيراً، كانا مخطوبَين في بلد على شفير بداية جريئة. لقد أحبته حباً جماً وكان يستحيل أن تتخيّل في ذهنها مستقبلاً لا تسمع فيه صوته كل يوم.

فوق المشمع، رأت رويا قدميها فبدتا فجأة غريبتين عنها - قدمان تنتعلان حذاء عجوز رمادي اللون وسميك النعل، وتعلوه عقد صغيرة.

استدار الرجل بكرسيه فأشرق محياه بابتسامة. بدا مرهَقاً؛ كان في شفتيه جفاف وفي جبينه خطوط عميقة، ولكن كان في عينيه بهجة وأمل.

كرر مقاله: «كنتُ في انتظاركِ».

هل كان من الممكن العودة إلى الماضي بهذه السهولة؟ كان صوته نفسه. لقد كان هو، كل ما فيه، العنيان والصوت. لقد كان بهمان، «بهمانها».

لكن فجأة تذكرت سبب مجيئها، ففاهت بصوت خرج أقوى مما توقعت: «حسنٌ. لكن كل ما أردتُ سؤالكَ عنه هو لماذا لم تنتظر في المرة الماضية بحق السماء؟».

جلست على الكرسي الذي قربه متعبةً تعباً لم تعشه طوال كل

سنين وجودها على الأرض. كانت في السابعة والسبعين وكانت مرهَقة، لكنها ما إن تذكرت ذلك الصيف القاسي والمخيب الذي لم تتعافَ منه تماماً قط، حتى شعرت أنها لم تبرح بعدُ عمر السابعة عشرة.

الفصل الثاني

1953

الفتى الذي سيغيّر العالم

كانوا يتناولون فطوراً من خبز النان الطازج مع جبنة الفيتا ومربى الكرز الحامض المنزلي الصنع. قال بابا: «أريد أن أرى فيكما، أيتها الفتاتان، النسختين المقبلتين من مدام كوري في هذا العالم. لكم أود ذلك. أو حتى كاتبتان» - ثم تبسم لرويا - «مثل تلك المرأة الأمريكية: هيلين؟ كيلر؟».

- «بابا، أنا لست صماء»، قالت رويا.

- «هي ليست عمياء يا بابا»، أضافت زاري.

أومأت ماما لابنتيها بالإسراع في أكلهما قائلة: «وما علاقة هذا بذاك؟».

- «يجب أن تكوني صماء عمياء لتكوني هيلين كيلر». وتبسمت زاري فخورة بمعرفتها ببطلات أمريكيات.

- «وخرساء، لا تنسي خرساء»، تمتمت رويا.

وضع بابا فنجان الشاي وقال: «لقد قصدتُ القسم المتعلق بالعبقرية. قصدتُ القسم المتعلق بتأليف أحد عشر كتاباً. هذا هو القسم الذي قصدته!».

لـم يجُد القدر على بابا وماما إلا بمولودَين، بل ومن الإناث أيضاً. كان بابا مستنيراً على نحوٍ استثنائيٍّ ولافتٍ في زمانه: أراد لابنتيه أن تدرسا وأن تنجحا، فقد كان التعليم دينه والديمقراطية حلمه.

في المرحلة الثانوية، كانت رويا وزاري في طريقهما لتحظيا بأفضل تعليم قد تحظى به فتاة في إيران 1953. كانت البلاد تعرف تغييراً سريعاً وانفتاحاً. كان لهم رئيس وزراء أفرزته صناديق الاقتراع ديمقراطياً، هو محمد مصدق. وكان لهم ملك كذلك، الشاه محمد رضا بهلوي، الذي سار على النهج الذي بدأه والده في الدفاع عن حقوق المرأة. كان بابا دائماً يقول: «من المؤكد أن الشاه عميل للإنجليز الملاعين فيما يتعلق بِوَهْبِ نفطنا! لكن نعم، لقد أحسن صنعاً فيما يتعلق بالمرأة، له علينا ذلك».

روفقت أفكار بابا وماما التنويرية بالازدراء والاتهامات من لدن أفراد العائلة الأكثر تعلقاً بالتقاليد. فتلفي العمات والخالات يوشوشن لماما في المطبخ متسائلات كيف لها ولزوجها أن يسمحا لابنتيهما المراهقتين بالتجول في كل مكان دون مرافق، وهو أمر أمست ماما خبيرة في تنكيته. كانت من السباقات إلى خلع الحجاب إثر ظهور سياسة منع الحجاب التي فرضها الشاه رضا على نسوة إيران سنة 1930، كما رحبت بالإصلاحات الرامية إلى تحرير المرأة رغم تضايق أقاربها الأكثر تديناً لمسألة اعتناق الطرق الإفرنجية.

أرسل الأبوان ابنتيهما إلى أفضل ثانويات طهران. في كل صباح، تستعد رويا وزاري ليومهما بينما تحضر ماما الشاي؛ فتكتفي رويا بغسل وجهها وضفر شعرها الأسود الكثيف في جديلتين طويلتين، بينما تضع زاري قليلاً من اللون على شفتيها وتطلق جدائل

شعرها المتموجة؛ جدائل تصنعها من خلال تثبيت خصلات من شعرها في قصاصات الجرائد كل ليلة.

وقفت رويا تطالع انعكاس صورتها في المرآة بينما كانت أختها الصغرى تتأنق وتتجمل. لقد طرأت على جسدها تغيرات جمة خلال السنة الماضية، إذ فقد وجهها بعض الدهن الطفولي فغدا عظما وجنتيها بارزين أكثر وباتت بشرتها، التي كانت تغزوها البثور يوماً، صافية. كان شعرها الأسود الطويل متموجاً على نحوٍ طبيعيٍّ فكان من شأنها تركه مسدلاً على كتفيها كما حثتها زاري مراراً، لكنها كانت تفضل ضفره. كان ذلك يحفظ لها الشعور أنها على طبيعتها، لا سيما أن باقي جسدها كان يشهد تغيرات فيزيولوجية كبيرة. كانت لا تزال صغيرة لكنها بدت ممتلئة أكثر وذات صدر أكبر هذه الأيام - أو **بالغة**، كما قالت زاري.

دفعت زاري رويا جانباً واحتلت كل المساحة أمام المرآة ثم ربتت على شعرها وبرطمت: «تعطيني هذه التصفيفة شكل صوفيا لورين، أليس كذلك؟». لم يكن بوسع رويا غير قول بلى. زرّرت أزرار بلوزتها القطنية طويلة الأكمام، وارتدت فوقها الوزرة الموحدة من نسيج الأورماك، ثم لبست جوربيها اللذين يصلان حد الركبة. كان عليها الإقرار أن حتى هي أرادت أن تلبس من الجوارب التي تصل الكاحل، الجوارب «الأمريكية» كما تسميها الفتيات، لكن الناظرة كانت تعاقب اللواتي يلبسن تلك الجوارب، فلم يكن لرويا من الشجاعة ما يكفي لتذهب إلى المدرسة مرفوعة الهامة وهي ترتدي جوارب قصيرة.

قال بابا وهو يحشو فمه بالخبز وجبنة الفيتا في الفطور: «إنه أملنا! لقد أمّم رئيس الوزراء مصدق نفطنا فاستطعنا الإفلات من

قبضة شركة النفط الأنجلو-إيرانية الخانقة[1]» كانت الشركة المذكورة عدواً لدوداً لبابا. «لقد تمكن الإيرانيون لأول مرة منذ عقود من الشعور بالسيطرة على مواردهم الطبيعية بدل استغلالهم من طرف الدول الإمبريالية. وَحدُه رئيس الوزراء من له القدرة على مواجهة القوى الخارجية، وقريباً جداً سنكون بلداً ديمقراطياً حقيقياً تحت قيادته. والآن أيتها الفتاتان، إن أنتما درستما التاريخ والكمياء والرياضيات، ستستطيعان الانضمام إلى أفضل طبقة مهنية عرفتها هذه الأمة العظيمة في تاريخها. هل تصدقان هذا؟ هل تعرفان الأشياء المتاحة لكما؟ الفرص التي تنتظر سيداتنا الشابات الآن؟ أما موظف حكومي كحالي فماذا عساه يفعل؟ يخلص الأوراق؟ يجلس في مكتبه ويرتشف الشاي؟». أخذ رشفة طويلة من شايه ثم استطرد: «أما أنتما يا ابنتاي! فستبلغان أبعد مما حلمنا به أنا وأمكما! أليس كذلك يا منيجه؟».

«صباح واحد! ألن ننعم بصباح واحد دون محاضرات؟ الفطور فقط؟»، ردت ماما.

بدا بابا متضايقاً بعض الشيء لكنه لم يكف تماماً: «ابنتي ماري كوري!» وأومأ لزاري، «ابنتي هيلين كيلر!» وغمز لرويا.

كانت الفتاتان اللتان تكبر إحداهما الأخرى بثمانية عشر شهراً تعرفان آمال والدهما المبالغ فيها جيداً. فرويا البالغة من العمر سبعة عشر عاماً، حاولت أن تبلغ آمال والدها رغم أن كل ما رغبت فيه حقاً هو مطالعة الروايات المترجمة لكُتَّاب اسمهم همينغواي

(1) AIOC: شركة بريطانية تأسست عام 1909 بعد اكتشاف النفط في إيران - المترجم.

ودوستويفسكي. . . أو قراءة أشعار أعظم شعراء فارس كالرومي وحافظ الشيرازي وسعدي الشيرازي. وكانت تحب الطبخ أيضاً، وتحب الوقوف إلى جانب والدتها تتابع تفاصيل وصفات أفضل أنواع **الخورش**[1].

أما أختها الصغرى فكانت نائية تماماً عن أن تصبح مادام كوري المستقبلية. كانت زاري متيمة بصبي اسمه يوسف. أرادت أن تتزوج رجلاً غنياً وترقص التانغو وتتعلم رقصة الفالز. كانت تريد دفع خمسة تومانات[2] ثمناً لتذكرة حضور إحدى حفلات الأطفال الشعبية، وترقص السامبا وتذهل الجميع بحركاتها. كانت زاري كلما أويتا إلى الفراش فتحت كتاب أحلامها بالتفصيل أمام أختها.

طبعت ماما القبل على وجنات بنتيها وأخذت أكواب الشاي منهما قائلة، «فلتذهبا إذا!».

ألقت زاري السلام على بابا راسمة تعبيراً ساخراً عن ولائها لمثله العليا فلم يضحك ورد عليها بتحية بطيئة وجدية، ثم ألقت نظرة سريعة على رويا مصحوبة بكشرة ملغزة لا يفهمها إلا الشقيقتين بينهما. انتعلت الفتاتان أحذيتهما عند الباب. ورغم أن رويا وزاري كانتا على التوالي في السنة الأخيرة وقبل الأخيرة من المرحلة الثانوية، إلا أن الضوابط كانت تفرض عليهما انتعال أحذية سوداء بناتية كانت جزءاً من اللباس المدرسي الموحد. سحبت رويا رباط حذائها وعقدته بإحكام.

خرجت الفتاتان من جزء البيت الحريمي، أو الأندرون، إلى

---

(1) يخنة وهي من أشهر الأكلات الإيرانية - المترجم.

(2) مفردها تومان وكانت العملة الرسمية في إيران حتى 1932 - المترجم.

الجزء الخارجي ومشيتا عبر الرواق ثم نزلتا الدرج الذي يؤدي إلى الحديقة. عبرتا بالقرب من بركة سمك الكوي ذات القرميد الفيروزي فألفت رويا نفسها تغبط السمكات التي تسبح فيها، فكل ما تفعله هو السباحة في مياه زرقاء باردة، ولم يكن يُنتظر منها أن تصبح أعضاء ناجحات في أفضل طبقة مهنية عرفتها الأمة.

أوصدت رويا الباب ثم خرجتا إلى زقاق الحارة ومن ثم إلى الشارع الرئيسي حيث التصقتا ببعضهما ومشيتا تحملان كتبهما لصق صدريهما.

لم يكن في الشارع أحد من المحتجين في ذلك الصباح الباكر، بيد أن الأرض كانت لا تزال مغطاة بمنشورات بقيت من مظاهرة سابقة. كانت صور رئيس الوزراء مصدق - بأنفه الحاد المعقوف ونظرته الألمعية والمرهَقة من العالم - متناثرة على الأرض. لم تتحمل رويا رؤية وجهه مبعثراً على التراب تطأه النعال، فالتقطت بعض الأوراق وحملتها بعناية جاعلة وجهها إلى الأعلى فسألتها زاري: «هيا! بربك، أتعتقدين حقاً أنك تستطيعين إنقاذه؟ سيخرج الشيوعيون في مظاهرة هذه الليلة وستتبعها أخرى يخرج فيها أنصار الشاه. لا يمكنك إنقاذ رئيس الوزراء؛ إنه أقل عدداً من الفريقين اللذين يريدان تنحيته».

- «بل لديه الآلاف، الملايين من الأنصار! لديه الشعب، **نحن**، خلفه!»، قالت رويا.

- «إن تأثير الناس محدود وأنت تدركين ذلك. في هذه البلاد تجري الكثير من الصفقات وأعمال الفساد خلف الكواليس»، علّقت زاري.

ضمت رويا كتبها وصور مصدق بقوة إلى صدرها إذ تمشيان.

كانت زاري محقة بالفعل، ففي الأسبوع الماضي دعت الناظرة إلى تجمع استثنائي حيث وقفت على المنصة ويداها على وركيها وطلبت من الطالبات أن يفصحن عن هوية الطالبة المسؤولة عن توزيع نشرات شيوعية بين صفوفهن. لم تفه واحدة منهن ببنت شفة. كانت رويا تعلم أن جاليه تباتبايي هي التي وزعت المنشورات تحت الطاولات وفي الفسحة حيث تخبئها في لفافات ورقية. كانت تتساءل كيف تمكنت جاليه من الحصول على مثل هذه الأوراق السياسية، ومن أين جاءت بالجرأة للحصول عليها أصلاً.

عندما حانت ساعة مغادرة المدرسة، حضر رجال الشرطة يحملون بوقاً ومسدسات وخرطوم مياه. ساعد عباس، حارس المدرسة، الرجال ذوي الرقاب المكتنزة على توصيل الخرطوم بحنفية في الفناء، وفي اللحظة التي خرجت فيها جاليه من المدرسة، فتح رجال الشرطة الحنفية وصوبوا الخرطوم ناحيتها. في البداية، اعتلى وجهها تعابير الدهشة، ونوع من الرهبة، وما هي حتى استحالت تلك التعابير إرادة حازمة، فطارت في الهواء متفادية ثعبان الماء المهسهس لكنه أصابها، وما هي إلا ثوانٍ حتى كانت جاليه غارقة في المياه وبدلتها المدرسية ملتصقة بمنحنيات جسمها وشعرها يقطر ويمطر.

قال أحد رجال الشرطة: «يحصل هذا لمن لا يحترم بلده بنشر أكاذيب الشيوعية. لا تعتقدي أننا لن نجد كل من ضلع منكن في التواطؤ الخائن مع روسيا فرداً فرداً. يا فتيات، ينبغي لكن التركيز على دراستكن حتى تصبحن شابات محترمات وليس قردة سياسية».

صفقت الناظرة، وكذلك الصبايا المؤيدات للشاه صفقن وهتفن إذ وقفن في مجموعة واحدة في الفناء. كان الكثير من الفتيات المناصرات للشاه ينحدرن من أسر ثرية وبنات رجال يعملون في

ميدان النفط. وصفق مع من صفق القليل من الفتيات المعروفات بشدة تدينهن، فكانت المرة الأولى، منذ زمن طويل، التي وقفت فيها الأسر المتدينة والأسر المناصرة للشاه صفاً واحداً.

هرعت الفتيات الشيوعيات إلى جاليه فور مغادرة الشرطة والناظرة الفناء. حاولن تنشيفها بستراتهن الصوفية ومنادلهن وأهداب بدلاتهن المدرسية. انتصبت جاليه واقفة رغم أنها كانت تقطر وطمأنتهن. حتى إنها ضحكت. كانت رويا تعلم أن جاليه لن تكف عن توزيع المنشورات الماركسية، بل ستزيد. هكذا كن شيوعيات حزب توده[1]؛ باسلات حازمات دائمات القول إن إيران يجب أن تسير على خطى الاتحاد السوفييتي.

أما رويا وزاري وباقي الصبايا من مناصرات رئيس الوزراء فتعنقدن في حلقتهن الخاصة، مصعوقات مهزوزات. كانت رويا كلما سألتها زميلة لها عمن تؤيد قالت: «رئيس الوزراء مصدق والجبهة الوطنية»؛ فإن قالت أي شيء غير ذلك فطرت قلب بابا. كان بيد رئيس الوزراء مصدق أن يسير ببلادهم إلى الديمقراطية. كان قد درس القانون في سويسرا قبل أن يصبح وزير خارجية إيران ويذهب إلى الأمم المتحدة في أمريكا ويشهد أن شركة النفط الأنجلو-إيرانية التي تعود لبريطانيا يجب أن تعطي إيران ملكية نفطها. أحبت فيه رويا إرادة الاستقلال والاعتماد على الذات حتى إنها أعجبت كثيراً ببيجاماته (التي كان يظهر بها في بعض الصور).

بينما كانت رويا ماشية إلى المدرسة رفقة زاري وهي تتذكر حادثة جاليه وخرطوم المياه، تمنت لو تنتهي هذه الاستقطابات وهذا

---

(1) حزب شيوعي ظهر في إيران عام 1941 - المترجم.

التنافس السياسي السرمدي. فلقد تسربت السياسة إلى كل حجرات الدراسة وكانت زميلاتها في المدرسة الآن منقسمات، إسوة بحال البلاد، بين مواليات للشاه، وموالیات لرئيس الوزراء، وشيوعيات؛ ولقد أرهقها ذلك.

بلغت رويا وزاري مدخل المدرسة حيث وقف الحارس عباس وقد بدت نظراته حازمة. كان عمله يتجلى في السهر على منع غير المصرحين من الدخول إلى المدرسة، وحماية حرمة المؤسسة وسلامة الفتيات، ولم يكن من مهامه أن يفتح سحابه ويبرز سرواله الداخلي الوردي؛ ولكن هذا ما كان يفعله أحياناً، وقد ذاع عنه ذلك. فتح عباس الباب وتبسم فتيبست زاري، وما إن ابتعدتا عنه وصارتا خارج نطاق مسمعيه حتى همست لأختها: «لقد أراني سرواله الأسبوع الماضي ثانية».

- «وكان زهرياً؟».

- «كالعادة.

- «هل أخبرت الناظرة؟».

- «قالت إنها لبشاعة من فتاة مثلي أن تفتري الكذب، وإن عباس يعمل هنا قبل أن أولد أنا حتى، وإنني يجب أن أخجل من نفسي لاختلاق مثل هذه القصص الفاحشة».

- «فهمت. جوابها المعتاد إذاً».

- «نعم».

لم يكن الصبيان يجدون صعوبة في الذهاب من مدارسهم إلى مدرسة الفتيات والتسكع أمام الباب عند وقت المغادرة. يصرخ فيهم

عباس وينفرهم، فتجده يزعق: «يا أولاد الكلاب! دعوا هؤلاء الفتيات وشأنهن، ستحرقون في نار جهنم!».

كانت رويا تتجاهل الصبية الذين يتبعونها حتى البيت، أما زاري فكانت تحرص على أن الوسيمين منهم يرونها وهي تبرم شعرها الأسود الكث، لا سيما إن كان يوسف من جملتهم. كان الصبية في بعض الأيام يظهرون في زاوية كل شارع ووراء كل منعطف. كان الأنيقون منهم والماكرون والأذكياء يغمزون لهن ويصفرون ويتغزلون بهن. أولاد وسيمون وشطر تعلوا ثغورهم ابتسامات جذابة، وآخرون خجلون يسترقون منهن نظرات بين الفينة والأخرى فيتوردون خجلاً إذا ضبطوا. كانت رويا قد تعودت عليهم كما يتعود المرء على البعوض المزعج، مما يعني أنها لم تتعود عليهم قط.

كانت المكتبة أحب الأماكن إلى قلبها في طهران كلها. وتلك، توجد على ناصية شارع تشرشل وجادة حافظ، وقبالة السفارة الروسية، على الجانب المقابل من شارع مدرستها.

كانت تحب تمرير أناملها فوق أوراق الدفاتر الناعمة في ذلك المحل، وتؤسر بعلب الأقلام التي تفوح منها رائحة الرصاص والمعرفة الموعودة، وقد تفني الأماسي تتأمل أقلام المداد والمحابر، وتبحر بين كتب عن الشعر والحب والفقدان. لم تحمل المكتبة أي اسم فاخر، فكان اسمها المكتبة وحسب، وكانت تبيع الكتب والقرطاسية. ومع احتدام الانقسام السياسي خلال ذلك الشتاء وانخراط المتحمسين من الناس في المناظرات والمظاهرات في الشوارع، كانت المكتبة الملجأ المثالي للهدوء والتعلم؛ لقد كانت ملاذاً للسكون حيث الإضاءة خافتة ولا سبيل للصخب.

وفي يوم عاصف من أيام يناير، وعندما أرادت رويا الهروب من

مظاهرة شيوعية عظيمة الجمهرة، انسحبت إلى المحل مبطنة رغبة واحدة وهي قراءة الشعر.

«الرومي اليوم؟»، سألها السيد فخري من وراء المنضدة. كان خمسينياً هادئاً وطيباً، ذا شعر غزاه الشيب وشارب كثيث، يضع نظارة ذات إطار دائري، وينتعل حذاء حديث التلميع دائماً. يملك السيد فخري هذه المكتبة منذ أن بدأت رويا بتذكر الأشياء، وقد كان خبيراً بعوالم الكتب، لا يبقي على رفوفه ركناً شاغراً إلا وملأه بالكتب الفارسية القديمة ودواوين الشعر وترجمات الأدب العالمي.

«نعم، رجاء». كانت رويا دائمة التردد على المكتبة لدرجة أن السيد فخري أصبح ملماً بذوقها. كان يعرف أنها متيمة بالشعر الفارسي القديم لكنها لا تقوى على مقاومة بعض القصص القصيرة المعاصرة. كان يعرف أنها لا تتورع عن صرف مصروفها حتى آخر مليم على ابتياع دفاتر الورق حديثة الطراز وأنها تفضل من القرطاسيات تلك المستوردة من ألمانيا لأنها كانت أحدثها وأزهاها ألواناً. وكان يعرف أنها لا تكتفي بقراءة كل كلمات الشعر القديم بل تجدها في كل مرة تخربس في صمتٍ كلمات من قريحتها على الورق الذي ابتاعته منه. كان السيد فخري مدركاً لكل ذلك، وكان مما يجلبها إلى هذا المحل هدوء صاحبه الطبيعي وأكوام الكتب والأقلام والدفاتر الرائعة.

– «ها هو ذا الرومي. إن بين طيات هذا الكتاب بعض من أفضل ما كتب. حاولي الانزواء إلى ركن هادئ ولا تسمحي لأحد أن يشوش عليك، فشعره يتطلب بعض التركيز إن أردت أن تبلغي كنهه فعلاً».

كان ديوان الرومي الذي ناولها إياه مطبوعاً على ورق لامع وكان له غلاف أخضر داكن كتب عليه بأحرف ذهبية.

أومأت رويا وهمت بدس يدها في محفظتها للدفع عندما رن الجرس الذي يعلو باب المكتبة. تشرع الباب وتسربت منه الصيحات من الشارع وغزت هبة ريح قوية انتفشت على إثرها أوراق الكتاب في يدها. دلف إلى المحل فتى في سنها وكان في عجلة. كان يرتدي قميصاً أبيض ذا ياقة وسروالاً أسود؛ وكان له شعر أسود غزير ووجنتان متوردتان من الرياح. تقدم إلى الداخل يصفر نغماً حزيناً مفعماً بالحنين. كان لحناً لم تسمع له من قبل مثيلاً وكان مناقضاً لخطواته الحازمة ونظراته الواثقة.

انتبه إليه السيد فخري فتحرك بخفة وغطس وراء المنضدة وأخذ حزمة من الأوراق ربطها بخيط ومدها إلى الفتى كما لو أنه كان ينتظر مسبقاً هذا الزبون الاستثنائي طول النهار. كف الفتى عن الصفير ودس يده في جيبه ودفع للرجل. لقد كانت صفقة سريعة وعاجلة وصامتة. تحرك الفتى حتى كاد يخرج من الباب، ثم التفت فظنت رويا أنه سيشكر السيد فخري، بيد أنه صوب نظراته إليها، فبدت عيناه مفعمتين بالبهجة والأمل ثم قال: «إني محظوظ بلقائك» ثم قذفه بابُ المحل والتهمته الرياح.

وقف السيد فخري ورويا في صمت إذ عاد المحل إلى حاله الطبيعية بعد الأثر الذي أحدثه وجود الفتى، كما لو أنهما ركبا منطاداً هوائياً حط لتوه وأُفرغ من الهواء.

«من كان هذا؟»، سألته وهي تشعر بالانفعال دونما سبب يذكر. أحست بالاضطراب والارتباك من موجة الإثارة التي أحدثتها فيها زيارة هذا الفتى الخاطفة.

أجابها السيد فخري بنظرة قلق تتراقص على وجهه: «هذا يا طفلتي العزيزة، بهمان أصلان» وطرق بأصابعه على المنضدة مردفاً: «هذا هو الفتى الذي يريد أن يغيّر العالم».

وضعت رويا ديوان الرومي في حقيبتها المدرسية برفق. حدقت في الباب وشعرت بحمى طفيفة كما لو كانت قد عاشت أمراً مستبداً ومدهشاً ولكن شخصياً بامتياز أيضاً، أمر مرتبط بالأمل والحياة والطاقة. ودّعت السيد فخري وغادرت في ذهول.

بحثت عنه في الشوارع لأيام. لم يكف حسين صاحب الأنف المتمخط عن تعقبهما غدوة وروحة، وهو أمر أزعجها كثيراً. كان كوروش الجريء والجهوري يصر على فتح الباب لها ولأختها. كان يوسف يسترق بضع نظرات من زاري وهي تعبر وأختها الشارع ثم يتظاهر أنه كان يتفرس في عمود النور. كانت الأختان تجدان تلاميذ مدرسة الصبيان يملؤون الشوارع حيثما وليتا وجهيهما. كان الأولاد يشاركون في المظاهرات المختلفة مجتمعين، غير أن الفتى الذي اخترق المكتبة وجعل العالم يتحرك بسرعة وخفة وقوة أكبر بقليل - ولو كان ذلك لدقائق معدودات - فلم يكن له أثر.

تابعت رويا حياتها على نحو اعتيادي؛ تذهب إلى المدرسة وترجع صحبة أختها كل يوم، تأكل **الخورش** التي تعدها أمهما، وتصغي لما يقوله بابا عن خطط رئيس الوزراء مصدق. كان في طريقه للظفر باستقلال إيران من التأثير الخارجي بصورة نهائية فلا يستطيع أحد بعد ذلك أن يسرق منهم نفطهم، وسيضمن لهم مستقبلاً تسوده الديمقراطية!

كانت تُذاكر الهندسة وتكتب بعض الشعر وتبتسم كلما كرر بابا أنها ستغدو مدام كوري المقبلة، والله إنها ستغدو مدام كوري، انس أمر هيلين كيلر. بيد أنها لم تر للفتى ذي العينين المبتهجتين أثراً - ذلك الذي جعل السيد فخري يسلمه حزمة من الأوراق بسرعة خاطفة وبأهمية كما لو كان يسلم سلاحاً لمحارب.

في الأسبوع الموالي، وهي في المكتبة، تناولت رويا براية معدنية ومررت إبهامها على الأخاديد الصغيرة التي تحف كلا الجانبين. وإذ هي كذلك، هبت الريح مرة أخرى ورفرفت معها صفحات الكتب المكدسة عندما انفتح الباب بقوة ودلف الفتى.

هذه المرة، توقف عن التصفير فور رؤيتها. بدا أقل اعتداداً بالنفس وأكثر خجلاً. طلب ديوان الرومي من السيد فخري وصوب عليها نظرة سريعة. كان شعره الكث ممشطاً بعناية إلى أحد الجانبين وكان قميصه الأبيض ذو الياقة مكوياً. لمعت عيناه وتبسم بأدب.

أخذ السيد فخري نسخة من الديوان الذي كان أعطاه لرويا قبل أسبوع، وقد فعل ذلك بنفس السرعة والرغبة في الإرضاء اللتين أبداهما له في المرة الماضية، ثم تنحنح قائلاً: «ها هو ذا الرومي، يا بهمان جان».

هذه المرة، شكر بهمان السيد فخري وانحنى قليلاً لرويا ثم عاد أدراجه إلى الشارع.

لملمت فكرها ثم سألت: «فيم عجلته؟ إلى أين هو ذاهب؟ ما الأمر البالغ الأهمية الذي يشغله؟». كانت تريد بذلك أن تُظهر للسيد فخري أن هذا الفتى لم يخرسها.

- «لقد أخبرتك يا رويا خانم. إن الفتى يريد أن يغيّر العالم، وهذا أمر يتطلب العجلة». ورفع خرقة يمسح بها الغبار من فوق المنضدة ثم أردف: «ويتطلب اليقظة». ثم توقف عن فرك سطح المنضدة واستطرد - مصوباً نظراته إليها - «ويتطلب الحذر الشديد».

تنفست رويا من أنفها ثم وضعت البراية وجعلت ظهرها مستقيماً قائلة: «لا أدري كيف ينوي تغيير العالم. إنه يسرع في مشيه، ويعوزه الأدب، ويصفِّر دونما سبب! حتى إنه بالكاد تحدث إليك عندما حضر هاهنا الثلاثاء الماضي. ويتصرف كما لو أنه محور الكون، وتصفيفة شعره مضحكة. لا أدري كيف لفتى مثله أن يغيّر العالم».

وضع السيد فخري يديه على المنضدة ومال إزاءها قائلاً: «الحذر الشديد».

لقد جرى تحذيرها إذاً. رأت بهمان في مناسبات قليلة في ذلك المحل - وكل مرة أتى فيها إلى المكتبة كان يوم ثلاثاء عقب المدرسة مباشرة، كما لو أنه كان يعلم أنها ستكون هناك. وفي كل مناسبة كانت رويا تتظاهر بانشغالها بتصفح الكتب أو تفحص أدوات قرطاسية جديدة أو تتظاهر بالنظر إلى جهة أخرى غير حيث يقف. وفي كل مرة، كانت بطبيعة الحال تستسلم لرغبتها في استراق نظرات خاطفة إليه، إلى أن حل الثلاثاء الخامس عندما لم تعد تستطيع تحمّل الصمت بينهما.

تذرعت بسؤال شعري وجّهته إلى السيد فخري الذي لم يجب عليه لسبب ما، مما اضطر الفتى إلى الجواب.

«النار». كان هذا جواب الفتى الذي سيغيّر العالم على سؤالها

عن الكلمة التي تلي في مقطع شعري استشهدت به لتوها من إحدى قصائد السعدي القديمة.

احمر وجهها فكرر مقاله: «النار».

بالتأكيد كان على صواب. تلك هي الكلمة التي تلت في مقطع السعدي. قالها بيقين انقسمت على إثره رويا بين رغبتين؛ تمنت لو أنه أخطأ الجواب، ورغبت في الجلوس والتحدث إليه لساعات، لكنها كانت مضطرة للمغادرة لأن أختها كانت في انتظارها.

كانت زاري مزاجية أكثر من المعتاد لما قابلتها رويا على الرصيف المقابل من الشارع. كانت تتذمر أنها قد غدت صماء من سماع هتافات كل المتظاهرين السياسيين بينما أختها تختبئ وراء الأقلام والكتب في ذلك المحل البائس. قالت إنها تريد العودة إلى البيت والاستلقاء حاضنة قارورة من الماء الساخن لأنها كانت تعاني من تشنجات الدورة الشهرية المؤلمة وأنها كانت تتضور جوعاً. قالت إنها انتظرتها دهراً وإنها يجب أن تتعلم كيف تحترم وقت الآخرين، ولو من باب التغيير ربما. كانت رويا تنصت إلى تأفف أختها طوال طريق العودة لكنها ظلت تقلب بصرها ميمنة وميسرة متسائلة أين قد تلتقي ذلك الفتى في مكان آخر غير المكتبة، إن حدث والتقته.

2013

أراحت رويا رأسها على زجاج نافذة السيارة وراحت تراقب نيو إنجلاند تمر أمام عينيها رزينة في مناخها المتجمد. كانت تريد أن تركز تفكيرها على والتر وإلى أي مدى سيستمتعان بعشائهما معاً. ستعد أصابع السمك التي يحبها. أرادت أن تنسى أمر ذلك الفتى،

والزيارة التي قامت بها لتوها إلى الدار. لكن كلمات رسالته أبت أن تبرح ذاكرتها؛ لقد حفظتها على نحو عفوي قبل ستين عاماً خلت.

أعدك يا حبيبتي. قابليني في ميدان سباه، وسط الميدان... يوم الأربعاء... في الثانية عشرة زوالاً أو بعدها بقليل إن لم أتمكن من ذلك. قابليني هناك، وعندها سنجتمع للأبد. إن لهفتي لرؤيتك هي ما سيساعدني على تحمّل ما بقي من أيام.

«آه يا والتر» قالت ثم أسندت جبينها على النافذة وبكت.

الفصل الثالث

1953

الحب: يتشابك مع العاشق

انظر إلى الحب
يتشابك مع العاشق

انظر إلى الروح
تندمج مع الأرض
فتحييها من جديد

قرأت رويا قصيدة الرومي مرة أخرى وانتظرت ظهور بهمان الذي لم يفوّت قط الحضور إلى المكتبة أيام الثلاثاء منذ أول يوم لقائه بها. كان شتاء مفعماً بالترقب والمحادثات والإثارة. **متى وقعت في حبه يا أختي؟ أخبريني. أَنْشَدَ على مسامعك كلمات من قصيدة فقضي أمرك؟**

«قطعاً!»، أجابت رويا أختَها. لم تكن بضع كلمات أو لحظة واحدة، فهذه أشياء لا تحدث إلا في الأفلام الأمريكية، ألم تكن تعلم ذلك؟

كانت رويا تريد السلام والدفء والاختلاء والراحة. كل ذلك

وجدته في المكتبة وفي كتبها، ثم جاء بهمان وملأها بوجوده. لكن إن أرادت تحديد اليوم الذي أصابها فيه سهم الحب في مقتل، فسيكون ذلك يوم الثلاثاء السابع، وهو يوم أشار إلى نهاية الشتاء. كان يوماً من النوع الذي يقوم فيه عهد الازهرار والاخضرار والبدايات الأخرى على رماد البرد والصقيع وكآبة الموسم. كان يوم القطيعة بين هؤلاء وأولئك. كانت البلاد بأسرها تتهيأ للاحتفال بأول أيام الربيع؛ فاتح السنة الفارسية.

في ذلك الثلاثاء السابع، كان السيد فخري يجوب المحل في حماس متقد ونشاط قلق، يساعد الأمهات على اقتناء هدايا السنة الجديدة لأطفالهن ويغلّف حزم الأقلام ويحيّي الزبائن ويوزّع عليهم الأمنيات من صميم الفؤاد: «عاماً سعيداً وعمراً مديداً!».

قالت امرأة منهن: «أريد هدية لولدي، لقد أحسن صنعاً في النتائج الدراسية كما أنه يحب المطالعة». تبسم بهمان من نظرة الفخر التي علت محيا المرأة فرأته رويا. اقتنى رجل آخر أقلاماً ملونة جمعها السيد فخري كالزهور في باقة وغلفها بشريط أخضر. كانت الدواوين الشعرية أكثر المعروضات طلباً بالتأكيد، فالتعطش إلى الشعر الفارسي كان مدهشاً كالمعتاد. بقي بهمان ورويا بعيدين أحدهما عن الآخر إذ عظمت جمهرة الزبائن بعد المدرسة. ركز هو على نشرة سياسية كانت موضوعة على المنضدة فيما ظلت هي في الخلف بين صفوف ترجمات الروايات الأجنبية.

بعد ذلك، ما إن وصل الحشد حتى خلا المحل. اقتُنيت الكتب واختيرت الهدايا ووُزعت النصائح فانفض الجمع وظلا هناك وحيدين كل منهما منغمس في تصفح ما يتصفح وكل منهما، بالطبع، مدرك بوجود الآخر، ولا يحس بشيء إلا بوجود الآخر. أقفل السيد فخري

خزنته بقوة أحدثت صخباً وعلق: «يا إلهي! إن الناس يقتنون هدايا **النوروز**[1] بغزارة هذه الأيام. هل أبلى كل الأطفال بلاء حسناً في المدرسة حتى يستحقوا هدايا كثيرة في فاتح السنة الجديدة؟».

ظل بهمان ورويا هادئين في ملاذيهما من المحل.

نظر السيد فخري حوله كما لو كان يخطب في جمهور كبير وقال: «والآن! لا يمكن للتاجر منا أن يتذمر من كثرة المبيعات، ولكن يجب علي أن آخذ هذا المال إلى المصرف».

لم يتحرك أي منهما فأردف:

- «في الواقع، أفكر في الخروج وبالتالي قد أضطر إلى إغلاق المحل».

قال بهمان بهدوء: «ستجدني هنا».

- «معذرة؟».

- «أستطيع البقاء هنا، فإن أتى أحد الزبائن أعلمته أنك ستعود قريباً».

لم يستحب السيد فخري الأمر فنظر إليه ومن ثم نظر إلى رويا في توتر.

رصدت الأخيرة فيه عدم الارتياح. كانت مرعوبة من فكرة البقاء لوحدها مع بهمان، فمن غير اللائق أن تبقى معه لوحدها. قالت:

- «يجب أن أذهب إلى البيت الآن، يوماً سعيداً يا سيد فخري!».

- «طيب إن كنت ذاهبة... نعم، يا رويا خانم، يوماً سعيداً لكِ أيضاً!».

---

(1) عيد رأس السنة الفارسية - المترجم.

تنفس الصعداء ونظر إلى ساعته قائلاً: «سيغلق المصرف قريباً. ليس أمامي الكثير من الوقت. شكراً لك بهمان جان، لقد قبلتُ عرضك». انتشل معطفه ورمق رويا بنظرات حادة قائلاً: «إلى اللقاء يا رويا خانم. عودي إلى بيتك في أمان قبل أن يتأخر الوقت». حشا رأسه في القبعة السوداء مردفاً: «سأعود قريباً يا بهمان جان». ثم أسرع خارج المحل تتبعه رويا إلى الباب.

- «ابقي».

كان صوت بهمان صافياً واثقاً.

- «إلى اللقاء».

ثم توقفت قرب الباب وظهرها إليه بحيث رأت السيد فخري يختفي في الشارع.

- «رجاء ابقي».

خرج صوته الآن أقل ثقة من المرة الأولى.

التفتت إليه لتخبره السبب الذي يمنعها من البقاء، لكنها لما رأته بالكاد تمكنت من التنفس. بدا متوتراً وقد اشتعل وجهه احمراراً رغم أن تعابيره كانت ودية.

كان ينبغي لها الرحيل. كانت تنتظرها الكثير من الأمور لتفعلها. كانت زاري وماما تحتاجان المساعدة في إعداد عدة الاحتفال بالنوروز: التنظيف الربيعي، ونفض الغبار، وضرب السجاجيد، وغسل النوافذ بالخل؛ كما لم يكن من اللائق أن تبقى لوحدها مع هذا الفتى.

لكنها كانت لوحدها معه. كانت لوحدها معه في هذه المكتبة وفجأة توسم ذلك الملاذ بإمكانية تغيير كل شيء كلياً.

سارع إلى سؤالها: «ما كتابك المفضل؟».

- «ليس لدي كتاب مفضل».

- «طيب، كل ما في الأمر... أنني اعتقدت أنك شغوفة بالقراءة».

- «بلى، أنا كذلك. لكن ما قصدته أني لا أفضل كتاباً بعينه بل كتباً كثيرة».

تبسم فتفتح وجهه قليلاً وكان لم يزل محمراً.

- «قال لي السيد فخري إنك تريد أن تغيّر العالم».

قالت ذلك وهي تتقدم نحوه مدركة أنها بذلك بصدد القفز من أعلى جرف ما، وقد اندهشت من قدرتها على التقدم رغم ذلك. توقفت لما باتت على بعد مقدار ذراع منه. هو، بسرواله الكاكي وشعره الكثيف ووجه الذي لم يغادره لونه القرمزي.

قال مطأطئاً عينيه: «في الواقع، لست أدري».

- «ولكنك سياسي، أليس كذلك؟».

رفع نظره إليها مندهشاً: «وهل يوجد في هذه البلاد من ليس سياسياً؟».

- «أنا»، أجابته بشبه كذبة.

- «ينبغي لك ذلك، لا سيما في هذه الظروف».

- «في الحقيقة لا أحب السياسة؛ لا خطبها ولا مظاهرتها».

- «إنها كل ما لدينا. يجب أن ننخرط في ذلك؛ لا يمكننا أن نسمح لهم بإسقاط رئيس الوزراء مصدق...».

- «أتصدق تلك الإشاعات؟ أنهم سيطيحون به؟».

- «إني قلق حيال الأمر، نعم. قد تقدم القوى الخارجية على

الأمر. أو حتى مواطنونا، الخونة منا. إنه أمر لا يفتأ. . .». ثم كف وأردف: «لا أريد أن أضجركِ بهذا».

- «لقد اعتدت على الأمر، فبابا يقول نفس ما تقوله تماماً».

رد باسماً: «أيفعل؟».

- «نعم. يغدق عليَّ بذلك».

لم يفه حرفاً ولبث يحملق في عينيها. ظلا ينظران أحدهما إلى الآخر فقط. أحست بالتوتر من كونها تحت نظراته، لكنها سرت من الأمر كذلك. لم يكن بوسعهما لمس أحدهما الآخر. لا ينبغي لهما لمس أحدهما الآخر.

قال برقة: «أنت شغوفة بالقراءة، أعلم ذلك. تحبين الشعر والروايات».

- «وما أدراك؟».

- «أراكِ كل ثلاثاء، ولاحظتُ أن هذا الجناح هو الأقرب إلى قلبك». وأومأ إلى الجهة حيث يضع السيد فخري ترجمات الروايات الأجنبية.

- «حقاً؟ تأتي هاهنا كل ثلاثاء؟ لم ألاحظ ذلك!».

ضحك فتهلل وجهه كلياً. ترجمت عيناه تلك الضحكة ثم امتلأتا طيبة ساحرة ثم قال: «جئت في أيام أخرى، لكن لم أجدك هنا عدا يوم الثلاثاء».

- «إنه اليوم الوحيد الذي أستطيع القدوم فيه».

- «وما تفعلين في باقي أيام الأسبوع؟».

- «أدرس».

- «أتفعلين؟».

«نعم»، قالت وأمعنت فيه النظر مردفة: «يريد والدي أن أصير

عالمة، أو كاتبة أعمال منشورة. . .». ثم همهمت: «مثل هيلين كيلر».

- «وأنتِ؟».
- «معذرة؟».
- «أنت ماذا تريدين؟».

كان سؤالاً سخيفاً. لم تدر إن كانت قد سُئِلت مثله من قبل. ألم يكفِه أن لها أباً يشد أزرها شداً ماضياً في نصرة ابنته وحملها على صهوة النجاح؟ ألم يبهره ذلك وهو مناضل من مؤيدي مصدق؟ «يريد والداي أن أختم دراستي الثانوية فألتحق بالجامعة لأصبح عالمة، على الأرجح».

- «وأنتِ؟ ماذا كنت لتفعلي لو كان لك أن تفعلي ما تريدين؟».

أربكها هذا السؤال الجريء فقالت: «كنت لـ. . . كنت لأطيع أمر والدي. أمي. . .».

دنا منها فتضوعت منه رائحة المسك الممزوج بالرياح، أشعرتها كأنها على وشك السقوط. أمسك يدها، وهو أمر لم يفعله من قبله أحد. لف أصابعه حول أصابعها فخفق قلبها بقوة. جفلت من لمسته لها لكنها أراحتها على نحو غريب.

- «أنت تحبين الروايات. . . لقد رأيتك».
- «وبعد؟».
- «فلتقرئيها إذاً. اقرئي ما شئت منها».

كم مرة أخبرتها ماما أنها ستدمي عينيها من كثرة القراءة؟ وكم مرة ألقت زاري بكتبها من على السرير وهي تقسم أنها قط ما رأت شخصاً مثلها يدفن رأسه في الكتب كما تفعل هي؟ فتقول لها إنها ستصير حدباء إن لم تكف، وتقسم جهد يمينها بذلك. وكم مرة

وعظها بابا عن أهمية الدراسة بغية بلوغ وظيفة جدية في هذا العالم، أما إن لم تستطع أن تصبح عالمة واختارت قراءة الكتب بدل ذلك، فالأحرى بها أن تؤلف هي كتباً إسوة بتلك المرأة كيلر؟

- «ما لم تكوني أنت أيضاً تريدين أن تصبحي عالمة أو مؤلفة. في هذه الحالة، افعلي ذلك بالتأكيد. افعلي ما تريدين».

ذلك الإحساس بالقلق والإجهاد الذي طغى عليها في المدرسة والبيت تبخر قليلاً، فأرادت أن تسمع منه المزيد، وأن تتحدث إليه. لم تكن تريد الذهاب.

رن الجرس ودلف السيد فخري لاهثاً وكانت قبعته معوجة. رآهما فاحمر وجهه وأشاح برأسه عنهما وابتلع ريقه فخليا يد أحدهما الآخر كما لو أنهما لسعتهما النار، وكما لو أنهما كانا يمسكان جمرة ملتهبة. ألفت الأمر كما لو أنها ضُبِطت سارقة. سحبت يدها إلى جنبها وطأطأت رأسها إلى الأرض مهمهمة: «يجب أن أرحل» وهرعت إلى الخارج. كانت مدركة أنها ستعود إلى هذه المكتبة مرات ومرات بصرف النظر عما قد يظنه السيد فخري أو أي شخص آخر، فتلك العروة التي تربطهما لا انفصام لها بعد اليوم أبداً.

الفصل الرابع

1953

السلاسل

كانا يلتقيان كل يوم ثلاثاء في فضاء ذلك المحل المغبر والبارد الذي تملؤه الكتب وأقلام المداد والمحابر. كانت رويا تجد الفتية غير المرغوب فيهم في ركن كل شارع من الشوارع، أما الفتى الذي شغفها حباً فلم تره إلا عشايا أيام الثلاثاء في المكتبة. كان يسألها عن بعض الأمور كمثل قولها في قصائد **گلستان**[1] لسعدي الشيرازي، وكانت مندهشة من إجاباتها الواثقة. خرج صوتها واثقاً وقوياً أكثر مما كانت تعتقد. وما هي حتى حصل لها اليقين أنه أذكى فتى عرفته يوماً ولعله أحسنهم طلعة، ولم يكن هذا غريباً عن فتاة في ربيعها السابع عشر تعيش في إيران وتحلم بأشياء عظيمة.

كان ناشطاً سياسياً. أخبرها أنه يوزع مقالات داعمة لمحمد مصدق في جامعة طهران وفي ثانويات في الجوار. كان يوزع نشرات ومطويات تعود للجبهة الوطنية عبر كل المدينة. من أين كان يأتي

(1) تعني لغة روضة الورد وهي من كلاسيكيات الأدب الفارسي، ألفها سعدي الشيرازي - المترجم.

بهذه المادة السياسية؟ من عند السيد فخري. كان لهذا الأخير غرفة تخزين صغيرة خلف المنضدة تحوي تشكيلة غنية من أشياء سياسة أخطر حتى.

لقد أصيبت بالذعر حين أخبرها بهمان عن ذلك أول مرة. عادت بذاكرتها إلى اليوم الذي أتت فيه الشرطة بحثاً عن جاليه في المدرسة، وتذكرت كيف قفزت الفتاة في الهواء محاولة تفادي قوة المياه العاتية وكيف سقطت في مرماه. كان بمقدور رجال الشرطة بكل بساطة قصد بهمان أيضاً واتهامه بنشر دعاية معادية للشاه. كان بمقدورهم اعتقاله. كان السيد فخري ضالعاً أيضاً في أمره! لم تكن لتخمن البتة أن السيد فخري قد يكون جزءاً من هذه الأنشطة السياسية السرية. لقد استخفت بذلك الرجل المستتب والهادئ الذي يقف خلف منضدة مكتبته.

لكن بهمان طمأنها.

انفرط عقد التيارات السياسية، وتصاعدت حدة العنف في التجمعات، وأصاب رصاص الشرطة بعض المتظاهرين الذين طوردوا وحوصروا في زقاق. لكن رغم أن رويا كانت خائفة على سلامة بهمان، كان من المحال ألا تُعجب بقضيته. لقد آمن بسياسات مصدق إيماناً راسخاً، وبحماس متقد أكثر من حماس بابا نفسه. قال لها إن الأمور تتغير في إيران وإن البلاد أمام مستقبل مشرق، ومصدق كان سيوفر لهم كل ما يحتاجون. إلّا أن كان ثمة أناس يقفون له بالمرصاد، لكن بهمان كان مصمماً على ألا يسمح لهم بإعاقة طريق رئيس الوزراء.

كان هو يتحدث وهي تسند بدنها على رفوف مرصوفة بالكتب،

وظهرها منغرز في ظهور كتب الشعر والسياسة. فإذا أبحر في أعماق أمور التفويض والضرائب والتجارة تفرست في عينيه وتاهت فيهما، لكنه تيه محمود جداً. كان السيد فخري ينزوي إلى الخلفية قائلاً إنه ينبغي له الدخول إلى غرفة التخزين، فكانا في أحيان كثيرة يبقيان وحدهما. ولكن كان ثم دائماً خطر الزبائن الذين يدخلون بغتة، وهذا ما كان يحصل مرات وكرات. فهؤلاء الكهول بنظاراتهم يلوون على قوائم بأدوات قرطاسية يريدون شراءها، وأولئك الطلبة الشيوعيون الشبان يطلبون مزيداً من المطويات الماركسية، والمحتجون من أنصار مصدق يريدون مزيداً من الكتب عن الفلسفة والديمقراطية، وكان من هؤلاء من تعرف على بهمان فأومأ له بإشارة تضامن، وهي نظرة فيها ما فيها من عرفان على ما كان يبذله للقضية.

غاصت في ظهور الكتب بينما كان يهمس في أذنها بكلمات. كانا قريبين جداً من بعضهما وكان لا يفوّت فرصة يتجرأ فيها على لمس يدها كلما آنسا خلوة، فلم تلبث أن ودت لو طال بها الأمد في المكتبة إلى الأبد.

كانت رويا في انتظاره، تتصفح محتويات جناح الروايات الأجنبية المترجمة. تشرع الباب فأشرف مرتدياً قميصاً أبيض وسروالاً كاكياً، ووجنتاه متوردتان وشعره نفشته الرياح. كان يلهث وهو يمشط المحل ببصره إلى أن وقعت عيناه عليها فأشرق وجهه وافتر ثغره عن ابتسامة واسعة.

حياه السيد فخري من وراء المنضدة: «حياك الله يا بهمان جان».

رد عليه التحية دون أن يزيح بصره عن رويا: «كيف حالك يا سيد فخري؟».

أخذا يتفرسان أحدهما في الآخر فتخشبت سحنة السيد فخري وظنته رويا للحظة أنه سيوبخهما لكنه تنهد وقال إنه ينبغي له القيام بجرد السلع؛ قال ذلك بنبرة غريبة ثم سمعته يصيب غرفة التخزين.

«كيف حالكِ؟». خاطبها مستعملاً التعبير الفارسي الذي يوحي بالحميمية.

ابتلعت ريقها بصعوبة وردّت: «أنا على ما يرام» ثم انحنت لتعيد رواية **آنا كارنينا** لليو تولستوي إلى مكانها. حين انتصبت واقفة، كان قد وقف بجانبها ولف ذراعه حول خصرها فتجمدت في موضعها كتمثال.

قال لها: «هيا معي، إنه يوم بديع، لن نجد أفضل من هذا اليوم لنخرج فيه!». أحست بذراعه قوياً ومتيناً حول خصرها الصغير.

همهمت باعتراض محتشم لكنها سمحت له باقتيادها إلى الخارج حيث ضوء الشارع الوهاج.

لقد كان محقاً. كان اليوم بديعاً. كانت المدينة غناء وقد أسدل الربيع ستاره عليها وتفتح كل شيء. دهشت رويا من روعة العالم من حولها. لم تكد تصدق أنهما قد خرجا نهاراً جهاراً فما كانا لا مخطوبَين ولا متزوجَين، كما أنها لم تخبر والديها بالكثير عن بهمان، اللهم بعض المعلومات القليلة مثل أنها التقت بفتى جادّ في المكتبة. قالت إنه من عائلة محترمة وإنه نذر نفسه لقضية رئيس الوزراء. كانت تعلم أن هذه المعلومة الأخيرة ستقع موقع إعجاب لدى بابا. أما زاري فنالت حظاً أوفر من المعلومات بما فيها تفاصيل عن أول لقاء لهما عشية الثلاثاء الأول، ثم عن كلمة «النار» لما

تحدثت إليه أول مر وسألت عن إحدى الكلمات الموالية في قصيدة لسعدي الشيرازي. اختلط على زاري إحساسان هما الفضول والريبة. قالت إن الفتيان الذين ينشطون في السياسة يُبالَغ في تقديرهم وإنها لا تأبه بمدى ثراء عائلته، فقد كان في نظرها مجرد مثالي تافه مهووس برئيس الوزراء، متوهماً أن في إيران من يستطيع تغيير سياسة البلاد دون الشاه. قالت إن على رويا أن تنضج وتدرك أنها إن أرادت اصطياد رجل ما، فليكن رجلاً أفضل من ذلك الفتى. ورغم هذا، كانت تريد أن تحيط بكل المعلومات حول وقوع أختها في حبه.

كان يسرع في مشيه حتى إنها اضطرت للهرولة لتلحق به فقالت: «رويدك يا بهمان!».

توقف قائلاً: «نعم بالطبع، أنا آسف» ثم استأنف المسير وكان ذلك على نحوٍ أبطأ بكثير وسرعان ما تساوت وتيرة خطاهما.

- «هل أنتِ على ما يرام؟».

- «أجل... أقصد، لا... أقصد، ماذا سأقول لأختي ولوالداي؟».

ظهر عليه الانشراح ثم اعتصر يدها إذ قال: «تقولين لهم، ولأي كان، أنكِ خرجت في نزهة مع حبيبك».

كان لذلك وقع كبير عليها؛ كادت تهوي وكاد قلبها يقفز من مكانه، لقد أحبت يده في يدها وأحبت كلماته لما قال: «حبيبك».

انعطفا وراء الزاوية ودخلا أحد أكبر ميادين المدينة حيث امتلأ الجو بالصياح. إنه تجمع آخر؛ مظاهرة سياسية أخرى فيها احتشد الناس وفيها كانوا يهتفون. في الجهة الأمامية من الميدان، نُصِبت المتارس وكانت الشعارات المؤيدة لمحمد مصدق تصدح من

مكبرات الصوت. ارتخت يدها في يد بهمان وامتلأت رعباً. أوحت إليها غريزتها أن تفرّ من المكان وتتفادى هذا الجمهور الصاخب.

- «بهمان، هلم بنا نرحل من هنا».

- «ألا ترغبين في رؤية ما يجري؟».

- «كلا، الأمر خطير».

- «لا داعي للقلق، لن يمسنا مكروه».

- «تقول زاري إن الشرطة تتعقب المتظاهرين، فلهم جواسيس مدسوسة وسط الحشود...».

- «لا تخافي».

أمسك يدها بقوة وجرها إلى وسط المظاهرة حيث كانت الهتافات تملأ سماء الميدان «يا مصدق، يا الموت!». شعرت بالتوتر. هل كان مناصرو مصدق بالفعل على استعداد للموت من أجله؟ هل كان بهمان مستعداً للموت فداء له؟

علا صوت الصخب بين الجمهور فهمس بهمان في أذنها: «هكذا تجري الأمور، هكذا نضمن الديمقراطية. لا يمكننا الجلوس في منازلنا مكتوفي الأيدي وندع الشاه والشركات الأجنبية تبسط سيطرتها. هنا في هذا المكان حيث نجعل لأنفسنا صوتاً مسموعاً».

جرّها إلى أعماق الحشد فتجاوزا طوابير من الناس وساقها إلى الجهة الأمامية من الميدان قرب المتارس. تفاجأت رويا لما أدركت أنا بهمان كان معروفاً لعدد كبير من الناس. كانوا يفسحون له الطريق وربت بعض الشبان على ظهره بينما غمز له أحدهم وكان أكبر سناً. هل يا ترى كان يجوب كل البقاع يوزع الخطابات والمنشورات؟ دب إليها شعور بالفخر كونها بصحبته رغم أنها كانت خائفة. كان الآخرون يكنون له الاحترام، لا شك في ذلك. عندما وصلا طليعة

المظاهرة، أخذها إلى جهة المتارس وجعل بدنه درعاً واقياً لها من بقية الحشد فأحست بقوة ذراعه على ظهرها.

كان في الجو طاقة كهربائية: حس التلاحم والغاية الموحدة. لم تكن قط لتأتي مكاناً مثل هذا لولا أن أتى بها هو. كان ليمنعها خجلها وخوفها. ربما كان بهمان محقاً، ربما ينبغي لها أن تكف عن القلق وأن ترخي العنان لنفسها كي تسمع وتتكلم. هل كان ذلك ممكناً؟ لقد جعل بهمان كل ذلك ممكناً.

هاهنا، كان في المكان الذي ينتمي إليه. كان مستغرقاً في اللحظة وكان منشرحاً. فتح فاه فتوقعت أن يقول شيئاً مثل: «أليس هذا بديعاً؟». كانت تتنبأ بما سيقوله - يا للعجب - كما لو أنها كانت تعرفه حق المعرفة. كلا والله. لقد كان مثيراً وكان من الصعب التنبؤ به، لكنه كان أيضاً. . . بهمان.

- «يمكننا امتلاك كل شيء!»، قال لها.

- «لكن الشيوعيين يعارضون مصدق وقد. . .».

- «إنما أقصد أنت وأنا. يمكننا أن نملك العالم».

شعرت وهي تقف بجانبه وسط الحشد أن المستقبل أكبر وأرحب مما اعتقدته يوماً. مالت على المتراس وهتفت مع من هتف. كانت ثمة أمر يثير الشغف على نحو غريب في ذلك المكان. تدفق الأدرينالين في كل جسدها وحضرها إحساس بالأمل. كانت ثقتها تتصاعد فتهتف وتعلو حدة صوتها أكثر فأكثر. أسفعت الشمس وجهها وكانت ضفيرتا شعرها تثبان على نهديها كلما لوحت بقبضتها في الهواء. سال العرق على ظهرها وتبللت ياقة قميصها. لقد طال عليها الأمد مختبئة. لماذا؟ كان بهمان محقاً فهؤلاء الناس لم يكونوا خائفين. كانوا كلهم يستجيبون لواجب الكفاح، والاحتجاج،

والخروج في المظاهرات، ذلك حتى يستطيع مصدق المضي قدماً بمشروعه وحتى تنعم البلاد بالحرية. توكأت على خشب المتارس المتشقق بجواره، فبدا لها كل شيء قابل للتحقيق. لقد كانا يشكلان جسداً واحداً أحدهما مع الآخر ومع الحشود الموحدة والمتلاحمة. كانا على موعد مع الكفاح، وكان **كلاهما** على موعد مع تغيير العالم.

- «يبدو لي أنك تستمتعين بالأمر».

تبسمت واسترسلت في هتافها.

- «لا داعي أن يطول مقامنا هنا فكل ما أردته هو أن تري العالم وكيف تجري الأمور في الخارج. لا أريدك أن تعتقدي أنك ينبغي لك الخوف من ذلك، إنهم مجرد أناس. أناس مثلنا. هذا كل ما لدينا، هل تفهمينني؟».

سمعت صوتاً كمثل ضربة السيف؛ صوت عندما رددته في ذاكرتها خلال الأسابيع والشهور والسنون التي تلت، أدركت أنها سمعت معه أيضاً قعقعة صغيرة كرنين يصدره جرس معطل. وفجأة انثنى بهمان منطوياً على نفسه وأز أزيزاً فمالت إليه وهو يكابد من أجل التنفس. ولما نظرت من حولها، ظهر لها ثلاثة رجال وراءهما يتبسمون في تكلف. كان الثلاثة يلبسون سراويل سوداء وأقمصة بيضاء ويضعون برانيط سوداء داكنة، وكان أوسطهم يحمل هراوة تلفها سلسلة مسننة. ما زال بهمان يلتقط الهواء وقد بدأ جرح كبير في رقبته يسيل دماً. هل كان الثلاثة يا ترى يتبعانهما منذ البداية أم أنهم شقوا طريقهم وسط الجمهور حتى يصلوا إليه؟ سعل بهمان بينما كان دمه يقطر من السلسلة التي في نهاية هراوة أحد الرجال. ظلت رويا تدلك ظهره وتنادي باسمه، حتى كابد وانتصب واقفاً، وقد

كانت أمارات الوجع تعلو وجهه وبقعة قرمزية تتسع عبر ياقة قميصه متخذة سبيلها أسفل قميصه.

«كان هذا تحذيراً صغيراً يا سيد أصلان»، قال الرجل ذو الهراوة والسلسلة. «لا تنشر المزيد من الهراء، لن يجلب عليك خيراً».

ساورت رويا رغبة في الانقضاض عليه. أرادت أن تجد الشرطة وتصيح لكي يعتقلوهم ويكبلوا أيديهم ويسوقوهم بعيداً.

هز أوسط الرجال كتفيه وقال: «أنتم يا أنصار مصدق من الجبهة الوطنية كلكم سواء. لا اختلاف بينكم عندي. كلكم لا نفع فيكم، إن غيابكم أنفع لبلادنا من حضوركم». خرج صوته خاملاً وضجراً.

لامس بهمان مؤخرة رقبته ونظر إلى يده المخضبة بالدماء كما لو لم تكن يده ثم جر رويا بيده النظيفة وشقا طريقهما بين الرجال الثلاثة دون أن ينبس ببنت شفة وخرجا من الحشد. اتخذا سبيلهما إلى الشوارع بعيداً عن المظاهرة وبعيداً عن الميدان وعند وصولهما إلى ركن شارع هادئ حيث استأمن واطمأن بهمان، توقف وسألها: «هل أنتِ على ما يرام يا رويا جون؟ هل مسّك مكروه؟».

- «يجب أن تذهب إلى الطبيب يا بهمان».

- «أنا آسف. ما كان علي أن آتي بك إلى مكان كهذا البتة».

كان قميصه الملطّخ بالدماء قد التصق بلحمه والدم يقطر من عنقه.

- «سأرافقك إلى المشفى».

- «كلا، اسمحي لي بمرافقتك إلى بيتك».

- «لقد جرحوك! أنت بحاجة إلى طبيب كي يقطّب الجرح. يجب أن نشتكي إلى الشرطة».

امتلأت عيناه بالدموع وقال: «هم من الشرطة».

- «ماذا؟».

- «إنهم يعملون لمصلحة الشاه».

في تلك اللحظة، انضم إليهما صبي طويل القامة في سنهما مهرولاً وهو يلهث، ثم قال وهو يلتقط أنفاسه: «لقد رأيت ما حدث، يا بهمان جان. رأيت كل شيء؛ هؤلاء الرعاع الحثالة، هؤلاء الأوغاد الجهلة، لا أفهم كيف لأصحاب السلطة أن تذهب بهم أنفسهم إلى استرزاق هؤلاء السفاحين. كلا والله، أفهم، وتفهم أنت أيضاً. مرحباً يا خانم، اعذريني على تصرفي». ثم رفع قبعته لرويا مردفاً: «أنا جهانگير، سررت بلقياك».

كان جهانگير يلبس سترة خضراء من الموضة الغالية وتحتها قميص رملي، وكان له شارب مرتب فبدا بهيأة أقرب إلى هندام سهرة ليلية منها إلى هندام الاحتجاج.

- «أنا رويا، سررت بلقياك»، همهمت رويا.

رفع جهانگير قبعته لها مرة أخرى قائلاً: Enchanté (تشرفت بلقائك). كانت كلمة فرنسية لم تسمع بها من قبل، فأردف بعدها: «هل تقدرين على العودة بمفردك يا رويا خانم؟ يتعين علي أخذ هذا الفتى إلى الطبيب فحاله تستعجل ذلك، أنا متأكد أنك تشاطرينني الرأي». لامس جهانگير ذراع بهمان متفادياً الدماء التي تعلو قميصه ثم وضع ساقه فوق الأخرى على نحو متقاطع كأنه يتخذ وضعاً لصورة فوتوغرافية.

- «سأصطحبكما إلى المشفى»، قالت رويا.

- «ومن ذكر أمر المشفى؟ أنا سأذهب به إلى مصحة والدي».

- «لكن يمكنني. . .».

- «لست مضطرة إلى القدوم معنا يا رويا جون. يكفي ما عرّضتك إليه من خطر اليوم»، قال بهمان.

- «نعم، لا تقلقي. سوف أعتني به جيداً، كما أفعل دائماً». قال جهانگير ذلك وتبسم كاشفاً عن أسنان تشبه أسنان نجوم السينما.

شعرت رويا فجأة أنها دخيلة على صديقين ظهر أنهما خلين عزيزين تربطهما الثقة فقالت: «طيب، إذاً، أعتقد أنني. . .».

- «سنرافقك إلى بيتك أولاً يا رويا»، قال بهمان.

فقال جهانگير مع ابتسامة متوترة: «أنت بحاجة إلى مطهر يا صديقي، فجرحك ينزف. هلم قبل أن يلتهب الجرح».

- «لكن يجب أن نرافق رويا إلى بيتها، فما كان عليّ أن آتي بها إلى المظاهرة».

- «سأكون على ما يرام، فقط اهتم بنفسكَ رجاء».

حرّك جهانگير قبعته لها وأومأ لها بهمان من وراء ألمه ثم اتخذت سبيلها إلى حيث بيتها.

في طريق عودتها، كانت تعيد مشهد المظاهرة في خلدها. فكّرت أنه كان يملك مبرراً ليضرب هو أيضاً ويثأر لنفسه، وما كان أحد ليلومه لو أنه أمسك بالرجل الذي اعتدى عليه وضربه انتقاماً لنفسه. لقد كان له الحق في ذلك. ولكنه تورع عن الأمر بالطبع، إدراكاً منه أن انتقامه لن يكون إلا زيتاً فوق النار، كما أنه كان قلقاً بشأنها، وكل ما أراده هو أن يخرجها من هناك ويوصلها إلى بيتها سالمة. لقد أدهشتها كياسة الفتي الذي سيغيّر العالم التي لا حدود لها.

كانت قلقة بشأن جرحه؛ كانت قلقلة بشأن دمه الذي قد ينتهي إلى التهاب. كانت قلقلة بشأن بلادها؛ بلاد يستطيع فيها سفاحو الحكومة المستأجَرون مهاجمة مراهق وسط الحشود.

الفصل الخامس

1953

مقهى غنادي

نظفن البيت كاملاً استعداداً **للنوروز**. سهرت ماما الليل عدة أسابيع في حياكة فساتين جديدة لبنتيها. ويوم فاتح فصل الربيع، تحلقت الأسرة حول سفرة **هفت سين**[1] وكانت الأختان تلبسان ملابس جديدة بما فيها ملابسهما الداخلية، فلما دقت ساعة الاعتدال الربيعي بالضبط التي أذنت بنهاية الشتاء وحلول الربيع، قفز الجميع وعانقوا وقبلوا بعضهم. تلى بابا ما تيسر من الذكر ثم بعضاً من غزل حافظ الشيرازي. أصبحوا الآن في السنة الجديدة.

جرى التقليد بزيارة الأقارب خلال الأيام الثلاثة عشر التي تلي فاتح فصل الربيع؛ بادروا بكبار السن ثم تدرجوا إلى الصغير فالأصغر. كانت المحلات والمطاعم مقفلة الأبواب بمناسبة العطلة،

(1) تعني عبارة **هفت سين** بالفارسية السينات السبع وتشير إلى السفرة التقليدية التي تحضر بمناسبة **النوروز** حيث يوضع على المائدة سبعة أشياء تبدأ أسماؤها بحرف السين وهي سبزه (الخضرة) وسركة (نوع من الخل) وسنجد (تمر) وسنو (حلوة إيرانية) وسيب (تفاح) وسير (ثوم) وسماق (نوع من البهار) - المترجم.

وكانت رائحة حلوى الحمص والفستق ومعجنات دقيق الأرز وماء الورد التي تعدها ماما تملأ الأجواء.

مضى أسبوعان وحل الثلاثاء الأول بعد فتح المحلات أبوابها من جديد، فهرعت رويا إلى المكتبة. اكتست المدينة يومها حلة من الأزهار مختلفة ألوانها، وكانت البراعم تتفتح وهي تجري لاهثة تقطع الشوارع.

فتحت الباب فرنّ الجرس الذي يعلوه كما دأب، فرأته واقفاً هناك أمام المنضدة يتجاذب أطراف الحديث مع السيد فخري الذي كان يدوّن ملاحظات في دفتر صغير. سمعت صوته فشعرت بارتياح كبير.

رآها السيد فخري أولاً فوضع قلمه المداد وبادرها التحية:

- «سال نو مبارك رويا خانم (عام مبارك يا رويا خانم)».

- «عام مبارك لكما».

نظر إليها بهمان فتهلل وجه وافتر ثغره عن ابتسامة مشرقة ثم حياها: «مرحباً! كيف حالك؟ كيف حال أسرتك؟ عسى **النوروز** كان سعيداً عندكم؟».

اقتربت منه ولم تقدر على إخفاء اندهاشها لدى رؤيتها ما يشبه طابور النمل الأسود الذي كان يعبر رقبته. إنها غرز الجرح الذي سببه له أولئك السفاحون.

قال لها: «لا تقلقي، لقد عقمه والد جهانگير بمعقمات تكفي لتطهير مستنقع بأكمله. أنا على ما يرام».

دلف زبونان آخران فانطلق السيد فخري إليهما. تناول بهمان شيئاً من على المنضدة وأعطاها طرداً ملفوفاً في ورق أحمر قائلاً: «تفضلي، اقتنيتها من أجلك؛ إنها عيدية العام الجديد».

- «لم كلفت نفسك؟».
- «أردت أن أهديك شيئاً».

استطاعت التخمين أن محتوى العيدية كان كتاباً. فتحت اللفافة بعناية كما لو أنها ستحتفظ بالورق إلى الأبد، ولما نحت اللفافة تفاجأت أن الهدية مفكرة لا كتاب.

قال لها بخجل: «هذا لكي تدوني فيه قصائدك».

فتحت المفكرة فرأت ما كتبه في أول صفحة: «إلى رويا جون، حبيبتي. جعل الله أيامك كلها سعادة وملأها بأجمل الكلمات».

وكان قد كتب بخط يده تحت تلك الكلمات مقطعاً للرومي:

عندما أحسست بالحب أول مرة،
بدأت أبحث عنك.
كنت أعمى؛
لم أكن أعرف أن العاشقين لا يلتقيان،
لأن كل واحد منهما يسكن الآخر إلى الأبد.

قال متردداً: «آمل أن تكون قد أعجبتك».

ساورتها رغبة في أخذ وجهه بين يديها وتقبيله حتى تعبّر عن مدى حبها لهديته لكن السيد فخري وزبونيه كانوا في الجانب المقابل من المحل فاكتفت بالقول: «إنها رائعة، شكراً لك».

- «هل أمامك متسع من الوقت الآن لتأتي معي؟».
- «عندما خرجنا في المرة الماضية لم تنته الأمور على خير».

احمر خجلاً قائلاً: «لقد كرهت ما رأيتِ يومها، لكن لا يوجد أية مظاهرات اليوم فلا يزال الجميع محتفلاً بالنوروز. أعدك أن نذهب إلى مكان آمن ولطيف».

خرجا سوياً وكان هذه المرة يسير على نفس وتيرة خطواتها. استطاعا بفضل طراوة العام الجديد نسيان ويلات السياسة بسهولة، ذلك أن النوروز يظل العطلة الوحيدة التي تبعث السعادة في نفوس الجميع. كانت أثر الاستراحة من أعباء العمل والدراسة بادية على الجميع من اكتناز بدن وبشاشة سحن.

مرا عبر ميدان الفردوسي، وعند النافورة وسط الميدان، ألفيا امرأة مسنة لباسها أحمر من رأسها إلى رجليها. كانت تلبس فستاناً أحمر وتنتعل حذاء أحمر وكانت تنظر ميمنة وميسرة كمن ينتظر شيئاً أو شخصاً ما، وكانت تعلو محياها تعابير الترقب القنوط.

- «يقال إنها كانت تنتظر لقاء حبيبها هنا»، قال بهمان وهو يتناول يد رويا.

- «لقد رأيتها هنا من قبل».

- «أجل، لكنه لم يحضر قط. مضت سنين وسنين ولم يحضر، حتى إن أحد زملائي في الفصل نظم قصيدة عن هذه الروح المسكينة».

- «يا للوعتها».

قال بهمان وهما يبتعدان عنها: «بعض الأيام لا أطيق النظر إليها».

مشيا بضعة أمتار فتوقف بهمان أمام نافذة أحد المحلات كتب على زجاجها بالحروف اللاتينية الكبيرة CAFÉ GHANADI (مقهى غنادي). كانت رويا قد مرت أمام هذا المقهى مرات عديدة عدا أنها لم يسبق لها دخوله. بدا أنه محل مخصص للراشدين والراقين من الناس؛ لأناس يفضلون القهوة على الشاي، وللبنات مع خطابهن، والأزواج الأنيقين ذوي أزياء كأزياء نجوم السينما الأمريكيين.

أخذها إلى الداخل حيث صفوف من الحلوى في علبة زجاجية، وطاولات صغيرة مدورة وكراسي مبطّنة بوسائد زهرية، وجدران مطلية بالزهري الفاتح، وأزهار في مزهريات رقيقة، والكريما تفيض من حلوى الإكلير ومن الكعك الصغير؛ كل ذلك جعلها في حالة من الدوخان.

كان الجو يفوح برائحة السكر والقهوة والقرفة. ساقها بهمان إلى الجهة الخلفية ممسكاً يدها كأنهما زوج وزوجة وكان جسده يلتصق بجسدها وهما يراوغان الطاولات. كان المسك يتضوع منه مع رائحة أخرى لم تتبين رويا ماهيتها لكنها كانت قد شمّتها يوم الثلاثاء السابع عندما أمسك يدها أول مرة في المكتبة. بدت لها كرائحة الريح - ريح سريع، ومنعش، ومثير. تعلقت بذراعه القوية فاجتمع عليها إحساس بالارتياح والغرابة. ولعل ذلك كان من رائحة القهوة والقرفة في الهواء، أو لعله إدراكها لوجودها في هذا المقهى الراقي مع بهمان أصلان الوسيم، لكنها ما لبثت أن اقتعدت الكرسي الذي جره لها حتى قطعت اليقين أن هذا المكان الزهري ذو رائحة السكر يدور برمته.

- «ماذا تطلبين؟».

- «شاي، من فضلك».

- «هل شربت قهوة بالحليب من قبل؟».

- «معذرة؟».

لم تكد تسمعه من فرط هذر العشاق من حولهما. كانت الصبايا ذوات أزياء الموضة الجالسات على كراسي تكسيها الوسائد الزهرية يشبهن الممثلات الأجنبيات اللواتي لم تراهن إلا على أغلفة المجلات. كان شعرهن متموجاً على نحو بديع (أمواج كتلك التي

كانت زاري تعمل جاهدة على محاكاتها متوسلة في ذلك بقصاصات من الجرائد كل ليلة). كانت هذه الصبايا يدردشن بطلاقة مع شبان يجلسون قبالتهن. كان هذا العالم السريالي الذي يحتضن هؤلاء العشاق الراقين مثملاً كحال علبة الحلوى الزجاجية. هل كان هؤلاء العشاق مخطوبين؟ وكيف كانت لتكون ردة فعل ماما وبابا لو رأياها تقتعد كرسياً مغشى بوسادة زهرية قبالة أحد الشبان؟

- «سأعود حالاً»، قال بهمان وانطلق إلى حيث تباع الحلوى.

عاد إثر ذلك بعدة دقائق حاملاً صينية فيها كوبا قهوة بالكريما وطبقاً فيه قطعتا حلوى. ناولها أحد الكوبين ووضع الصينية فوق الطاولة ثم جلس وطفق ينظر إليها وهي ترتشف قهوتها التي لسعت شفتيها من فرط سخونتها. كانت ساخنة وقوية وغنية.

- «الأذن لك، واللسان لي».

- «معذرة؟».

قالت ذلك وكادت تبصق مشروبها.

- «الحلويات. أذن الفيل لك ولسانه لي».

سكت وتبسم لها ثم نظرت هي إلى صحنها؛ كانت إحدى قطع الحلوى على شكل أذن الفيل فيما كانت الأخرى لساناً في شكل مستطيل.

- «هل أعجبتكِ القهوة بالحليب؟».

كانت القهوة قوية، غير أي ما ذاقته من قبل. «إن طعمها... مختلف».

نقر الطاولة بأصابعه وقال: «هنا فقط يمكنكِ إيجاد أفضل أنواع الإسبريسو الإيطالي في إيران». ثم مال إزاءها وأمسك يدها مردفاً: «قد يصبح هذا المكان ثاني أفضل ملاذ للقاءاتنا، ما قولك؟».

تبسمت رويا وأومأت إيجاباً.

- «ما قصدي بذلك أنني لا أحب برايات الأقلام ودواوين الرومي. وكذلك المظاهرات، ولكن...».

ضحكت مرة أخرى وأحست أنها ولدت لتوها. لم تصدق أنها أخرجها من المكتبة مجدداً وأخذها إلى إشراق العالم كما لو أن قدرهما أن يخرجا سوياً ويراهما الناس سوياً ويجلسا ويرتشفا القهوة ويأكلا سوياً. تساءلت إن كانا سيحظيان بالكعك والإكلير والحلويات إلى الأبد. هل سيجلسان قبالة بعضهما ويحتسيان الإسبريسو الإيطالي؟ كانت تحس بالدوار وغمرها يقين عبثي مفاجئ أن هذا الفتى هو قدرها في هذا العام الجديد وما يليه.

- «من السخافة أن تقولي إنك ستتزوجينه. أنت لم تلتقيه إلا... كم مرة؟ ست مرات؟».

هكذا نعرت زاري وهما في طريق عودتهما من المدرسة في يوم لاحق من ذلك الأسبوع.

- «إننا نتقابل منذ شهور، وشكراً على تعليقك. ثم إن الوقت لا يهم على كل حال».

توقفت زاري ونظرت إليها نظرة إشفاق: «ويلاه يا أختي! لا شيء أهم من الوقت، كما أنك لا يمكنك تعليق آمالك على ذلك الفتى».

- «ولم لا؟».

- «لأن...» وسكتت برهة ثم أردفت: «كل ما في الأمر أنه غير جدير بالثقة. إن هؤلاء السياسيين ليسوا كما تعتقدين».

- «وما يدريك؟».

- «يدريني ما يدريني. صدقيني».

أكملتا طريقهما في صمت مطبق. كانت رويا راغبةً في الشعور بأن ما قالته أختها ما هو إلا كلام ناشئ عن غيرتها لا عن تبصرها بالأمور. لم تكن في ريب من أن أختها بالغت في ردة فعلها، كما تفعل دائماً، وكل ما في الأمر أنها لا تحب السياسيين. حاولت رويا ذر الريب والقلق الذي حملته إليها كلمات أختها ففكرت في المفكرة التي أهداها بهمان وفي المقطوعة التي دونها فيها: **العاشقان لا يلتقيان، لأن كل واحد منهما يسكن الآخر إلى الأبد.**

ثم قطعت يقينها أن زاري بلا شك مخطئة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السادس

1953

سماء أرجوانية

كان الصيف على الأعتاب، وكانت الأشجار قد ازدهرت، وكانا في ربيعهما السابع عشر يتجولان في الجادة تحت سماء الشفق والهواء تملؤه نفحات الياسمين. كل ذلك حُفر في قلبها حفراً لسنين تلي.

قبل ذلك كانا قد ذهبا إلى سينما متروبول الواقعة في شارع لاله زار حيث الردهة الأنيقة التي تؤثثها أريكة حمراء مدورة وثريا متلألئة. هناك، الزوار يلبسون من حللهم أزهاها، وصور كلارك غيبل وصوفيا لورين معلقة على الجدران، والسجائر تُدخّن، ونساء ببرانيطهن يرتشفن من فناجين القهوة الصغيرة. هذا الجو الرومانسي المهيمن على المكان برمته أوحى إليها بإحساس أنها كانت داخل فيلم من الأفلام. صعدت وبهمان إلى قاعة العرض حيث جلسا على كراسي مخملية كستانئية وشاهدا فيلم المخرج الإيطالي فيتوريو دي سيكا: **سارق الدراجة**.

همس في أذنها إذ بدأ الفيلم: «أحب أعمال هذا المخرج، ولا أطيق انتظاراً لمعرفة رأيك فيه». كان فمه قريباً جداً من أذنها مما

شتت ذهنها فبلعت ريقها بصعوبة وأومأت. كانت الكثير من الأمور جديدة وسالبة في عالمها مع هذا الفتى.

انتهى الفيلم فتركا ردهة سينما متروبول الباهرة واعتنقا شفق الصيف البديع تحت سماء أرجوانية وغيوم في لون الجراح.

«ما أشبه قصة الفيلم بما يجري في إيران حالياً»، قالت رويا وهما يمشيان في الجادة مردفة: «يرغب الفقراء في بلادنا في ظروف حياة أفضل، لكنهم عالقون لا يجدون إلى التقدم سبيلاً. يجب أن يتحرك قادتنا لمساعدتهم. كذلك قصة الفيلم؛ فكل ما أراده ذلك الرجل هو دراجة تقله إلى عمله لا أكثر». مكتبة سُر مَن قرأ

تفاعل بهمان مع كلامها بحماس متقد فأمسك يدها قائلاً: «أشاطرك الرأي، شعبنا عالق بنفس الطريقة. الناس لا يبرحون طبقاتهم الاجتماعية المعدمة، ولا يجدون سبيلاً للهروب من قدرهم، بيد أننا نستطيع تغيير ذلك بفضل الديمقراطية؛ إننا نسير على المسار الصحيح».

- «تقول زاري إننا لن نستطيع بسط سلطاننا على مواردنا، وما قول خلاف ذلك إلا ضرب من الوهم. تقول إن التخلص من القيد البريطاني لأمر صعب».

- «تتميز أختك بأفكار سياسية قوية وجيدة قياساً بشخص لا يحب السياسة».

ضحكت من مقاله فأردف:

- «كل ما علي الآن هو إقناعها أنني لست شخصاً شنيعاً!».

- «دعك من زاري فهي تبالغ قليلاً، هذا كل ما في الأمر».

لما أزفت نهاية السنة الأخيرة من الثانوية، كانت رويا قد بدأت

تدعو بهمان إلى اللقاءات التي كانت تقيمها هي وزاري في البيت لأصدقائهما بعد المدرسة. لم تكن لقاءات باذخة، بل أشياء بسيطة مثل شرائح الفواكه وبعض الضحك والدردشة. لم يكن هو الذكر الوحيد هناك، بل واحداً بين كثير من الأصدقاء والأقارب الذين كانوا يشكلون جزءاً من «L'équipe» (أي الفريق) كما كان يحلو لزاري تسمية هذه الدائرة من أترابهن. قدمته لماما وبابا فأسعدتها فكرة إمكانية وجوده في بيتها يلاغي أصدقاءها ويندمج في محيطها فيغدو واحداً منهم.

تسمر فجأة في مكانه وسكت عن الكلام فاستفسرته:

- «ما الخطب؟».

- «أردت أن أعرف. . .» كان التوتر بادياً عليه. «أردت أن أسألك. لطالما أردت أن أسألك يا رويا. . .» تقطع صوته لدى نطق اسمها وتكأكأ كصوت فتى في الثالثة عشرة. كانا وسط الرصيف فجرها برفق جانباً قرب جنبة كثة الأوراق والخضرة حتى شكلت أوراقها المتدلية معتزلاً، وفجأة غمرتهما رائحة الياسمين، قوية ومسكرة.

نظر إليها فذهلت من حال الاستضعاف التي آل إليها.

لم تسمح له بنطق تلك الكلمات، فلم تعد لها حاجة، ولم ترغب في التظاهر بعدم فهم الأمر. وسط ضباب الياسمين الذي لفهما، اقتربت منه وقبلته فشعرت وهي تفعل ذلك أنها حطت في مكان كان ينبغي لها النزول فيه منذ زمن؛ بُعد آخر حيث تسود نعومة وسحر لا مثيل لهما - مكان خاص بهما لكنها لم تتجرأ على سبر أغواره قط.

وهي ما زالت تقبله، حمل إليها طعم فمه، وذراعاه حول خصرها، وجسده الملتصق بجسدها، شعوراً بالمطلق واللامحدود، وحين انتهيا وتراجعت منه كان وجهه يشتعل احمراراً وبدا مهزوماً.

قال وقد بدا على وشك السقوط: «أظن أن هذا كان قبولاً منك».

- «نعم، هو كما قلت».

أحسّت بالسلطة عليه فأشعرها ذلك بالتحرر والذهول، وهي التي لم تكن قط تدري بقوتها وبأسها عليه من قبل.

- «سأذهب إلى والديك لطلب يدك منهما بالتأكيد».

كانت قد سلمت أنه قبّل إحداهن من قبل، لكنها بعد ذلك افترضت خلاف ذلك. أما هي فلم يسبق لها أن قبّلت صبياً فكانت مندهشة لما وجدت ذلك أمراً طبيعياً جداً كما لو أنها دأبت على فعله دهراً.

- «إن وافق والداك فسنتزوج في نهاية الصيف. إن غايتي الوحيدة هي القرب منك ولا أريد أكثر من ذلك. فقط أن نعيش تحت سقف واحد».

لا بد أن هذا هو القدر المدوّن على جبينيهما بالحبر الخفي منذ ولدا. لقد وافقت... لكن علام؟ على القبلة؟ على الزواج؟ ارتفعت دقات قلبها ثم انحنى إليها وقبّلها مرة أخرى. إن ما كان يبدو في البداية قوياً ومجفلاً في التجربة الأولى تحول إلى شيء في غاية الرقة - رقة ملموسة كأنها تنبثق من أسدية زهرات الياسمين التي في الجنبة. ذابت في حضنه. لم يكن من اللائق أن يحدث ذلك قبل الزواج، ولكن ها هو يحدث. رباه، إن بنات الناس لا يفعلن هذا،

ولكن رويا لم تعبأ للأمر. كانت تشتهي افتراسه افتراساً هناك. ولو ظلا يفعلان ذلك أبداً لما استشفت وطلبت مزيداً.

- «أعجبك **صوته**؟ تقولين إنك ستتزوجين ذلك الشاب لأن صوته تكأكأ؟».

- «أحب كل شيء فيه؛ إننا نحب أحدنا الآخر».

كانت الأختان مستلقيتين في غرفتهما في وقت لاحق من تلك الليلة تتهامسان بعدما انطفأت الأضواء؛ فما برحت رويا تعيد في خلدها مشاهد ما حدث ذلك المساء؛ صوت بهمان الذي تكأكأ لدى طلب يدها، وتلك القبلة قرب الشجيرات. أعادت كل تلك المشاهد التي تقاسمت بعضاً من تفاصيلها مع اختها زاري فغدت نادمة على ذلك الآن.

- «هكذا إذاً، تكأكأ صوته وهذا أمر رائع في نظرك حتى أنك تزمعين الزواج من شخص قد يُزَج به في السجن في أية لحظة بسبب نشاطه السياسي؟ شخص بالكاد تعرفتِ إلى والديه؟».

- «كفي عن المغالاة في كل شيء. إنه امرؤ نذر نفسه لمستقبل بلادنا وهو يناضل من أجل قضية تستحق النضال، أليس هذا مثيراً للإعجاب؟».

- «وأمه؟ قلت إنها كانت فضة معك حين لقيتيها أول مرة».

- «لم تكن فظة بمعنى الكلمة. كل ما في الأمر أنها لم تكن في حال جيدة. قال بهمان إنها كانت مريضة. وستتحسن حالها».

- «لا أكاد أصدق أنك وافقت!».

- «اسمعيني يا زاري، إن الوقوع في الحب أمر يصعب تفسيره.

إذا عرف المرء منا أنه مع الشخص الصحيح، شعر به في أعماقه ولا يجد إلى ذلك تفسيراً. إنه أمر لا مفر منه. إن الأمر أشبه بـ. . . بسقوط شجرة على رأسك».

- «كلام يسرّ».

- «ما أعنيه هو. . . القلب يستحيل أن يخطئ، تلك هي الحياة. بهمان هو قدري ومعاً سوف. . .».

خانتها الكلمات في شرح تلك الشبكة الرقيقة التي وقعت فيها مع بهمان عشية ذلك اليوم وفي كل مرة يلتقيان، حتى إنها أحست أن محاولتها وصف ذلك الإحساس هو استرخاص له.

تنهدت زاري قائلة: «طابت ليلتك يا أختي». فاستكنت رويا وقد استحسنت انتهاء ذلك الحديث فأردفت أختها وهي تمسك يدها: «سأدعو لك!».

يوم زار بهمان والدي رويا ليخطبها، ساد التوتر على الجميع. كان قد ذهب إلى بيتها قبل ذلك في بضع مناسبات عند نهاية الربيع وبداية الصيف، لكن تلك الزيارات كانت بصحبة أصدقاء آخرين. أما هذه المرة فقد قدم لوحده. كانت الأعراف تقضي بضرورة حضور الشاب رفقة والديه إذا أراد الخِطبة، بيد أنه أخبرهم أن والدته لم تكن في حال جيدة مما اضطر والده إلى البقاء كي يعتني بها فجاء هو بمفرده.

عندما كان بهمان يحضر تلك اللقاءات الصغيرة في منزل رويا ويتكلم عن شغفه بسياسات رئيس الوزراء، شعر بابا كمن وجد ضالته؛ فقد كان الاثنان يتفقان في المواقف السياسية، مما جعل

بهمان ينال حظوته في قلب بابا وتلك أفضلية معتبرة. ولكن ليست المواقف السياسية المشتركة كطلب يد ابنته للزواج؛ هما أمران مختلفان تماماً وهما يعيان ذلك.

كانت رويا متوترة جداً أنْ دلقت الشاي وهي تقدم الفناجين لبابا وماما وبهمان. كان الأخير يجلس قبالة والديها في غرفة الجلوس يعض على شفتيه ويهز قدميه من شدة التوتر. ساءها حاله وودت لو أمكنها مساعدته؛ لقد كان وضعاً منافياً للأعراف تماماً، ووجوده هناك دون والديه أجج من صعوبة الأمر عليه. كان يفترض بهما أن يكونا هنا! غادرت رويا الغرفة بعد أن قدمت لهم الشاي حتى يتسنى لبهمان أن يكلّم والديها في غيابها. غادرت لكنها لم تغلق الباب، تركت شقاً منه مفتوحاً ثم انضمت من فورها إلى زاري التي كانت تنتظر خارج الغرفة فأخذتا تترصدان القول.

رحّب بابا بضيفه قائلاً: «مرحباً بك في بيتنا يا بهمان جان».

- «هل ترغب في بعض النُّقل[1] مع الشاي؟»، سألت ماما. من وراء شق الباب رأت رويا ماما تقدم وعاء مليئاً بحلوى اللوز لبهمان.

- «سلمت يداك يا خانم كيهاني، شكراً لك».

كان بهمان يستعمل في كلامه تعابير شائعة من معجم اللباقة المبالغ فيه في الفارسية، ثم مد يده وتناول من النُّقل.

تبادلوا بضع مجاملات أخرى، أردفها بابا بملاحظات عن الطقس، فيما قالت ماما شيئاً بخصوص الفواكه وسألت الضيف إن كان يرغب في بعض منها، ودعته للأكل من هذا الطبق وذاك وقالت

---

(1) حلوى إيرانية تعد من اللوز المسلوق المغطى بالسكر المغلي بالماء وماء الورد، وتعد في سوريا باسم الملبس - المترجم.

أشياء عن طراوة الخيار. لم يرفض بهمان الدعاوى مدركاً أنه لا ينبغي له ذلك. ثم ساد صمت مطبق فحبست رويا أنفاسها وعضت زاري على أظفر إبهامها.

كسر بهمان جدار الصمت بسعال ثم أنشأ يقول: «كما تعلمان، يا آغا كيهاني وخانم كيهاني، حصل لي الشرف، خلال الأشهر السبعة الماضية منذ الشتاء الماضي، أن أتعرف على ابنتكما، ولقد كان ذلك من حسن حظي وجميل بختي».

كبتت زاري ضحكة، ولم يفه الوالدان بكلمة فاسترسل: «أحيطكما علماً أنني عملت بجد واجتهاد في الثانوية وسأتخرج بفضل الله على رأس دفعتي».

– «في الواقع، إن تخرّجك من مدرسة كمدرستك سيضمن لك حتماً مقعداً في سوق العمل!»، قال بابا.

– «أشكرك. نعم. لكن. . .» ابتلع بهمان ريقه وأضاف: «أعتقد أنني يجب أن أعلمكما أنني سأبدأ العمل في جريدة تقدمية مناصرة لمصدق في الخريف».

لطمت زاري جبينها، وتحركت ماما من موضعها في عدم ارتياح. كانت رويا تعرف أن ماما لم تكن ترغب في مصاهرة رجل يعمل في جريدة سياسية. حبست رويا أنفاسها كما لو كان صوت زفيرها كفيل بإفساد كل شيء.

واستطرد هو: «سيكون عملاً مؤقتاً في انتظار أن تستتب الأمور في البلاد. يجب علينا أن نفعل ما في وسعنا لمساعدة الجبهة الوطنية. لي أصدقاء يعملون في تلك الجريدة، كما أنها ستكون بداية جيدة. أؤكد لكما أنني مخلص لابنتكما كل الإخلاص وسأبذل كل

جهدي كي نعيش حياة آمنة مطمئنة، وأضمن لكما أن لن يعوزها شيء أبداً. سيكون شرفاً لي... سيكون من حسن حظي أن أتقاسم حياتي مع ابنتكما. لم يستطع والداي القدوم معي اليوم، أعلم أن الأصول تقضي بحضورهما ولكني سآتي معهما في المرة القادمة -إن اتفقنا وتوافقنا. إن منحتماني الفرصة لأحظى بشرف أن أكون مع ابنتكما...».

همست زاري لأختها: «هل تشعرين بسقوط شجرة على رأسك الآن؟».

أرادت رويا أن تهرع إلى غرفة الجلوس وتجلس قرب بهمان. كم من الوقت احتاج للتدرب على ذلك الكلام؟ ما شدة توتره في تلك اللحظة؟ كانت تعلم أن ماما لا تستحسن أن يواصل صهرها نشاطه السياسي، بيد أنه كان من الصعب عليها ألا تنال قسطها من الانبهار بسحره، والرغبة في استنشاق زفيره، وأن يعاديهم جميعاً ببعض مرحه وتفاؤله. لا بد أن ماما وبابا سيقبلان.

- «ما أحاول قوله، يا آغا وخانم كيهاني، هو أنني لأود من أعماقي لو... للأمانة... سأكون ممتناً لكما لو... منحتماني شرف...». ثم نطقها أخيراً: «ما أريده قوله هو أنني أطلب يد ابنتكما للزواج».

- «ولدي! ولدي العزيز! مرحباً بك يا بني»، قال بابا ثم دوى صوته إذ أردف: «البته! (نعم بكل تأكيد)».

تنفست رويا الصعداء فيما تسمرت زاري في مكانها وركنت إلى الصمت.

مسحت ماما عينيها بأصابعها قائلة: «رافقتكما السعادة في حياتكما». ثم تبسمت لما رأت بهمان يصافح يد بابا في حماسٍ بادٍ.

استندت رويا إلى الباب وقد سكنت أعصابها وارتاحت؛ ذلك أن والديها قد وافقاً ولم يبق سوى أن يلتقي والداه بوالديها.

مرت أيام قلائل واستقبلت الكراسي المغشاة بالوسائد الزهرية رويا وبهمان في مقهى غنادي يرتشفان قهوة قوية المذاق.

تسلل فجأة إليها شعور غريب أنها تحت مراقبة أنظار أحدهم فتشنج جسدها إذ نفذت إلى ذهنها فكرة وجود بلطجية يترصدون المعارضين السياسيين من جديد. قلبت بصرها في المكان والخوف ملء قلبها فلم ترصد أي رجال يحملون الهراوات. ثم ما لبثت أن رمقت فتاة طويلة القامة تجلس على بعد بضع طاولات منهما تضع برنيطة خضراء عليها ريش ودبوس كبير. كانت المرأة تتفرسها مباشرة. كانت فتاة حسناء المحيا ذات بشرة زيتونية وعينين سوداوين واسعتين وشفتين مليئتين يزينهما لون قرمزي داكن وشعر منسدل في أمواج رائعة على كتفيها، كما رأت رويا شامة داكنة فوق شفتها العليا مثل نجوم السينما، وما برحت الفتاة ترمق رويا وعلى وجهها تعابير أقرب إلى الاشمئزاز.

همست إلى بهمان: «بهمان، لا تنظر الآن، لكن هذه المرأة التي تجلس إلى تلك الطاولة لا تتوقف عن التحديق فينا».

التفت قائلاً: «من؟».

تمتمت في صوت خفيض: «لا تنظر الآن!»، لكنه كان قد التفت ورأى المرأة ثم عاد إلى وضعيته وقد احمر وجهه وأذناه.

- «إنها تحدق فينا أليس كذلك؟».

تمتم بهمان: «دعك منها، إنها... لا تقلقي».

- «أنت تعرفها؟».

- «إنها شهلا».

- «من؟».

- «تعتقد أمي أنها قسمتي ونصيبي»، تنهّد.

لم تستطع رويا التفوه بكلمة فمال نحوها وأمسك يدها وقال: «المهم هو ما أعتقده أنا، هو ما نعتقده **نحن**». سكت ثم أردف سريعاً: «إني لا أؤمن بذلك الهراء العتيق المتمثل في الزواج المدَبَّر، وأنت تعرفين ذلك».

ارتجّ دماغها. قالت: «لم تذكر لي أمرها قط. لم تخبرني أن والديك اختارا لك فتاة أخرى».

- «اسمعيني يا رويا، إن أمي، إسوة بكل الأمهات، لديها - أو الأصوب قولنا كان لديها - فتاة تخطط أن تزوجني بها، وقد اختارت لي شهلا تلك منذ مدة، لكن صدقيني هي ليست من يريدها قلبي إطلاقاً ولن يحدث زواجي منها أبداً».

- «لماذا لم تخبرني؟ كان يجدر بك إخباري! كنت لأود معرفة الأمر!».

- «في الواقع، لأن... اسمعيني يا رويا، إن أمي تعاني من بعض... الاضطرابات وفي بعض الأحيان لا تكون في حال جيدة على المستويين العاطفي والذهني ولعلك لاحظت ذلك».

كان أول لقاء لرويا بوالدي بهمان في الربيع عندما كانا في مرحلة التغازل، وكان ذلك في إطار زيارة إلى بيته رفقة عدد من الأصدقاء بعد المدرسة. كان والده طيباً وهادئاً، وأما والدته فقد أخافتها. ذلك أنها منذ التقتها أول مرة (وفي كل مرة التقتها منذئذ)

كانت تحس أنها تقيم لها تقييماً من رأسها حتى أخمص قدميها. وكانت كلما تكلمت في حضرة السيدة أصلان شعرت بحرج طفولي. لم تكن السيدة أصلان تحبها، هذا أمر لا ريب فيه. لقد عارضت خطبة ولدها منها، لكنها لم تملك الكلمة العليا في المسألة في الأخير، ذلك أن والد بهمان الهادئ والمتواضع كانت له الكلمة العليا، لأنه رجل البيت.

«كان يجدر بك إخباري». قالت ذلك ودفعت كوب القهوة من أمامها ووقفت تهم بالرحيل. «لا عجب إذاً أن أمك لا تطيق رؤيتي، فقد كانت اختارت لك عروساً أخرى. كيف استطعت أن تخفي عني أمراً مهماً كهذا؟ أحسبت أنني لن أكتشف الأمر؟ في مدينة كهذه، حيث يعرف التلاميذ مثلنا الأشخاص أنفسهم، ويواعد فيها الفتيان من مدرستك فتيات من مدرستي؟ هل اعتقدت حقاً أنني لن أكتشف الأمر؟».

- «رجاء رويا. إني لا أكن لتلك الفتاة أي شيء، بل أقل من لا شيء. كل ما في الأمر أن أمي لها مواقفها تجاه كل شيء. إنها... إنها تعاني».

عادت إلى الجلوس لأنها لم ترد أن تقدم للفتاة ذات البرنيطة متعة رؤيتها في خصومة مع بهمان. أرادت المغادرة لكنها لم تستطع. كانت غاضبة منه لكنها كانت تحاول حفظ ماء وجهه، ذلك عملاً بمبادئ التأدب والشكليات الاجتماعية وطبيعة سلوك الفتيات الصالحات التي يسنها المجتمع والتي طالما أنقضت ظهرها، لكن لم يكن أمامها خيار غير التحمل والتعايش مع الأمر، وذلك على الأقل شيء تجيده.

- «لا تقلقي، ستثوب أمي إلى المنطق. أمهليها حتى تعرفك

حق المعرفة، فلا يعقل ألا ترى فيك كل الحسنات، التي يراها فيك العالم».

- «كفاك من هذا، فأمك ترى أنك تستحق فتاة أفضل مني».

- «هذا مستحيل. إنها مخطئة. اسمعيني، للأمر علاقة بأعصابها. أمي تعاني من مشاكل في السيطرة على عواطفها، ويحدث أحياناً أن تمر بأيام عِصاب، لكنها ستثوب إلى المنطق، وسترين ذلك».

الأكيد أن شهلا لم تكن المنافسة الوحيدة، فلو لم تخترها السيدة أصلان لاختارت غيرها. لقد اختلفت الأمور الآن عما كانت عليه في مكتبة السيد فخري. هناك وسط رفوف الكتب والزوايا المظلمة التي تعبق منها رائحة الأماكن المغلقة، حسبت أن بهمان ملك لها وحدها، فالفتى ذو القميص الأبيض والسروال الكاكي كان نادراً ما يأتي مصحوباً بأصدقاء، وكانت نقاشاتهما ونكاتهما الخاصة وزياراتهما لمقهى غنادي تبدو منعزلة في فضاء خاص بهما. في البداية، توقعت ألا تخرج دائرة أصدقائه - كونه ناشط سياسي - عن قوميين مهووسين برئيس الوزراء مصدق. وعندما كانت ترسم له صوراً في خلدها وهو في وسطه الاجتماعي، كانت تتخيله منخرطاً في مناظرات سياسية مع شباب مثقف حول أكواب من الإسبريسو في المقاهي. بيد أن جهانگير كان أقرب أخلائه وقد رأت هذا الأخير يرتاد على النخبة من الناس وكان معروفاً بإقامة أفضل الحفلات، وبهمان كذلك كان جزءاً من هذه البيئة المتميزة، والأكيد أن فتيات أخريات كن في قائمة المنافسة للظفر به.

مال دانياً منها وقبّل خدّها ففاحت من فمه رائحة القهوة المحروقة. كان المشهد تحت أنظار تلك الفتاة شهلا فلم تفوته.

سحبها بهمان أمام الملأ داخل المقهى كما لو كانا وحيدين في عالمهما وليس لهما ما يخفيان.

كان يجب أن تدفعه عنها، لكنها سمحت له بطبع تلك القبلة على خدّها. لقد كانا مخطوبين على كل حال، وكان أمرهما مقضياً ولا تستطيع أية من تدابير أمه المسبقة تلك أن تقوض مصيرهما.

رمقت رويا الفتاة شهلا بطرف عينها وهي تقوم ثم تناور الطاولات في طريق مغادرة المكان.

الفصل السابع

1953

السيدة أصلان

وافقت السيدة أصلان على الخطبة على مضض. فكما دأبت على القول - لو سُمع قولها - إن الأمور في هذا العالم الرهيب لا تسير على هوى النساء ومواقفهن، فما هي إلا أن يوافق الرجل على أمر فيقضى. فلم يكلف الأمر إلا موافقة زوجها الخَوار على الزيجة فحُسِمت؛ وختمت بختم الشرعية. كما لو أنها، هي، ليست أمه التي حملته وهناً على وهن في أحشائها، وأرضعته من حليب نهديها شهوراً حتى جف ضرعها، وأخذت بيديه في خطواته الأولى حول المدينة وجعلته يرى الدنيا، وسهرت معه الليالي تآزره على حفظ القصائد وحل المسائل الرياضية في دفاتره. كما لو أنها لم تعمل وتبذل كل ما في وسعها ليتحسن مستوى ولدها ويعلو شأنه في الحياة. لقد آنست في هذا الصبي منذ البداية بوادر التميز، ورأت فيه الرجل الذي سيكسر رسن طبقته، والرجل الذي يستطيع القفز إلى دوائر اجتماعية أفضل في إيران الجديدة والمعاصرة. ولم لا؟ ألم تكن البلاد في مسار التغيير؟ ألم يكن هذا ما يقوله الجميع؟ وهي، ألم تفلح بفضل عزيمتها المطلقة وإرادة الله عز وجل في الهروب من

شبح الفقر؟ ذلك بعدما كانت مجرد فتاة تنتعل شبشباً ممزقاً وخرقة رأس بالية تعقدها حول رقبتها؛ فتاة كان يفترض بها أن تكون ابنة رجل معدم، أو فلاحة، أو خادمة. فتاة عايشت عذبات لا توصف. لكن الله جعل لها بعد ذلك فرجاً ومخرجاً وعوضها ببهمان.

تزوجت من السيد أصلان - ذلك أنها آثرت ألا تنغمس في البكاء على قلبها الجريح، فقد جرى ما جرى على كل حال - فكان لها من وراء ذلك أن كسرت قيود الطبقية. لقد تزوجت مهندساً! وأنجبت منه ولداً انكبت على تربيته؛ ولد لم ينكر أحد في المدينة كلها طاقته وانطلاقه وذكاءه ومواهبه البارزة. لقد كان ذلك الفتى الشمس والقمر في حياتها ولم تُرِد أن تكون تلك الفتاة رويا في حياته. اضطرت إلى تحمل تلك الفتاة التي تجلس فوق أريكتها في غرفة الجلوس ضاحكة (نعم كان لهم أريكة، أثاث على الطراز الغربي، بخلاف غرفة طفولتها الضيقة حيث لم يكن لهم لا كراسي ولا طاولات ولا أرائك فاخرة. كانوا يقتعدون بلاط الأرض ويأكلون الطعام مقرفصين، من صحون وُضعت على سفرة قماشية مفروشة على الأرض.) واليوم كانت تلك الفتاة تجلس على **أريكتها**. أغضبها ذلك وجعل مرضها يستأسد بداخلها - مرضها، ذلك الوحش الذي يحضر دون مواعد ولا يعرف من الرحمة نقيراً. كانت أمواج ذلك المرض العصبي الرهيب تلتهمها أحياناً على حين غرة فتجعلها من المغرقين، فلا يستطيع أحد إخراجها من تلك الاضطرابات، وإن كان ابنها، رغم أن الأخير يحاول.

وفي يومٍ كانت السيدة أصلان تمر بنوبة شديدة من مرضها تقدم بهمان بكل جرأة وأعلن عن رغبته في خطبة رويا. أذعن زوجها الضعيف الواهن لإرادة ابنه، بل إنه شجعه! وكانت السيدة أصلان إذا

أصاب مزاجها ما يصيبه من نوبات، تضعف وتخور قواها وبالكاد تستطيع تمضية يومها، أو ساعة حتى. ألم يعلما ذلك؟ كيف سولت لهما نفسهما أن يلقيا عليها هذا الخبر الثقيل إذاً؟ أو لعلهما اختارا ذلك الوقت بالذات عن قصد؟ يا للأوغاد. ستحضر حفل الخطبة اللعين لسبب واحد فقط وهو أن الزوجة منهن في نهاية المطاف يجب أن تذعن لقرارات زوجها، تلك هي الأصول، حتى لو كان زوجاً ضعيفاً ومثيراً للشفقة كمثل زوجها. كانت تريد أن تمنع هذا الزواج الكارثي، فكيف لابنها الوسيم الذي لديه الكثير ليقدمه للعالم والذي يستطيع فعل أشياء مدهشة في حياته أن يتزوج فتاة مهووسة بالكتب! فتاة متوسطة الحال تخال قراءة الكتب المترجمة عن الروسية والإنجليزية أمراً جدير بالاهتمام. فتاة جميلة لكن ليس جمالاً باهراً. ابنة رجل يكافح للحفاظ على وظيفته الحكومية البائسة. ابنة رجل أبدى هوسه بالوطنية وبرئيس الوزراء مصدق وهو نفس الهوس الذي أصيب به ابنها في الآونة الأخيرة، وتلك سوأة السوءات. لم تكن تريد لابنها أن ينغمس أكثر في أنشطة سياسية عديمة الفائدة، بل أرادت له النجاح. أرادته أن يعمل في شركة النفط ويكتنز المال، فقد كان أمامه مستقبل كبير.

- «كيف أنت يا سيدة أصلان؟ خبرني بهمان أنك عانيت من الأرق ليلًا، هل تشعرين بتحسن؟».

كان سؤالاً تجرأت تلك الفتاة رويا على طرحه وهي جالسة على الأريكة.

لم تكن سوى فتاة رخوة، مغرورة، وبذيئة.

- «وكيف تتوقعينني أن أكون؟ لا تعجلي يا ابنتي، ستصفعك الحياة أيضاً، وستلقي بك في البئر العميقة حين لا تحسبين لذلك

حساباً. سترين ذلك بنفسك. إن هذا العالم غير عادل. أتدرين أن الأطفال الرضَّع يموتون؟».

بدا الذهول على الفتاة وكانت في حال ارتباك وصدمة باديتين فلم تستطع أن تفه ببنت شفة.

- «بلى، كما أقول. هل قال لك أحدهم ذلك عندما أغويتِ ابني؟ عندما استدرجتِه إلى محل الكتب المكدس ذاك؟».

انقبض قلب السيدة أصلان إذ تكلمت وكذلك معدتها وفجأة اشتعل بدنها اشتعالاً، حتى إنها أرادت تمزيق ثيابها والوقوف عارية قرب النافذة لتشعر بالهواء على جلدها، لتشعر بأي شيء عدا هذا الشعور الخانق بالانحدار إلى الهاوية.

- «أمي، رجاء، كفاك من هذا».

خرج صوت بهمان كمن يتكلم من قمة جبل بعيد. كانت السيدة أصلان في حالة نوبة ذعر شديدة.

جاء صوت السيد أصلان الرنان يقول: «الحب، كما قال شاعرنا عمر الخيام، الحب هو...».

قاطعته السيدة أصلان قائلة: «يكفي! اخرس».

لم تعد تطيق صبراً. كان زوجها يتظاهر دائماً أن كل شيء على ما يرام. كان ضعيفاً وجباناً وأحمق، حتى إنه لم يكن يتكلم عن حالات الفقدان. نهضت من مكانها ومشت خارج الغرفة كي تهرب من تفاهات شِعره ومن رويا الحقيرة تلك.

صفقت الباب.

اكتفت رويا بالتحديق في يديها وهي جالسة على الأريكة

وجسمها يرتعش. لقد أنذرها بهمان كل هذا؛ لقد أخبرها عن مرض أمه وحكى لها كيف يأخذها إلى غياهب الغيض وإلى اضطرابات مزاجية لا تقدر على كبحها. خطر لها أنها ستضطر إلى إرضاء هذه الحماة لعقود تلي، لكن حتى الآن اتضح لها أنها لا تستطيع إلى إرضاء السيدة أصلان سبيلاً. كان السيد أصلان يبدو كمن ركله حصان. حاولوا التظاهر أن كل شيء يسير على النحو المعتاد وتناولوا الشاي واستقبلوا ضيفتهم كما جرت الأصول، بيد أن السيدة أصلان لم تكلف نفسها حتى التظاهر بحب رويا، وها هي الآن تغادر الغرفة مسرعة في ذعر وغضب. ما كان هذا المرض؟ «وحش المزاج هذا الذي يسيطر عليها» كما وصفه بهمان ذات مرة؟ كان السيد أصلان لا يكف عن محاولة تعويض فظاظة زوجته، فقدم الآن لرويا فنجاناً آخر من الشاي وقطعة بقلاوة أخرى، وعندما تعففت الضيفة، أغمض عينيه ومال إلى الخلف متخذاً الوضعية التي يتخذها معظم الإيرانيين كلما أرادوا تلاوة الشعر الفارسي القديم.

ظلّ السيد أصلان على حاله لزهاء دقيقة وهو يتنفس بعمق ثم وقف قائلاً: «عن إذنكما، سأعود في الحال». قالها مع انحناءة خفيفة وقد بدت عيناه متعبتين.

تابعته رويا يمشي متثاقلاً إلى خارج الغرفة ولبثت هي جالسة على الأريكة بجانب بهمان؛ بجانب ابن هذين الأبوين اللذين لم يشبها قط أي زوجين آخرين رأتهما من ذي قبل، زوجان بعيدان ومعزولان.

أما هو فقد تغير، تغير لما تصرفت أمه على ذلك النحو؛ لما أخذها الغيض أخذاً فهجرت آداب السلوك الاجتماعي. فجنح إلى الصمت وغدا الإحباط على وجهه بادياً.

كان صدى صوت نحيب السيدة أصلان ينزل على باب غرفة النوم كالرصاص الحي.

أمسكت رويا يده بإحكام قائلة: «لا تقلق، لا يزعجني ذلك، فما بيدنا حيلة».

كان يأتيهما صوت السيد أصلان المكتوم يراضي زوجته ويداهنها.

ظل بهمان ساكتاً ونظر إلى الأمام وحسب. وبعد بضع دقائق شعرا أنها ردح من الزمن، أراح رأسه على كتف رويا بهدوء فأحست بلمسة خده حتى من وراء الغرز الضيقة في دررزة البلوزة التي خاطتها ماما من أجلها. دفن رأسه فيها كما لو أنه أراد أن يتوارى عن الأبصار.

قبّلت رأسه ومسدت شعره وأخذت تخالج في ذهنها أنها ستنقذه من هذا الجحيم.

عندما عاد السيد أصلان أخيراً، بدا مستنزَفاً ثم قال بابتهاج متصنّع: «والآن، من يرغب في المزيد من الشاي؟».

الأطفال الرضَّع يموتون». كانت تلك الجملة ترن في أذن رويا.

وقف بهمان وانطلق إلى المطبخ يجلب المزيد من الشاي. من أجلها أقاما تلك التمثيلية التي تصور أن كل شيء على ما يرام. أوصدا باب غرفة السيدة أصلان وتظاهرا أنها كفت عن النحيب. عاد بهمان بعد حين حاملاً الشاي الساخن في فناجين موضوعة على صينية فضية بتوازن. لا ريب أنه معتاد على إعداد الشاي وذرع المطبخ غدوة وروحة وتقديم الطعام، ومن يعلم لعله يطبخ أيضاً. كان هذا عمل النسوة لكن بهمان ووالده يزاولانه أكثر من كل الرجال الذين عرفتهم رويا في حياتها. لعل ذلك يعزى إلى مرض امرأة

الأسرة. كان الأب والابن يسهران على حسن سير البيت. أخبرها بهمان أن أمه كانت تطرد كل الخادمات اللاتي أجرن للمساعدة في أمور البيت - ذلك أنها لم تكن تطيق مرارتهن ووجودهن معها. لم تكن على وفاق مع من يقدمون المساعدة. قال لها إن الأمور أحسن على هذا النحو. هكذا كانوا أسرة منغلقة والأفضل ألا يتعرض الآخرون لمزاج أمه. بدا عليه من وقفته حاملاً صينية الشاي أنه ود لو وفر عليها هذا الإحراج وجلفة أمه.

وضع الصينية على الطاولة بعناية.

ومع ذلك فإن الأمر يستحق العناء. هكذا تقول. ستتقبل والدته وستبذل كل جهدها لتتعايش معها. من أجل هذا الفتى ستفعل كل شيء.

الفصل الثامن

1953

حفل الخِطبة

أقيمت خطبتهما في أحد أماسي يوليو عقب عدة أسابيع من حصولهما على شهادة الثانوية العامة. يومئذ، دعا بابا وماما أفراد العائلة والمقربين من الأصدقاء إلى بيتهما للاحتفال. كانت ماما وبنتاها يعملن لساعات في المطبخ يطبخن ويحضرن، وفي يوم الحفل حضرت كازب، امرأة كانوا أحياناً يأجروها لتساعدهم في أعمال البيت، لترافق زاري إلى السوق من أجل تبضع أشياء سيحتاجونها في اللحظات الأخيرة، بينما ركزت ماما ورويا على الطبق الرئيسي وهو رز الجواهر.

وجه مدور حنون التقاسيم يبلله عرق الإجهاد، وشعر بنّي معقود بتسريحة الكعكة. وقفت ماما أمام حوض المطبخ مشمرة كمَّيها عن ذراعين مكتنزتين، تنظف الزرشك،[1] وهو حبات البرباريس الصغيرة المجففة التي سترصع بها أرز البسمتي حين تنتهي من إعداد الطبق.

---

(1) نبات واطئ من فصيلة البرباريسية. ثمره أحمر وشكله كحب الرمان وهو مر المذاق يستخدمه الإيرانيون في بعض الأطباق حيث يرش على الأرز المطبوخ - المترجم.

وقفت رويا بجانب أمها تستنشق منها رائحة الليمون المعتادة، كانت تساعدها في تنقية الزرشك من الأتربة والحصى الصغيرة ثم راقبتها تضع الحبات المجففة في مصفاة صغيرة وتغسلها.

- «هل تعتقدين أن الأمور ستختلف علينا يا ماما؟»، سألت رويا.

وضعت الأخيرة المصفاة في وعاء كبير فيه ماء بارد لتنقيع حبات البرباريس.

- «على من؟».

- «علينا. أنت وأنا».

بقدر ما كانت رويا تتوق إلى حياتها الجديدة مع بهمان، كانت تجد غرابة كلما فكرت في التغييرات التي تنتظرها. هل ستحتفظ بشعور بالانتماء إلى هذا البيت ذي ستائر الدانتيل والمطبخ المنظم بعناية؟ هل سيتغير كل شيء؟ هل ستستطيع التنكيت مع زاري حتى بعد الزواج؟ هل ستظل جزءاً من الأسرة حتى بعد الرحيل؟

تنهدت ماما قائلة: «هكذا هي الحياة يا عزيزتي، فالصبايا يكبرن ويتزوجن ثم يرحلن». أخرجت مصفاة الزرشك من وعاء الماء وأخذت تهزها فوق الحوض عدة مرات حتى يقطر كل الماء. «هل أريد منك البقاء بجانبي إلى آخر يوم في حياتي؟ صدقا، لا أخفي عليك أنني أجدني أحياناً أفكر من منطلق أناني فتراودني فكرة أن تظل طفلتاي بجانبي أبد الدهر! ولكنكما يجب أن تكوّنا حياتكما الخاصة. مستقبلكما أمامكما. أتمنى لك حياة مديدة كلها سعادة مع بهمان، إن شاء الله.

حياة مديدة كلها سعادة! حياتها ستهتز على نحو مثير ومخيف

عندما ستتزوج بهمان نهاية الصيف. ناولت ماما المصفاة لابنتها التي بسطت حباتها على منشفة فجففتها ونشرتها فوق طبق كبير. لقد أتقنت تلك الحركات بفضل إرشاد أمها على مدى السنين، غير أنها هذه المرة كانت تعلم جيداً، مع أنها كانت تطبخ بجانب أمها كما العادة، أن الطبخ كان لمناسبة ستأخذها بعيداً عنها.

قالت ماما ضاحكة كما لو أنها قرأت أفكار ابنتها: «ستكونين على مقربة منا يا عزيزتي، لن تفصلنا إلا مسافة أربعين دقيقة، وسيكون بإمكاننا رؤية بعضنا بعضاً كل يوم إن شئت، إلا إذا مللت من رؤية والدتك».

كانت رويا وبهمان قد قررا استئجار سكن غير بعيد عن بيت والديه حتى يتسنى له الاطمئنان على والدته نظراً لحالتها المضطربة. كان المسكن الجديد ذاك يبعد قليلاً عن مكتب الصحيفة التي كان سيستهل عمله فيها بحلول الخريف، لكن لا بأس، يمكنه أن يستقل الحافلة، فلن يطول بهما الأمد هكذا بالتأكيد قبل أن يحصلا على مسكن كبير في ملكهما. سعدت رويا بقرار بهمان ألا يسكنا في بيت والديه، ذلك أن العروسين الجديدين ينبغي لهما، عملاً بالأعراف، استهلال حياتهما الزوجية في بيت أهل العريس. لكن بهمان أصر أنه لا يريد لرويا أن تكون جارية لأمه، وأنه يستطيع بمعية والده الاهتمام بها طالما أنهما لا تفصلهما مسافة بعيدة.

مسحت ماما جبينها بظاهر كفها قائلة: «تستطيعين في حياتك الجديدة، وبمباركة زوجك بالتأكيد، أن تقرري ما تفعلين في المستقبل. في العادة يقعد النسوة في البيت وينجبن الأطفال، وهذا أمر جيد كذلك. أو إن شئت، حاولي متابعة ولو قليل من دراسة العلوم، كما يحبذ والدك». قالت ذلك وفتحت كيساً من الأرز

وسكبت محتواه في وعاء كبير حيث نزلت الحبات محدثة شكشكة على أطراف الوعاء ثم استقرت على شكل كومة في داخله.

نعم، بابا وخطبه بشأن **ماري كوري!**

أخذت رويا الأرز وملأت الوعاء بالماء طردا للنشا الزائد به. «أعلم أنه كان متحمساً وفخوراً بنا لمجرد أننا حظينا بفرصة دراسة العلوم، لكن العلوم لم تكن قط...».

- «... الشيء الوحيد الذي أردت دراسته؟»، أتممت ماما جملة ابنتها المبتورة. كان شعرها يلمع تحت أشعة الشمس التي تسللت من نافذة المطبخ وقد برزت منه خصلات من الشيب واضحة تحت الضوء.

- «ابنتي عاشقة الروايات وعاشقة المطالعة، ستستقرين على قرار في الأخير يا عزيزتي. والدك سعيد جداً من أجلك كما تعلمين، وهو يحب بهمان (ربتت على وجنتيها) وستظلين أبداً طفلتي العزيزة فأربعون دقيقة ليست بمسافة كبيرة».

انتهت رويا من غسل الأرز ووضعت الوعاء. بعد ذلك ستقليان البرباريس وتأخذان شرائح الدجاج وترشانها بالملح والفلفل والكركم ثم تحمصانها حتى تستحيل ذهبية اللون. ثم بعد ذلك ستسلقان الأرز وتجففانه وترجعانه إلى الوعاء مع قطعة قماش تحت الغطاء تعمل على التقاط البخار. ثم بعد ذلك ستقطران عصير الليمون وتذوبان الزعفران على شرائح الدجاج المحمصة وترتبانها على أطباق. ثم بعد ذلك ستقطعان الفستق وتفلقان اللوز بسكين وتضيفانهما إلى الأرز المسلوق مع بضع قشور البرتقال المجعدة التي جففتها ماما في الشمس. في حفل خطبة رويا، سيقدمون طبقاً يستحق أن يعرض في حفل زفاف، فقد كانت مناسبة سعيدة، وإيذاناً ببداية جديدة. لقد

كانت ماما على صواب، إذ تستطيع رويا المجيء لتسلم عليها وتستنصحها وتجلس بجانبها في المطبخ وتحتسي وإياها الشاي أيان شاءت ذلك.

دخلت زاري وكازب تتكلمان بجهر وتحملان علباً زهرية كبيرة من الحلوى. قالت زاري إذ وضعت العلب على منضدة المطبخ: «ما أثقلها، لقد أنقضت ظهري!»، ثم ألقت نظرة على رويا مستفسرة في نبرة فيها شيء من العتب وشيء من القلق: «ما الخطب؟ ما هذه السحنة الجدية؟ ألست سعيدة؟».

- «بلى إني سعيدة. ولم لا أكون كذلك؟».
- «ألست متوترة؟».
- «فيّ شيء من ذلك، لكن الأم تظل دائماً...».

أرادت أن تخبر زاري أن ماما طمأنتها أنها ستظل قريبة منهم، لكن زاري لم تكن لتفوّت مثل هذه الفرصة لتطلق العنان لنقاش آخر: «أمه أحبطتك، أليس كذلك؟ أعلم أنها تعتقد أننا لسنا من منزلتهم! تعتقد أن ابنها يستحق عروساً أفضل. إنها لا تختلف عن أولئك النسوة الجشعات اللاتي لا يفكرن سوى في تسلق السلم الاجتماعي. تريد مالاً أكثر ومنزلة اجتماعية أعلى، أليس كذلك؟ تعتقد أن وظيفة بابا الحكومية لا ترقى إلى مستوى أسرتهم. إنها تستصغرنا!».

- «يكفي يا زاري!»، قالت ماما.
- «لكن، كيف لك أن تصبري عليها؟»، سألت زاري رويا.
- «أحبه».
- «لقد رفضتْ زواجك منه! ألا يوحي لك هذا الأمر بأي شيء؟ أهذا ما تريدين حقاً؟ أن تتزوجي رجلاً وأمه تكرهك؟».

- «كفاك مبالغة يا زاري، رجاء»، وبّختها ماما.

عضت زاري على شفتيها لكنها استرسلت: «يا لسذاجتك أحياناً يا أختي! إن أمه لم تفعل شيئاً سوى محاولة عرقلة زواجكما. إن الأبناء كالعجين في يد أمهاتهم لكن هذا الفتى قد فاقهم جميعاً في ذلك 'هل أجلب لك شيئاً يا أمي؟ هل تريدين المزيد من الشاي يا أمي؟ دعيني أتولى الأمر عنك يا أمي!'»

- «هكذا هم الأبناء البررة!»، علقت ماما.

- «إلى هذا الحد؟».

- «نعم! ثم إنها وافقت في الأخير، ألم تفعل؟ لذا فلم تعد معارضة لزواجنا الآن»، قالت رويا.

- «فقط خذي حِذرك، اتفقنا؟».

«زاري»، قالت رويا بصوت خفيض ونظرت ميمنة وميسرة كمن يوشك على البوح بسر خطير «إنها مريضة».

بعد بضعة لقاءات مع السيدة أصلان أدركت رويا أن بهمان يحاول تعويض هشاشة حالتها من خلال تقمص دور السارية الداعمة بالنسبة لها وللأسرة. ذلك كما لو أن مهاراته ولطفه وكرمه كانت بمثابة العوض على افتقار والدته لتلك الصفات. فكان يقابل أزمات أمه العصبية بثباته. فإذا كانت فظة وجلفة، كان هو كريماً ومتسامحاً. ربما كانت هشاشة والدته العصبية السبب الذي بعث فيه الحاجة إلى مجابهة الحياة بكل قوة وعنفوان. ألهذا السبب قال عنه السيد فخري إنه الفتى الذي سيغيّر العالم؟ لطالما اعتقدت أن ذلك بسبب نشاطه السياسي ومناصرته لرئيس الوزراء. لعله لما رأى والدته تتخبط بين براثن مرضها، معزولة في بيتها معظم الوقت، عاجزة عن التحاور مع

الناس، وعاجزة عن التصرف مع المواقف الاجتماعية كما يليق، نبتت فيه الرغبة في ترك بصمته على الحياة وتوجيه سفينته بنفسه وتصحيح الأخطاء؛ «تغيير العالم» كما قال السيد فخري.

همست رويا لأختها: «اسمعي يا زاري، هناك أمور لا تعرفينها عن السيدة أصلان لذا فمن الأفضل أن تستعتبي. كفي عن هذا فأنت لا تعرفين القصة برمتها».

- «بل أعرف، أعرف مسألة مزاجها المجنون ذاك، ومن لا يعلم! ما هو بسر!».

وضعت رويا الملعقة من يدها مستسلمة.

وقف بابا وماما ورويا صفاً قرب المدخل يبتسمون ويحيون الضيوف الوافدين. عمات وخالات، وأعمام وأخوال والمقربون من الأصدقاء والأقارب جاؤوا حاملين الورود والحلويات، فباركوا لرويا ووالديها واتخذوا مجالسهم في غرفة الجلوس. جلست النسوة وتجاذبن أطراف الحديث وارتشفن الشاي في جانب، بينما جلس الرجال في الجانب الآخر في مجموعات وفناجين الشاي في أيديهم. كانت رويا تتوقع أن يكون بهمان ووالداه أول الواصلين لكنهم تأخروا فتساءلت ما الذي أخّرهم يا ترى.

أخيراً انفتح الباب ودخل منه بهمان وقد بدا مرهقاً وهو يأخذ بذراع أمه يسوقها، ومن ورائهما برز السيد أصلان يمشي متثاقلاً وقد بدا الآخر مهترئاً.

«عذراً على تأخرنا». سلم بهمان على ماما وبابا ثم قبل خدّ رويا، فصُعقت الفتاة من حركة خطيبها. لقد كانا مخطوبَين فعلاً،

ومع ذلك وجدت في تلك القبلة جرأة ونشوزاً عن الحياء؛ فتعبير الشخص عن العواطف على هذا النحو أمام من يكبره سناً فيه قلة احترام. ومع ذلك فقد زادت القبلة جسمها دفئاً فلانت.

- «هل كل شيء على ما يرام؟»، همست.

- «واجهتنا بعض. . . المشاكل»، همهم بهمان.

المشاكل. بتعبير آخر؛ أمه. لا شك أن السيدة أصلان قد حلت بها إحدى نوبات المزاج تلك فهي امرأة «ضعيفة وحامية المزاج» كما وصفها بهمان ذات حين.

شدت رويا عزمها واقتربت من حماتها المستقبلية التي برزت في ثياب سود من بلوزتها وتنورتها وجوربيها الطويلين السميكين. كانت هذه حلتها في مساء صيفي جميل كهذا! كان معظم النسوة الأخريات يلبسن ألواناً فاتحة فبرزت ماما مثلاً في فستان فيروزي ولبست زاري من الزهري احتذاء بنجمات هوليود اللاتي طالما أعجبت بهن، فيما لبست رويا الفستان الأخضر الذي خاطته لها ماما من أجل هذه المناسبة. وحدها السيدة أصلان التي برزت في ثياب العزاء حتى أنها لفت حول كتفيها شالاً أسود اللون. رسمت دائرتين حمراوتين من الروج على وجنتيها وتضوعت منها رائحة عطر زهري متخم.

على عكس السيدة أصلان، كرهت ماما وضع مساحيق التجميل، حتى أنها كانت تزدري النسوة اللاتي «يضعن الدهان» على وجوههن ليظهرن جمالهن. وكانت كلما جاءت زاري إلى المرآة تلصق قصاصات الجرائد في شعرها لصنع تموجات مثالية، تخطب فيها ماما قائلة: «إن الجمال يجب أن يكون طبيعياً، ولا حاجة للتصرف في خلق الله». فترد عليها زاري: «يحتاج بعضنا للتصرف يا أمي. يحتاج بعضنا لتنميق خلق الله».

- «سيدة أصلان، عزيزتي، ألست مصهودة في هذا الشال؟»، سألت ماما بنبرة حذر، ثم لكزت رويا قائلة: «رويا جون، خذي الشال من السيدة أصلان».

وقبل أن تستجيب رويا، أمالت لها حماتها إحدى الوجنتين الموردتين بالروج ثم الأخرى لتقبلها. فعلت فوجدت في الروج الملطخ على وجه حماتها طعم الورد الذابل، ثم إذا حيدت رأسها ومدت يدها إلى الشال صدتها صفعة جلفة من يد السيدة أصلان قائلة بفظاظة: «دعي شالي وشأنه».

اشتعل وجه رويا خجلاً وقالت: «أوه، أنا آسفة».

سارع بهمان إلى ذراع أمه قائلاً: «تعالي واجلسي يا أمي، يجب أن تأخذي نفساً». ثم انطلق بها إلى ركن بعيد في الغرفة ووضع كرسياً أمام الجدار بعيداً عن باقي الحضور.

«عجباه!»، همست زاري إذ قصدت رويا حاملة صينية المكسرات التي كانت توزعها على الضيوف. «كيف لها أن تلبس ذلك الشيء في لظى هذا الحر!».

- «لعلها... انسي الأمر! هيا وزعي المكسرات على الضيوف».

رفعت زاري حاجبيها وهزت رأسها وأسرعت الخطى بعيداً.

«لا تشغلي خاطرك يا ابنتي، لم تستطع السيدة أصلان الاستعداد للأمسية كما يجب، هذا كل ما في الأمر». كان هذا صوت السيد أصلان ماشياً صوبها. «أحياناً يمر الإنسان ببعض الصعوبات، لكن لا بأس فرؤيتكم أنتم الشباب تملأ قلوبنا فرحاً وهذا هو الأهم».

خرجت كلماته حاملة صدقاً. رقت رويا لحاله فتبسم لها ورأت

اللطف في عينيه، ثم التفتا وسلطا نظرهما إلى الركن البعيد من الغرفة حيث أجلس بهمان والدته.

كان يحوم حولها حاملاً حقيبتها اليدوية في يد ويعدل كرسيها بالأخرى. كانت السيدة أصلان تلتهم الكلمات بازدراد فيهز بهمان رأسه رافضاً قولها لكنها استرسلت. بدت كأنها تلح في طلب أمر ما. حملق بهمان في الأرض بهدوء، فاشتعلت غيظاً وأشارت إلى حقيبتها ففتحها وأخرج منها شيئاً ما إن رأته رويا حتى اتسعت حدقتا عينيها. لقد أخرج لها مروحة يدوية مستطيلة من الخيزران كتلك التي تستعمل للتهوية على مشواة الكباب. ثم اتزن في وقفته وأخذ يروح بلطف على وجه أمه بمروحة الخيزران فأراحت السيدة أصلان لسانها وأغمضت عينيها وأسندت ظهرها على الكرسي.

إثر ذلك حيدت رويا بصرها عنهما وجاءها صوت السيد أصلان ينهمر الحزن من خلاله قائلاً: «ليتها تخلع ذلك الشال. إنها لا تسمع الكلام يا رويا خانم، ولا تذر عادتها. رجاء سامحي، فليس الأمر بيدها».

في المطبخ، كانت العلب الزهرية من مقهى غنادي تغطي المناضد، ومنها أخرجت كازب وزاري حلوى أذن الفيل ولسانه التي ابتاعتاها ذلك اليوم فوضعتها ماما في الأطباق بعناية. رفعت رأسها إلى رويا الآتية إليهن فبدا وجهها محمراً من العمل في حرارة المطبخ. «ما الذي تفعلينه هنا يا رويا جون؟ هيا عودي إلى غرفة الجلوس وانصهري مع الضيوف. هيا يجب أن تتحدثي مع الجميع. هيا!».

- «أريد مساعدتكن».

- «كلا، أنت عروس المستقبل! رجاء اذهبي فكلمي الضيوف، لا سيما السيدة أصلان. هي بالذات ينبغي ألا تكوني جلفة معها الآن؛ فإن أردت أن تحظي بحياة زوجية سعيدة عليك أن ترضي حماتك، تلك هي الحقيقة المسلم بها التي تعرفها كل النسوة».

تدخلت كازب قائلة: «خانم، لهذا السبب إن تزوجت يوماً فأملي أن يكون زوجي يتيماً لطيفاً».

انفجرت زاري ضاحكة في تأييد: «فكرة ممتازة!».

هزت ماما رأسها إذ قالت: «رويا جون، ينبغي لك إظهار الاحترام. اذهبي وكلمي السيدة أصلان، يجب ألا تتجاهليها».

لم تكن هذه رغبة رويا، كانت تريد البقاء في المطبخ حيث ارتاحت نفسها صحبة أمها وأختها وكازب وسط روائح أرز البسمتي والزعفران، ترتب حلوى أذن الفيل ولسانه في الأطباق وتتكلم عن الأرز المتفتت الملتصق أسفل القدر. كلا لم تتأقلم مع دور العروس المستقبلية. كانت تشاهد أمها ترتب الحلوى وتتدبر في السرعة التي جرت بها الأمور. خرجت وبهمان من مكتبة السيد فخري ودخلا مقهى غنادي ثم قابلا أهل بعضهما البعض ثم تقدم إلى خطبتها. كل هذه الأحداث جرت بسرعة كبيرة، كأنها خضعت لتقنية تسريع الحركة التي تستعمل في أفلام شارلي شابلن القديمة التي تعرض في السينما كل مرة.

حثتها أمها: «هيا اذهبي الآن!».

خرجت رويا من دون حماس ورجعت إلى غرفة الجلوس، حيث كان بهمان قد كف عن الترويح على أمه ووقف يقود حديث نادي رجال كان بابا من عددهم. استحسنت رؤيته يعود سيرته الأولى

فقد كرهت رؤيته في صورة الصبي المتذلل الذي يروح على وجه والدته. كانت ضحكات بابا تخترق كل الأصوات؛ ولا ريب أنه كان سعيداً بصهره المستقبلي. أحست بالامتنان تجاه بهمان لطاقته وطيبته وقدرته على شرح صدور السامعين له.

الآن بات بإمكانها أن تذهب إلى حماتها وتكلّمها، فشقت سبيلها بين مجموعات الضيوف إلى الركن حيث انتبذت السيدة أصلان بنفسها. ينبغي لها التحلي باللباقة، وينبغي لها ألا تجادل ولا تناقش، وينبغي لها أن تحسن الإصغاء للسيدة أصلان وهي تتذمر بشأن الطقس الحار في الغرفة حتى وهي تضع شالاً لا يُلبس إلا في الشتاء.

اقتربت من كرسي حماتها فتفاجأت لدى رؤية رجل ينحني فوقها. لم تتبين هويته إذ كان ظهره إليها، وكان يلبس بدلة كتانية نظرة. أيكون من أقربائها؟ لكن بهمان كان قد أخبرها أن قسماً من معاناة أمه يعزى إلى عزلتها؛ فقد كان كل أقربائها في الجنوب ولم تكن تراهم إلا ما ندر. كانت السيدة أصلان معزولة في طهران، تعتمد على عدد قليل من الجيران وشبكة اجتماعية ضيقة بسبب مزاجها الصعب وصبغة زوجها الخجلة.

دنت رويا من السيدة أصلان ومن الرجل الذي لم تزل بعد تجهل هويته. هذه المرة بدا لها أن تذمرها لم يكن حيال حرارة الغرفة، بل أعظم من ذلك. كانت تسرع في الكلام وتقبض على شالها بيد وتلوح بالأخرى، ووقع بصرها على رويا زمت شفتيها وأشارت إلى الرجل فالتفت قائلاً:

- «ها هي ذي عروسنا الصغيرة!».

تعرّفت إلى صوته قبل حتى أن يلتفت.

- «سيد فخري؟».

كان الرجل في أناقة ما عهدتها فيه، فقد اعتادت على رؤيته في المكتبة مرتدياً قميصاً بسيطاً وسروالاً فضفاضاً فبدا في إطلالة أستاذ، عكس هذه الليلة إذ كان يلبس هنداماً نضراً وبدا في هيأة أنيقة.

قالت السيدة أصلان بنبرة انزعاج: «لم الاندهاش يا بنت!».

احمرت رويا خجلاً. لقد كان حفل الخطبة مناسبة للعائلة والأصدقاء المقربين وليست حدثاً كبيراً. كان مجرد حفل بسيط يقام في البيت ويتشارك فيه الأهل الحلوى والشاي مع ضيوفهم المقربين. ولكن ماما، كدأبها، لم تقو على مقاومة رغبتها في إعداد وليمة كاملة، فلم تكتف بالحلوى والشاي التي تقدم عادة - حسب التقاليد - في مثل هذه المناسبات، بل أضافت طبق جوجه كباب وما صاحبه من ضرورة إعداد الأرز بالطبع، ثم إن الأرز الأبيض وحده لم يكن كافياً فلم تستطع الاستغناء عن إضافة حبات البرباريس واللوز المفلوق والفستق المفروم وقشور البرتقال المجففة من أجل الزينة. قال لها بابا محتجاً:

- «منيجه جون، إنه مجرد حفل خطبة وليس عرساً!».

فأجابته وهي تهطع ميمنة وميسرة تعدّ ما يلزم:

- «سأعد أشياء بسيطة فقط!».

ورد هو متوسلاً بأفكارها الخرافية: «يجب ألا نبالغ في الأمر فقد يجلب علينا ذلك النحس!».

- «لا تقلق!».

فرك بابا وجهه كما يفعل كلما كان قلقاً حيال مسألة من المسائل. كانت رويا تعلم أنه يحسب تكلفة كل شيء. كان دائماً

يفكر في تدبير ماليته؛ دفع أجرة كازب وشراء الدجاج واللحم وشراء الأثواب حتى تكون ملابس بنتيه كأترابهما. فتردد في خاطرها كلام زاري؛ **أعلم أنها تعتقد أننا لسنا من منزلتهم! تعتقد أن ابنها يستحق عروساً أفضل. إنها لا تختلف عن أولئك النسوة الجشعات اللاتي لا يفكرن سوى في تسلق السلم الاجتماعي. تريد مالاً أكثر ومنزلة اجتماعية أعلى!**

- «ما خطبك يا بنت، لماذا اصفر وجهك!»، خاطبتها السيدة أصلان بنبرة منزعجة كمن يخاطب من كان أقل منه نزلاً ومنزلة.

- «لا، أنا فقط...».

تلعثمت رويا ثم التفتت إلى السيد فخري مردفة: «تفاجأت إذ رأيتك هنا».

- «أنا مَن دعوته. هذا حفل خطبة ولدي على كل حال، إلا إن لم يكن لي الحق في دعوة أصدقائي القدامى!».

- «تعرفان بعضكما؟».

ضحك السيد فخري على نحو مضطرب وقال: «ما تريد السيدة أصلان قوله هو أن بذرة حبك وبهمان نبتت في محلي وتحت أنظاري وبين رفوف كتبي ووسط أوراقي، كما تعلمين».

تذكرت رويا عندما نصحها السيد فخري باتخاذ «الحذر الشديد» تجاه بهمان عندما أتى الأخير إلى المكتبة ثاني مرة. هل تراه كان يقصد بكلامه أم بهمان؟ هذه المرأة ذات المزاج الصعب التي جعلتها تحس أنها غير مرغوب فيها وأنها خيار ثانٍ؟ هل كان السيد فخري يعلم أن أم بهمان قد اختارت له شهلا عروساً؟ ثم من أين تعرّف على أم بهمان؟

قالت السيدة أصلان في سخرية وازدراء: «تاللّه ما أحسن

صنيعك! لقد جمعت بين ابني وهذه الفتاة، أليس كذلك يا سيد فخري؟ برافو، يا لك من صانع معجزات بحق!».

تشكلت حبات من العرق على جبين السيد فخري ورد بهدوء: «إنك تبالغين في تقديري يا سيدة أصلان، فأنا لا أملك قوى صنع المعجزات هذه التي تدعينها».

ردت السيدة أصلان بكلمات بطيئة: «يا لتواضعك. يا لنبلك الفريد! إنك من نوع الرجال الذين لا يؤذون أحداً قط. لا أحد، ولو... طفل...».

فاحت رائحة أرز الزعفران من المطبخ إيذاناً بقرب تقديم الطعام، فيغادر الضيوف وينتهي حفل الخطبة وستتزوج من بهمان عند نهاية الصيف. كانت هذه الأفكار تدور في خلد رويا. فأما السيدة أصلان، فلا بد أن تغير قولها فيها، وستتحسن في الأخير. فليس من ذلك مناص.

قالت السيدة أصلان بصوتٍ حادٍّ: «تستحق تاجاً يا سيد فخري، انظر إلى حسن صنيعك؛ (ورسمت فوق رأسها دائرة كبيرة بيدها) لقد جمعت بين قلبَي محبَّين! يا له من عمل خارق بحق!».

شعرت رويا بالوهن والغثيان. شعرت بالخجل من رؤية السيد فخري وهو متضايق ومتوتر، وقد كانت لغة السيدة أصلان التهكمية بغيضة ومزعزعة.

هبت نسمة خفيفة، مثل نفخة ريح باردة. تبدلت ذرات الهواء من حولها: كان بهمان بجانبها. سار إليهم كأنه قبطان أدرك إشارات الإنذار على غرق سفينته. وضع ذراعه حول خصرها فشعرت رويا بغتة أنها ترجلت على يابسة الأمان. ثم جرها إليه أمام أعين السيد فخري وأمه فشمت فيه رائحة الصابون وأحست بنعومة قميصه الأبيض.

سأل بهمان عانياً أمه: «هل كل شيء على ما يرام هنا؟ أمي؟ كل شيء جيد؟».

كان سؤالاً مغلفاً بالتحذير فقد أدركت رويا أن بهمان لا يريد من أمه أن تفسد عليه ذلك المساء. لمس جذعه جذعها وهما يقفان جسماً واحداً، أمام السيد فخري وأمه، وقفة وقائية جريئة.

هبطت السيدة أصلان على كرسيها وقد بدا الروج على وجنتيها المصفرتين أكثر سخافة.

- «كنت فقط أهنئ السيد فخري يا بهمان جان. ألم يبدل مسار حياتكَ؟ كان من شأنك اختيار من الفتيات الحسناوات الثريات ما شئت. تعلم أن عيني كانت على إحداهن منذ مدة؛ إنها الشريك المناسب لك! ثم أتى السيد فخري وكتبه وأوراقه فأنقذوك وقدموا لك الحب. يا للعجب! لقد صرتما مثل شخصيات الكتب التي تقرآنها، تلك الروايات الغربية. الرومانسية المزيفة...».

قاطعها بهمان قائلاً بصوت متوتر: «أمي، هل آتيك بشيء؟ أمي، هل لك أن تكفي رجاء؟».

استأنفت السيدة أصلان: «أنا فقط أشكر السيد فخري على خدماته. إنه حاذق في ربط القلوب. هو يرى أن الحب لا يسمو عليه شيء، وهو مستعد لفعل كل شيء من أجل الحب. يا لنقاء قلبه!».

أطرق السيد فخري رأسه يتفرس حذاءه ولم ينبس ببنت شفة.

تداعى صوتها إذ قالت: «يصعب علي... احتمال هذا. لا أستطيع الاحتمال...». ثم طوحت بصرها بعيداً واستطردت بصوت مخنوق: «لقد تحمّلت كثيراً».

انزاحت ذراع بهمان عن خصر رويا، فتبدل شيء ما في نسيج الهواء من حولها مجدداً. ابتعد عنها وانطلق إلى والدته فجثى

أمامها، وكلمها بصوت رقيق: «ربما آتيك بمزيد من الشاي، دعيني آتيك بمزيد من الشاي».

أشاحت السيدة أصلان بوجهها وحملت شالها الأسود المحبوك إلى وجهها وانتحبت. شد بهمان يدها قائلاً: «أمي، هيا يا أمي».

كان باقي الضيوف غارقين في أحاديثهم. امتلأت الغرفة بضحكهم. حسدتهم رويا على استقلالهم عن المشهد الجاري في الزاوية. لم يكونوا مضطرين لتحمل غضب السيدة أصلان ولا المأساة التي خلقها وجودها. لقد كانوا - هي وبهمان والسيد فخري - وحدهم على متن هذه السفينة الغارقة.

جثى بهمان أمام أمه وسحب رأسها إلى صدره. وقفت رويا والسيد فخري جامدين، يتفرجان على تلك اللحظة الخصوصية المؤلمة، بينما تنتحب الأم في صدر ولدها. فلما وقف بهمان كان قميصه ملطخاً بشيء قرمزي. لقد كانت بقع من روج أمه تنتشر قرب قلبه. أرادت رويا أن تأخذ قميص بهمان وتفركه فتنظفه وتطهره من بقع والدته ولكنها كانت مشلولة مخدرة.

- «سأجلب مزيداً من الشاي»، قال السيد فخري أخيراً.

- «لا تنسَ ما قلته لك»، غمغمت السيدة أصلان.

- «لن أنسى، تحبين الشاي قوياً»، رد بهدوء ثم مشى الهوينى وفي خطواته بدا توتره.

شدت السيدة أصلان شالها على كتفيها ونظرت إلى بهمان وقالت: «هذا المكان بارد، وكذا الأضواء غير ملائمة».

رد برقة: «آسف يا أمي. أنا حقاً آسف».

انتهى الحفل وانفض الجمع وأوى الضيوف إلى بيوتهم. أشعلت ماما البخور بعد ذلك طرداً لعيون الحساد. كانت تدفع الدخان بيدها فوق رأس رويا وتهمهم بكلمات داعية بسمل عين الحسود.

ورغم أن زاري جهرت بعدم استحسان هذه الزيجة منذ البداية، فقد نصحت أختها قائلة: «رويا جون، لا تسمحي لهم أن ينظروا إليك بعين الحسد. فلا يوجد أسوأ من العين الحسود. فالحساد الحمقى إذا رأوا أنك سعيدة وموفقة مع هذا الفتى، سلطوا عليك شرهم ونحسوك. خذي حِذرك!».

الفصل التاسع

1953

التانغو

ركبت رويا صهوة السعادة والبهجة. فما إن حسبت أنها بلغت مبلغ شيء، (كقراءة ترجمات كل الروايات الروسية التي صفها السيد فخري على رفوف مكتبته مثلاً) حتى لاح لها تحدٍّ آخر مثير. إذ كانت البلاد في يقظة فنية بفضل طبقة جديدة من النخبة المثقفة، وكانت المدينة تشهد ازدهاراً في نشر المؤلفات، وفي السينما، والمسرح، والأدب، والفن.

اليوم، صار لرويا وبهمان، وقد تمت خطبتهما، أن يختلطا دون مرافق، وأن يخرجا معاً دون تحفظ أو قلق، حتى في الليل.

كان لجهانگير صديق بهمان جهاز جراموفون أصلي وكان له أسطوانات لأغانٍ شرقية وغربية. وكانا يرتادان هذه اللقاءات الاجتماعية في زيجة، فكانت رويا تسمع في هذه الحفلات أغاني بلسن أجنبية؛ وكانت أغاني مثيرة إلى درجة أنها كانت مشئمة، وكانت رقيقة إلى درجة تخفف المشاق.

كان جهانگير يقيم حفلات الرقص لليالي الخميس، أي عشية عطلة الجمعة. وكان والدا جهانگير هذا يملكان كل الأجهزة

الحديثة، على غرار الجراموفون. وقال بهمان إن والدته أول ما علمت أن أسرة جهانگير تسبح في الثراء، شجعته، جشعاً، على مصاحبة جهانگير. تجهمت رويا لدى سماع ذلك. لا ريب أن السيدة أصلان كانت متحمسة بشأن الفتيات الراقيات والثريات كشهلا، اللاتي يرتدن حفلات جهانگير واللاتي قد تكون إحداهن من نصيب بهمان.

عانق جهانگير رويا وبهمان لما وصلا قائلاً: «تعاليا، ادخلا!»، ثم قال لباقي الضيوف: «اسمعوا! ها هما الحبيبان المثاليان! إنهما أحسن الناس مظهراً! انظروا إليهما! مبروك!».

كانت خطبة بهمان ورويا حديثة العهد وكانت علاقتهما أمراً يستحق الاحتفال. وبناء على سحن بعض النساء في الجمع، كانت أمراً مثيراً للغيرة بالتأكيد.

سأل بهمان صاحبه: «ماذا على القائمة الليلة؟».

- «التانغو يا صديقي!».

لم تستطع رويا حتى الوصول إلى المائدة المليئة بأقداح الشمام المهروس مع الثلج. كان الجمع يتحلقون حولهما، وبهمان يضيء الأرجاء بسحره المعتاد والجميع يتدافع حوله. فرغم أن جهانگير هو من كان يملك الجراموفون والموسيقى والدراية بالرقص، إلا أن بهمان هو من كان مبتغى الإناث. معه رقصن خطواتهن الأولى، وبه تغزلن. حفظ بهمان كلمات أغاني سيناترا وشعبيات روزماري كلوني بلغة لم يكن يعرفها. كانت رويا تعرف، من تجمعاتها السابقة مع بهمان منذ خطبتهما، أن حضور بهمان ينير المكان إذا ساد الصمت جهة من الغرفة أو خمد الكلام برهة. كان من الصعب على الأنثى منهن ألا تتعقب حركاته وهو يرقص. كانت رويا تعلم علم اليقين

أنها ليست وحيدة في فتنتها بسحره، فالفتيات كن يضحكن تغنجاً بقربه، ويسُوخن إذا قال طرفة.

«تعالي معي». ساق بهمان رويا من ذراعها وشق مسلكه بين الحضور. مشى بها إلى مركز بهو الجلوس، وكانت أغنية فالس قد شغلت للتو. كانت تعرف الرقص على الفالس، فقد كان أول ما علمها بهمان الرقص عليه، ودربتها زاري عليها في البيت لأسابيع؛ كانت تجرّها إلى الأمام وإلى الخلف في غرفة النوم وتوبخها إذا أخطأت. **رويا تذكري، هذا ليس مثل رقصنا الفارسي حيث نبرم أيدينا ونمايل خصورنا. هذا أمر جدي. ركزي!** زادت ثقتها مع إرشادات بهمان الأسبوع تلو الأسبوع وتدريب زاري القسري، وها هي الآن تذرع البهو مع بهمان تستنشق رائحته المألوفة.

قالت لما فرغا: «أريد شراباً». فخلى سبيلها.

انطلقت إلى مائدة المرطبات فأخذت قدحاً فيه الشمام المهروس مع الثلج والتقطت ملعقة. امتلأ فمها الضمآن بالشمام المثلج الحلو، وبغتة شعرت بيد تحط على كتفها بشدة.

توقعت أن تلتفت فتجد بهمان، لكن لما استدارت، ألفت فتاة تتفرس فيها من رأسها إلى أخمص قدميها، فتاة طويلة القامة لها شعر متموج وبشرة زيتونية وفوق شفتها شامة كتلك التي عند نجوم السينما (لم تدر إن كانت حقيقية أم مزيفة، ولو كانت زاري هنا لعرفت). إنها شهلا، الفتاة التي لقياها في المقهى.

سألتها في صوت أجش وغليظ: «عطشانة؟».

- «نعم».

هذا كل ما استطاعت رويا التفكير في قوله. لا سلام، ولا مقدمات، ولا مجاملات.

- «ها أنت ذا، ألقيت شبكتك عليه. عظيم! لطالما كان تلك السمكة المنيعة التي يصعب اصطيادها، ولكن بطريقة ما» —وتفرست في شعرها وفي فستانها الأخضر - «ولكن بطريقة ما، **أنت** فعلتها. يا للعجب».

لبث الشمام والثلج في خد رويا وهي جامدة.

- «لم يكن جهانگير يرغب في حضوري الليلة خشية أن يزعج ذلك بهمان أو يزعجك... **أنت**. ولكن أنا وجهانگير صديقان منذ ولادتنا تقريباً، فلم لا أحضر حفله؟ ثم إني أردت أن أرى بنفسي ما الذي شغف بهمان حباً. وها أنا الآن» - فحصت رويا من رأسها إلى قدميها مرة أخرى - «ها أنا أرى لماذا الجلبة».

نظرت شهلا إلى حذاء رويا ولم يكن حذاء البدلة المدرسية ذي الشرائط، وإنما حذاء مسطحاً أعطته لها ماما، حذاء من الجلد الأخضر على جانبه إبزيم نحاسي. ثم قالت: «ويلاه، انظروا إلى هذا!» وهزت رأسها ثم صهلت ورحلت عنها.

- «كل شيء على ما يرام؟».

كان سؤال بهمان الذي جاء محمر الوجه من الرقص. لم تلاحظ رويا مع من رقص بعد رقصة الفالس، فلم يكن لها منع الناس من الانجذاب إليه. ثم إن الفتيات دائماً يتزاحمن عليه.

كرر سؤاله: «ما الخطب؟».

شدت رويا أسنانها على الشمام المثلج وقالت: «لا شيء».

حدق بهمان صوب الفتاة شبيهة نجمات السينما ذات الشعر المتموج التي كانت تسللت إلى الجانب المقابل من البهو.

- «أرجوك، لا تحملي همها. رأيتها تكلمك، لا أكاد أصدق أنها امتلكت الجرأة للمجيء الليلة. ماذا قالت لك؟».

لم تستطع رويا الكلام.

أخذ القدح من يدها ووضعه على المائدة، ثم جرها إليه وداعب عنقها. «رويا، كفاك من هذا. تلك الفتاة لا تعني لي شيئاً». قبل جبينها بالضبط في الموضع الذي زعمت ماما أن قدرها مدوّن عليه بالحبر الخفي. تلك القبلة لم تفوتها عين أحد، ولا سيما الفتاة متموجة الشعر التي تقف متجهمة في الجهة المقابلة من البهو.

- «إنها ترانا. توقف. الجميع يرانا».

- «جميل، فليروا، هذا مبغاي. وقبلها مرة أخرى. فأنا أريد تقبيلك أمام مبصر العالم اللعين بأسره».

- «كفى».

ولكن بعد القبلة الرابعة، وبعدما غدت قريبة منه أن شمت منه العرق على قميصه، كانت قد نسيت أمر شهلا تماماً.

كان كل هذا عبارة عن مشهد سري لم تكن تتوقعه في حياتها: حفلات الرقص، والموسيقى، والنساء المختلطات بالرجال، والأغاني من أمريكا والرقصات، وأقداح الشمام المهروس مع الثلج. من كان يدري أن الفتى الذي سيغيّر العالم يعرف الرقص؟ وأنه كان له هذا الرهط من الأصدقاء؟ وأنه كان أقربهم إلى ذلك الزير الغني الأشهر، جهانگير؟

قال بهمان إذ دس وجهه في عنقها: «فلتلتهمهم نار الغيرة جميعاً».

ردت رويا ضاحكة: «أظن أنك أنت من تلتهمه النار».

- «معك أنت؟ نعم، دائماً. لا أطيق صبراً على الزواج منك».

وقبّل عنقها برقّة.

ناغشته قائلة: «والآن، أحسن التصرف يا سيد، فأنا فتاة فاضلة». لكنها تركته يداعب خطوط عنقها بفمه.

رفع نظره إليها بعينيه الداكنتين اللامعتين، اللتين رأتهما مفعمتين بالبهجة في ذلك اليوم الأول في المكتبة، وقال: «أعد الأيام إلى اليوم الذي نجتمع فيه. لكم أحبك يا رويا».

وبقيا واقفين كذلك وجهاً لوجه. أحست بدفء أنفاسه، وبقلبها يخفق لصق صدره، ثم قالت أخيراً:

- «ها أنت قد تورطت معي!».

- «ذلك أشد مبغاي». ثم تأوه وضحك.

أزالت وبراً عالقاً عن ياقة قميصه وقالت: «والآن بما أنك الفتى الذي سيغيّر العالم، هل لك رجاء أن تحسن السلوك لتكون قدوة لهؤلاء الحضور؟».

رفع جهانگير يديه في الهواء وهز خصره قائلاً: «يا أولاد! لقد آن وقت التاااااااانغوووووو!».

شغّل أسطوانة جديدة فملأ صوت أوتار الغيتار المثير أرجاء البهو، وأشار جهانگير إلى بهمان من الجهة المقابلة: «بهمان، تعالى هاهنا! أريد أن أوضح لهم طريقة الرقص معك».

بعد نهاية العرض التوضيحي، وبعد انقشاع قهقهة الفتيات وهلسهن، وانتهاء الأغنية، ترك بهمان يد جهانگير وجر رويا إلى وسط البهو. انضم إليهما بعض الأخلاء الجريئين متممين النصاب للبدء. وحين شغل جهانگير الأغنية مرة أخرى، تشابك بهمان مع رويا. في البداية، لم تكن خطواتهما كما يجب، فترنحا وكادت هي تسقط. انغرزت شعرات ذقنه في خدّها، وشعرت، وهي ملتصقة به،

بشهوة ضارية غزتها حتى لقد اضطرت إلى إرغام نفسها على التركيز على الخطوات. كانت حركاتها خاطئة، ولكن لا يهم. التهب جسمها لصق جسمه. كان ذراعها ممدداً إزاء ذراعه كأنهما واحد. وكانت يدها تمسك يده. لعب بهمان دوره جيداً وظلّ يحاكي نظرة جهانگير الجدية والمثيرة من العرض التوضيحي. تبسمت رويا من ذلك فكشر فيها كمن يوبخها، ما جعلها تسرع إلى محاكاة تعابيره الجدية المصطنعة. ظلا يحاولان إلى أن استطاعا قطع كل البهو دون أن يبدوا أنهما على وشك السقوط.

وإن آمنت بالقدر، فستعلم أنهما كان مقدّراً لهما أن يلتقيا، وأن يغرم كل منهما بالآخر هكذا، وأن لا يرغبا في شيء إلا أن يكونا معاً. تناسب جسدها مع جسده على نحو مثالي، وأحست كأنها وجدت وطنها. كان من قدرها أن توجد في تلك المكتبة لما دلف وهو يصفر. وكان من قدرها أن تشارك معه أشعار الرومي وأن تحس بهذا الاتصال معه. كلها أشياء كانت مكتوبة في صحف مقدرة. والآن بات من المستحيل عليها أن تتخيل حياة من دونه. لقد باتت ملكه. هكذا بكل بساطة. لقد كان شيئاً أكبر من القدر؛ كان واقعاً، واقعاً يكاد يكون ملموساً. لم يكن حلماً، بل حقيقة.

سألها بهمان وهما يقطعان عرض البهو: «أين هرب بك جواد فكرك؟».

- «ماذا؟».

- «لم أر قط شخصاً يسبح بفكره إلى هذا الحد وهو يرقص. إنك تبلين حسناً، لا تخافي».

- «أوه، أشكرك».

تغلغلت رنات أوتار الغيتار المثيرة في داخلهما. وفكرت رويا

أنه كان على حق، فعلام القلق؟ لا شيء يهم. لقد كانا معاً، وهذا فقط ما يهم وسيهم أبداً.

قبل عنقها قائلاً: «أين ذهبت؟ لقد ابتعدت كثيراً».

- «لا يسعني الاقتراب أكثر من هذا، فأنا ملتصقة بك تقريباً! لقد تحقق حلمك!».

تبسم قائلاً: «لست أتذمر، إنما أراك سرحت بفكرك. أراك كمن يحاول فك ألغاز العالم».

- «إني أَعْقَل من ذلك».

- «كانت فيك نفس نظرة التركيز العميقة التي رأيتها أول ما التقينا».

- «كنت تصفر كالأحمق، حتى إنك لم تنظر إليّ».

حسبت أن الرقصة قد انتهت ولكن الأغنية أعقبتها أخرى، كما أن بهمان لم يكمن له أية نية في ترك يديها، فاستمرا في الرقص دون أن تعلم رويا إن كان باقي الأخلاء قد توقفوا عن الرقص أم لا. كان وجهها قريباً جداً من وجهه حتى جزمت أنه استطعم الشمام في أنفاسها.

- «في الشتاء الماضي، في تلك الأحداث السياسية والمظاهرات. لقد أنقذتِني».

- «بالكاد».

- «بل فعلت، فعلت حقاً».

تساءلت عما قصد بكلامه. أنقذته من الغوص في السياسة أكثر؟ أنقذته من الزواج بشهلا؟ أنقذته من هيمنة أمه؟ أرادت أن تسأله، ولكنها بالمقابل لم تشأ أن تغوص في الموضوع. ثم إن ذلك الشتاء المغشى بالسياسة انصهر جليده وذاب عن ربيع ناعم جداً وجميل

جداً، سيرسخ في ذاكرة رويا إلى الأبد، إلى جانب طعم الفطائر الحلوة وقهوة الكريما ذات الطعم القوي.

- «للأمانة، لقد صرت أقل سياسية الآن».

- «لقد قل اهتمامي بالأمر، ولكنني قلق».

- «بشأننا؟».

- «يريدون الإطاحة بمصدق».

لما سمعت اسم رئيس الوزراء، ارتخت يدها وقالت: «بالطبع. حسبت أنك لم تعد تهتم بالأمر كما في السابق، لقد قلت لتوك...».

- «لا غنى لنا عن السياسة يا رويا جون، فالسياسة هي وقود كل شيء في هذه البلاد، شئنا ذلك أم أبيناه. كل شيء: هذا الرقص، والجراموفون، وهؤلاء الفتيات اللاتي يرتدين آخر صيحات الموضة كأنهن في فيلم أمريكي؛ هل تحسبين أن أياً من هذا كان ليكون له وجود لولا جهود أولئك الذين يمارسون السياسة؟».

رغبت في قدح آخر من الشمام المثلج. رغبت في الجلوس. كانا ملتصقين في عناق مثير فجأة؛ ولو أنها حاولت تقشير جسدها عن جسده في بحر الرقصة، لكان ربما أمراً مستحيلاً يناقض قوانين الطبيعة وينافي إملاءات القدر.

تنهدت قائلة: «إنك قلق بشأن رئيس الوزراء. فهمت».

- «ثمة إشاعات أنهم يريدون إسقاطه».

- «من هم؟».

- «قوى الشاه، والإنجليز، والأمريكيون؛ كلهم معاً، وإني سمعت...».

«لقد جُنَّ بك! لا شيء على لسانه سوى رويا، رويا!»، صاح

جهانگير إذ مر بهما يراقص شهلا. كانت الأخيرة متيبسة بين ذراعيه، متفرسة في السقف، شاخصة ناظريها إلى الثريا.

قرّبها بهمان إليه أكثر إذ مر جهانگير وشهلا. كاد الغيظ الذي في عينَي شهلا يحرق مصابيح الثريا.

مال بهمان دانياً من رويا وهمس في أذنها: «أتدرين أن أسرة شهلا تعمل لصالح الشاه؟ والدها من حلفاء الشرطة».

- «ويلاه، لا تقل لي إنك تشك أنها من جواسيس الشاه».

- «أنا فقط أقول. لا أرمي أحداً بالظن».

التصق بها حزامه.

- «وهل تعلم هي أنك توزع خطب مصدق في أرجاء المدينة؟ هل... يمكن أن تسعى للثأر منك لعدم قضائك بالزواج المرتب الذي اتفقت عليه مع والدتك؟».

ألصق بهمان خدّه على خدّها وجنح إلى الصمت. لم يزيدا كلمة عن رئيس الوزراء. رقصا وحسب. عانقا بعضهما بقوة كما لو كانا سيفقدان أحدهما الآخر هناك في بهو جهانگير. إنهما الخليلان المثاليان!

سألته رويا وهما يقطعان البهو رقصاً: «أتظن أن شهلا وكل هؤلاء الأصدقاء الأنيقين قد يصيبوننا بالعين؟ حسدهم يبدو ملموساً، حتى إنك تكاد تلمسه بأصابعك».

- «كفاك من هذا! يجب ألا تؤمني بتخاريف عين الحسد هذه، فهي خرافات محضة ولكم أتمنى أن تتجاوز ثقافتنا هذه التراهات. إن ما نحن فيه لا يمكن لأحد أن يلمسه، وعلى كل حال فقد كان له أن يحدث».

- «كنت أحسبك لا تؤمن بالخرافات».

- «أنا لا أؤمن بها».

- «أليس قولك 'كان له أن يحدث' صيغة مختلفة لقول 'القدر'؟».

تبسم قائلاً: «لا شيء يمكن أن يحول بيننا، لا أحد يقدر أن ينحسنا».

همست في جرأة: «والدتك».

لم ينبس ببنت شفة.

حدقت في قدميهما في حرج قائلة: «آسفة».

فجأة قال بجدّية: «اسمعي، سوف ترجع إلى صوابها، سوف ترين».

بلغت أصداح الموسيقى منتهاها ناثرة نوتات دراماتيكية. وعلى حين غرة منها، ثناها إلى الأرض فجرى الدم في رأسها وسبح البهو في عينيها وانقلب كل شيء رأساً على عقب، ثم قال لها وهو يجرها إليه من جديد: «لا مخلص لك مني، فأنا لست ذاهباً إلى أي مكان. أبداً».

الفصل العاشر

1953

رسائل في كتب

مكتبة
t.me/soramnqraa

في الثلاثاء الموالي، لم يظهر أثر لبهمان. اتصلت به في البيت فلم تجد رداً على اتصالها، وطرقت باب بيته فلم تجد من يجيب طرقها. لا امرأة مرهقة ممتقعة الوجه بروج على وجنتيها، ولا رجل لطيف وكريم يعرض عليها احتساء فنجان شاي. لا أحد. سألت الجيران فلم تلق إلا اللامبالاة، اللهم أحدهم الذي رجّح أن يكونوا قد سافروا إلى الشمال، حيث البحر، وحيث يهربون من لظى الحر. لا بد أن تكون هذه الحقيقة. لكنها ليست سوى تلميحات، مجرد تخمينات، لا شيء مؤكد.

انقضت أيام ثلاثة لم تسمع فيها عن بهمان خبراً، حتى أعياها القلق. فلما طال بها الأمد انطلقت إلى المكان الذي بدأ فيه كل شيء؛ إلى المكتبة. كانت قلقة مما قد تسمعه من أخبار هناك - مما قد يخبرها السيد فخري بشأن الاعتقالات السياسية. كانت قد تحاشت الذهاب إلى هناك في البداية لكن رغبتها في معرفة أخبار بهمان غلبتها.

- «ابنتي العزيزة، ألا تدرين ما يحدث في البلاد؟ إن أعداء

رئيس الوزراء مصدق كثيرون. فالرجل يريد المضي بالبلاد إلى الازدهار. لكن القوى الخارجية والعملاء مزدوجو الوجوه في بلادنا يحاولون ثنيه عن ذلك مهما كلفهم الأمر».

- «ناشدتك بالله يا سيد فخري، قل لي أين هو».

- «لا يستطيع أن يكون معك الآن».

- «لكننا **مخطوبَين**. اسمعني يا سيد فخري، إن لطفك معنا لا ينكره إلا جاحد، وإنا لممتنان لك ما حيينا على مساعدتك لنا وعلى جعلنا... نلتقي. ولكن لقاءاتنا في السر قد ولى زمانها، نحن اليوم مقبلان على الزواج. عند نهاية الصيف! رجاء أخبرني بما تعلم وحسب. زعم لي أحد جيرانهم أنه قد يكون سافر إلى الشمال للاصطياف في البحر، ولكن في هذه الحال لماذا لم يخبرني؟ لو أن الأمر صحيح لكان أخبرني، أليس كذلك؟».

شعرت بالخجل من طريقة كلامها مع السيد فخري، فقد بدت صريحة يائسة للغاية، وذلك أمر مشين جداً. ولو أن زاري علمت أنها كانت تتضرع بإلحاح كبير وتتوسل بغية معرفة أخبار بهمان، لصبت عليها جام غضبها. وفي نهاية المطاف، أخبرت رويا أهلها باختفاء بهمان فرجّح بابا، مقتنعاً، أن يكون بلطجية الشاه قد اعتقلوه فلم يستطع النوم بعدئذٍ. أما ماما فلبثت تدعو الله عز وجل أن يشمله برعايته حاملة سبحتها ومتمتمة آيات قرآنية بصوت لا يكاد يسمع وهي تمرر خرز السبحة.

- «لا تشغلي بالك يا ابنتي»، قال السيد فخري.

- «أعلم أنهم يعتقلون أنصار مصدق، أرجوك أخبرني بما سمعت».

- «لا تحملي هماً يا عزيزتي، الأمور معقدة قليلاً. يجب أن تأخذي قدراً من الراحة. لا تقلقي...».

- «الراحة؟ كيف أرتاح وخطيبي مفقود! قل لي كيف يعقل أن لا أحد يعرف عنه شيئاً في هذه المدينة التي يتدخل كل من فيها في شؤون غيرهم دائماً؛ لا أحد يعرف شيئاً عنه أو حتى عن أبيه وأمه...».

تصلب السيد فخري: «أمه؟».

- «كل من سألتهم عنه لا يعرفون شيئاً! كيف يعقل أن لا أحد يدري خبراً؟».

لم يكن من اللائق أن تتصرف شابة على هذا النحو في حضرة رجل أكبر منها سناً؛ فلا يجدر بها رفع صوتها والإلحاح في طلباتها، لكنها لم تقو على تقبل فكرة وجود بهمان في زنزانة.

شحب وجه السيد فخري وابتلع ريقه بسرعة وقال: «أمه وأبوه... هل هما على ما يرام؟ ما الذي سمعته؟».

- «لا شيء! ولهذا أنا أسألك!».

شعرت برغبة مباغتة في رشقه بأقرب كتاب تجده، إذ لم تدر لماذا كان يراوغها هكذا ويتصرف كما لو أنه لا يدري شيئاً عما تسأله. ثم عادت لتتكلم، بصوت متمهل ومنخفض هذه المرة: «أعلم أن الكثير من النشطاء السياسيين يأتون هاهنا يا سيد فخري، والجميع يعلم أن محلك هذا ملاذ آمن لكل أنصار مصدق، وأنك توزع الأخبار من هنا للجبهة الوطنية وحتى للشيوعيين من جماعات حزب توده. أرجوك أخبرني بما تعلم وأستطيع تحمله، ولن أخبر به أحداً».

- «طيب يا بنية». صمت برهة وقد استحالت تعابير وجهه ملغزة

ثم استطرد: «حسناً، أتدرين أن الشرطة الحكومية تأتي هاهنا أيضاً؟ وأن الكلام أمر ليس بالسهل؟»، ثم رفع حاجبيه وأضاف: «أقول لك لا تحملي هماً. فقط... اجعلي ثقتك في رب العالمين. إنه هو العلي القدير».

بطبيعة الحال. لقد أعمى قلقها على بهمان بصيرتها إلى حد أنها تجاهلت تماماً الخطر الذي قد يسببه كلامها على السيد فخري. نظرت وراءها لتتأكد من عدم وجود طرف آخر يسمع تحاورهما، فآذان الجواسيس تترصد القول في كل مكان. تساءلت إن كان السيد فخري ممن ورد اسمهم على قوائم المراقبة، وإن كان قد خضع للتحقيق بدوره.

انحنى إزاءها كما لو أنه على وشك البوح بسرٍّ عظيم فتذكرت لقاءها الثاني ببهمان يوم انحنى السيد فخري وقال لها أن تتوخى «الحذر الشديد». أرغمت نفسها على البقاء هادئة فلم يكن من مصلحتها فقدان ثقته.

همس لها السيد فخري: «ابنتي العزيزة، إن بهمان... مشغول؛ هذا كل ما في الأمر. ولا يمكن له الوجود مع فتاة في هذه الأيام».

- «أنا خطيبته»، ردت غاضبة.

تنهد قائلاً: «وليكن. تفهمين ما أرمي إليه، صحيح؟».

- «كلا، صدقاً لم أفهم».

تقلب كيانه وتبددت حدته فقلب بصره في محله ميمنة وميسرة في خوف ثم تنهد وقال: «قال بهمان إن كل ما تريدين قوله يمكنك أن تكتبيه في رسائل إليه».

خفق قلبها بشدة وقالت: «أحقاً فعل؟».

- «نعم».

تزاحمت الأفكار في عقلها وحاولت أن تفكّر في كل الاحتمالات التي تحتّم التواصل عبر تبادل الرسائل. لماذا لا يستطيعان التحدث وجهاً لوجه؟ لا شك أنه مختبئ خوفاً من التعرض للاعتقال.

- «بالتأكيد، سأكتب له إذاً».

عدّل السيد فخري نظارته ولم يبرح صمته.

- «سيد فخري، هل لك أن تعطيني عنوانه؟».

- «عنوانه؟».

- «نعم، أنت بالتأكيد تعرف مكان وجوده؟».

كانت تحاول التصرف بحذر كيلا تثير استياءه فلم ترغب في أن تبدو جريئة جداً، فيتراجع عن عرضه...

- «أعطيني الرسائل وسأتولى تبليغها».

- «عذراً؟».

- «من فضلك يا ابنتي، افعلي ما أقول».

- «ولكن كيف؟».

- «كما أفعل مع الآخرين. لدي أساليبي في ذلك».

لم تستطع مقاومة السؤال: «أية أساليب؟».

- «في نظرك، كيف يتبادل الكثير من الشباب الأخبار وهم لا يستطيعون الاتصال أو لقاء بعضهم البعض يا رويا خانم؟».

- «من خلال التلغرام؟».

- «بل من خلال الكتب يا صغيرتي. يعطونني رسائلهم فأضعها بين أوراق الكتب. وحين يأتي زبون «ليشتري» كتاباً، فأسلّمه أعطيته الكتاب والرسالة بداخله».

جالت ببصرها في المحل وحدقت في الرفوف المليئة بالكتب التي لطالما شغفتها. لم تكن تدري أن تلك الكتب تُستعمل وسائل للتواصل، وأن الناس يضعون رسائلهم داخلها فتغدو وسائل نقل يسوقها السيد فخري. وفجأة، بدا هذا المكان الذي أحبته وقضت فيه العشايا تطلب علماً أو تصيب ملاذاً مشؤوماً إلى حد ما. إذاً، فلم يكن هذا المحل ملتقى لتوزيع المنشورات السياسية سراً وحسب، بل كان قطباً لتبادل الرسائل أيضاً؟

لم تكن رويا مستعدة لخسارة قناة التواصل الوحيدة المتاحة لها مع بهمان فتنهدت بعمق قائلة: «بالتأكيد، أقدر لك صنيعك، وسآتيك برسالة غداً».

وحين خرجت إلى أشعة الشمس القاسية وجدت المدينة تنضح بالحرارة والقلق. كان الكلام عن انقلاب محتمل يطوف في المدينة، وقد بات الكثيرون يشاطرون بهمان فكرته بشأن احتمال تحالف الشاه مع القوى الخارجية والإطاحة برئيس الوزراء. ولا شك أن بهمان كان مشتركاً مع النشطاء الذين يحاولون تقويض محاولة الانقلاب، بغض النظر عن مكان تواجده. قد يعني ذلك أنه لم يعتقل بعد، وأنه مختبئ لا أكثر؛ فلن يستطيع السيد فخري أن يبلغه الرسائل إن كان بهمان في السجن بطبيعة الحال. وكان السيد فخري بالتأكيد يعلم أكثر مما أخبرها، بيد أنه كان متكتماً لسبب ما. ولكن لا بأس، على الأقل يمكنها مراسلته؛ على الأقل كان لها ذلك.

دبجت رسالتها على دفتر ابتاعته من مكتبة السيد فخري، فكانت تملأ الورقة بحبر أزرق من قلم المداد تخط به كلمات الشوق

والحنين. كان في خلدها أسئلة تُعدّ ولا تحصى. وكانت أحياناً لا تجد إلى كبح رغبتها في التسجيع، تسجيعاً قد يسميه البعض شعرياً (عدا السيدة دشتي مُدرِّسة الأدب للسنة الختامية).

في اليوم الموالي، زارت السيد فخري في مكتبته ولما أعطته الرسالة في ظرف مغلق قطع لها الوعد أن يبلغها إلى يد بهمان ثم أتبع ذلك بتنهيدة قلق كما لو كان يفعل ذلك ضد رغبته.

لم تقو على مقاومة السؤال: «سيرد على رسالتي أليس كذلك؟».

هز السيد فخري رأسه وغمغم كلمات عن حب الشباب وعن «فضائع الأمل» لكنه أخذ منها الظرف.

ولما عادت إلى المحل بعد ذلك ببضعة أيام، تخلف بالداخل رهط من الرجال يلبسون قبعات ديربي وسراويل سوداً. أوجست رويا في نفسها القلق أن يكون هؤلاء الرجال جواسيس سريين أجرهم أتباع الشاه. مد إليها السيد فخري ديواناً للرومي مع ابتسامة مهذبة فأخذته منه وغادرت المحل فمشت بضعة أمتار وقلبها يطير فرحاً، وعندما ابتعدت بما يكفي تجرأت وفتحت الديوان.

ألفت بين أوراقه ظرفاً فأمسكته بإحكام شديد آلم مفاصل أصابعها ثم أعادته إلى داخل الديوان، فلم تجرأ على فتحه في الشارع وقراءة فحواه أمام العامة، كما لو أن صنيعاً كهذا من ضرب الذنب، فلن تقرأه إلا عندما تختلي بنفسها.

ضمت الديوان إلى قلبها على طول المسافة إلى البيت، لكن بطبيعة الحال، عند وصولها، أخذت زاري تتذمر أن أصابعها تؤلمها من كثرة تقشير الباذنجان بينما هي تذرع الشوارع، وأن رويا لا تكمل نصيبها من أشغال البيت إطلاقاً. رمقتها الخادمة كازب بعين الريبة،

وكان وشاح رأس الأخيرة معوجاً ووجهها متعرقاً من تقشير الباذنجان الذي كان من الواضح النشاط الأساسي لذلك اليوم. أومأت ماما لرويا بالقعود على جردل مقلوب في المطبخ ثم انضمت إليهن فأكملن تقشير الباذنجان فشرحنه وغسلنه وملحنه ثم جففنه وقلينه. كان بابا يحب أكل الباذنجان وفي ذلك المساء أجزل لهن المديح على مهارتهن في الطبخ. وكان كلما تكلم عن الباذنجان ولا شيء غير الباذنجان أدركت رويا أنه قلق بشأن بهمان ويحاول مداراة قلقه. كانت تنتظر نهاية العشاء بفارغ الصبر حتى تنطلق إلى غرفتها المشتركة مع زاري وتنتظر إلى أن تنام أختها ثم تفتح رسالة بهمان أخيراً.

فلما لبستا منامتيهما ولفت زاري جدائل من شعرها في قصاصات من ورق الجرائد، راحت رويا تتمنى أن تنام أختها، لكنها كانت مهذارة تلك الليلة ولم تتوقف عن التذمر: «لقد أفسد تقشير كل ذلك الباذنجان يدَي. انظري إليهما، انظري وحسب. لقد غديتا جافتين وخشنتين. كم لا أطيق احتمال هذا». فغمغمت رويا: «يداك على ما يرام». كان كل مناها لحظتئذ أن تخلد أختها إلى النوم لتتمكن من قراءة الرسالة. «كلا، ليستا على ما يرام، وهذا بفضلك أنت يا رويا! أنا وكازب اضطررنا إلى تقشير كل الباذنجان تقريباً وهذا أمر غير عادل. كونك العروس المرتقبة لا. . .». ثم أمسكت لسانها. «آسفة، أعلم أنك قلقة بشأنه. لقد كنت متكتمة جداً هذا المساء على العشاء. أعلم أن مصير بهمان يحتكر فكرك، ولكن ينبغي لك الإقرار أن. . . الاعتراف أن. . .».

همست رويا: «أن ماذا يا زاري؟».

- «لعل القدر أراد أن يغيبه. أو ربما لا يمكن لك الوثوق في شخص مهووس برئيس الوزراء إلى هذه الدرجة. لعله يخطط لمكيدة

سياسية ما وهو مختبئ في مكان ما. من يدري. لعلنا كنا جميعاً سذجاً أن حسبنا أنه سيعارض والدته ويتزوجك (شبكت ذراعيها). ربما الحقيقة أنه لم يستطع معارضة أمه يا رويا. أنا أكره قول هذا ولكن ربما هذه هي الحقيقة. رويا؟».

لم تقل رويا الكثير، واكتفت بالإنصات بينما أطلقت أختها العنان للسانها. وكانت زاري إذا دخلت إحدى نوبات ثرثرتها فالأفضل لك الإعراض عنها، ثم إن رويا لم ترد أن يطول أمد تحاورهما فكل ما كانت تريده هو قراءة الرسالة، تلك الرسالة التي لم تكن زاري تدري أن بهمان كتبها لها!

- «قال يغيّر العالم قال! يا عيني! كم كنا حمقى لما حسبنا أنه سيتخلى عن طاعة أمه هكذا، ولكن يمكنك النظر إلى الجانب المشرق يا أختي، فعلى الأقل لن تضطري لتحمل السيدة أصلان وقرفها لبقية عمرك، أليس صحيحاً؟».

- «تصبحين على خير يا زاري».

أخيراً، لما سمعت رويا أن أنفاس أختها قد خمدت وتيقنت أنها قد غطت في النوم، نهضت من السرير وجلست قرب النافذة كي تقرأ رسالة بهمان على ضوء القمر. فتحت الظرف بعناية بالغة كما لو أن الكلمات بداخله قد تنكسر أو يتداعى تنظيمها إن هي لم تتعامل مع الرسالة على النحو الصحيح.

حبيبتي رويا،

لما بلغتني رسالتك كدت أطير فرحاً. عليم الله كم أشتاق إليك، حتى إني لا أقوى على التفكير وبالكاد أقوى على الأكل. لم أستطع مقاومة اشتياقي لك خلال الأيام

القليلة الماضية، وشعرت كما لو أنني لم أرك منذ سنوات. أعتذر لأنني اضطررت إلى المغادرة فجأة، ولأود لو أمكنني إخبارك بالسبب - وسيأتي يوم أخبرك فيه. أما الآن، فاعلمي أنني على خير ما يرام ولا داعي للقلق بشأني. سأعود حالما تسمح لي الظروف. كل ما في الأمر أنني في وضعية معقدة حالياً ويجب علي أن أتعامل مع بعض الأمور.

لا أطيق صبراً لأخذك في حضني من جديد. لقد سكنت رسالتك إلي لوعتي كثيراً. أخبري والديك بألا يقلقا بشأني، فأؤكد لك أنني على أحسن حال. أتمنى ألا تكون زاري تزعجك كثيراً.

إن صورتك لا تغادر مخيلتي، أفكر فيك في كل وقت وحين يا رويا جون. آمل أن ألقاك مجدداً في القريب العاجل.

أنت حبي.

بهمان

مررت أصابعها على الرسالة وفيها رغبة أن تتصاعد رائحته من الورقة وأن تغمر قطعة منه أطراف أناملها. لم تر خط يده إلا في مناسبة واحدة من قبل وكان ذلك يوم أهداها المفكرة في فاتح العام الجديد وفيها كتب كلمات منه. فلما رأت خط يده من جديد، شعرت كما لو أنها تمسك قطعة منه. كانت تشعر به في كل انحناءة وكل طية حرف على الورق، ولما قرأت الرسالة مرتين وثلاثاً شعرت بصوته يرن داخل مسمعها.

والمسلَّم أن جوابها كان فياضاً ومفعماً بلغة الشوق والحنين، ولو أنها دأبت من قبل هذا على التحفظ في تحاورها معه حتى إذا اختلى كل منهما إلى الآخر. أما على الورق فقد وجدت نوعاً من الحرية في قول ما لم تقوَ على قوله في حضرته شخصياً. تصرفت كما العشاق، كما أنها كانت صريحة وسألته أسئلة صعبة من قبيل: **أين أنت؟ لماذا لا يمكنني لقاؤك؟**

عندما سلمت الرسالة إلى السيد فخري في اليوم الموالي، شعرت كمن جُرِّد من ملبسه، بيد أن الظرف كان مغلقاً، ثم إن السيد فخري له أمور تشغله وهي أهم من قراءة ترهات حلوة لمراهقين. تخيلت كلماتها توضع بين صفحات ديوان فارسي حيث تحضنها أبيات شعراء السلف. لقد كان حبهما في مأمن هناك. وكان ذلك، على نحوٍ ما، هو وطنه. حاولت تخيل أحد أصدقاء بهمان أو رفيقاً له في النشاط السياسي يأتي إلى المحل ويأخذ الكتاب فيوصله إليه. أينما كان.

لم يهنأ لها بال ولا غمض لها جفن إلا بعد أن تسلمت رسالة أخرى منه. كانت مشتتة الخاطر قلقة البال تصطدم بالجدران وتسهى في الفراغ. لم تجد ما يشغلها عن التفكير فيه. ولم تنعم بسلام مؤقت إلا عندما وضعت يدها على ردٍّ منه. فلما أمسكت تلك الورقة الرقيقة بين يديها شعرت كأنها تسمع صوته من جديد. قرأت كلماته ورأت خطه وكيف يخط حرف النون بثقة واتزان وطريقة جعله الأسطر تصعد قليلاً في الأخير...

بدأت الشرطة الحكومية تتردد على المكتبة أكثر فأكثر ولم تعد ملاذاً آمناً للخلوة كما كانت عليه قبل أشهر قليلة. فتجد شرطياً أو اثنين يتخلفان بين أكوام الكتب - في البداية كان ذلك على نحو

عشوائي ثم صار أمراً منتظماً على ما يبدو. يراقبون مَن يشتري خطب مَن ويدوّنون الملاحظات عن الزبائن الذين يطلبون أعمال كتّاب من أنصار مصدق، ويولون انتباهاً خاصاً إذا جاء أحدهم وطلب أي شيء عن الماركسية. بدا السيد فخري محاصراً ومرهقاً، وقد كانت حركاته، كشأن كل شخص تراقبه الشرطة، حذرة وكلماته آلية. ولكنه مع ذلك لن يتخل عن دأبه في انتقاء أعمال لأفضل الأدباء من أجل رويا ولا عن حرصه على تزويدها بجرعتها الأسبوعية من الشعر. لم تعد رويا تتخلف في المحل بل صارت تتناول كتابها من السيد فخري بالطريقة الأكثر درءاً للشبهة، حذرة في ذلك ألا تظهر أنها تعلم أن الكتاب فيه أكثر من كلمات المؤلف، بل كلمات بهمان أيضاً، ثم تدبر إلى حالها فتنظر أن تختلي بنفسها تماماً قبل أن تقرأ كلماته.

حبيبتي رويا،

أفكر فيك في كل وقت وحين. أفكر فيك أناء الليل وأطراف النهار. الحقيقة أنك لا تغادرين فكري وما كنت لأرغب في ذلك قط. ولكن هذا الفراق لن يدوم وسنتذكره يوماً ونضحك منه. لا أطيق صبراً حتى يصير كل هذا من الماضي. أرى وجهك الصبيح في كل مكان. أما إن كنت قلقة بشأني فاعلمي أني على خير وعافية لا ينقصني إلا أنت، مما يعني أنه ينقصني كل شيء بالطبع. إنني أعد الأيام للقائك يا رويا جون. إلا أنني أمر ببعض الصعاب هنا كما أن رئيس الوزراء وحكومته محاطون بالخطر، ولكننا سنكون الجيل الذي سيأتي عليه يوم يذكر فيه هذا التاريخ بافتخار. إننا نرفع قواعد الديمقراطية لمستقبلنا.

عذراً، أعلم أنك لا تحبين إسهابي في الحديث عن السياسة، فها أنا أقول لك إذاً أنني لا أطيق صبراً على الزواج بك.

إني أحلم بالأطفال الذين سننجبهم.

ثم إني خططت لكل شيء، وسأعود في غضون أسابيع قليلة.

على أمل أن أراك في أقرب الآجال.

أنت حبي.

بهمان

الفصل الحادي عشر

1953

البرقوق الأخضر

- «دعي عنك هذه الترهات يا أختي وتعالي إلى النوم، لا إله إلا الله!».

لبثت رويا جالسة عند رِجل السرير: «هل قرأتِها؟ قولي لي إنك لم تقرئيها».

- «صدقاً يا أختي، أفضل تقشير عشرة كيلوغرامات من الباذنجان مع كازب على قراءة غزليات حبيبك السياسي».

- «فما أدراك إذاً؟».

- «هوني عليك يا رويا، فلا توجد أسرار بيننا. يجب أن تسود الثقة بين الأخوات، أليس كذلك؟ هيا تعالي إلى السرير الآن. تقرئين تلك الرسائل كل ليلة. أتحسبين أنني لا أسمعك عندما تخرجين العلبة من تحت السرير، ولا أسمع خشخشة الورق، ولا أسمعك تشهقين كالمهرج؟ إنه أمر سخيف قليلاً للأمانة». سكتت ثم سألت: «لماذا رحل؟ أين هو؟».

شعرت رويا بالخجل لما أدركت أن زاري كانت تعلم بأمر

الرسائل منذ البداية، كما شعرت بالخزي لأنها بعد كل الرسائل التي وصلتها من بهمان لا تزال عاجزة عن الإجابة عن السؤالين: أين هو؟ ولماذا رحل؟ فغمغمت: «لا يهم».

اعتدلت زاري جالسة فجأة في الظلام قائلة: «هل اعتُقل؟ هل هو في السجن؟». ومع أن رويا لم تستطع تبين تعابير وجه أختها على ضوء القمر، إلا أنها استشعرت نسمة ابتهاج فيها لفكرة وجود بهمان في السجن.

- «عودي إلى النوم يا زاري، فلا أخالك تفهمين أمراً كهذا على كل حال».

- «ولماذا؟».

- «يصعب علي شرح لك تأثير هذا لأمر. لا أقصد الإهانة ولكنك لا تعرفين ما يعنيه الوقوع في الحب».

ندمت على كلماتها من فورها. سمعت صوتاً من السرير كأنه صرير صغير. هل كانت تنهيدة حزن مكتومة؟ بالتأكيد لا، لعل زاري كانت تضحك منها - كانت زاري على الأرجح تضحك ضحكة مكتومة على بهمان. أعادت رويا الرسائل إلى العلبة وأرجعتها إلى مكانها ثم صعدت إلى السرير المشترك فاستلقت بظهرها إلى أختها وقالت: «تصبحين على خير يا زاري».

جاء صوت زاري صاحياً تقول: «تفكرين فيه، أليس كذلك؟».

- «ماذا؟».

- «تفكرين فيه طوال الوقت، صحيح؟ هو أول شخص تفكرين فيه عندما تصحين في الصباح. وكذلك يأتيك في أحلامك. تودين لو توقفت عن التفكير فيه طوال الوقت ولكنك لا تجدين سبيلاً لذلك.

تعجزين عن التوقف عن التفكير فيه، وتشعرين كما لو أنه بجانبك دائماً. أليس كذلك؟».

التفتت رويا لتواجه أختها وقد سندت رأسها بكوعها: «أنت أيضاً تقرئين الروايات الأجنبية؟». من أين لزاري بكل هذه المعرفة عن الشعور بالحب؟ قد تكون أختها المهووسة بنفسها مغرمة بأحدهم هي الأخرى. من يعلم!

بدا شكل زاري تحت اللحاف القطني الناعم ككومة صغيرة. لاذت بالصمت قليلاً ثم قالت: «تصبحين على خير يا أختي».

استدارت رويا ثانية فاستلقت كل منهما بظهرها للأخرى واتخذتا وضع الجنين. هكذا تنامان منذ أن بلغت زاري العمر الذي غادرت بموجبه غرفة ماما وبابا.

- «تصبحين على خير يا زاري».

أصبحت عبارات رسائله مألوفة لدى رويا مثل كلمات القصائد أو الأغاني المشهورة. لقد علقت في ذاكرتها إلى الأبد. كانت ترددها في خاطرها خلال ذلك الصيف وهي تنتظر عودته. **أفكر فيك في كل وقت وحين. أفكر فيك أثناء الليل وأطراف النهار. أرى وجهك الصبيح في كل مكان.** كانت تحضرها سطور من رسائله وهي تساعد ماما في المطبخ، وهي تطرز زهوراً صغيرة على إحدى البلوزات مع زاري، وهي تشرب عصير الشمام المثلج لتبرد جوفها. كانت كلماته تحضرها وهي ترى الجموع المحتجة في الخارج تزداد عدداً والفصائل السياسية تزداد انقساماً.

كانت قد اتخذت علبة قصديرية صغيرة لتخزن فيها رسائل بهمان

لأنها كانت تحسب أن عودته قريبة ولن يضطرا لتبادل عدد كبير من الرسائل. لكنها اندهشت من كومة الرسائل التي تعاظم حجمها. لقد طال أمد غيابه على عكس ما منت به نفسها. كان غيابه يشعرها بالتضاؤل وبالتيه، ولولا رسائله التي كانت تغذي فيها الأمل لما وجدت سبباً للمضي والاستمرار. بيد أن قلقها لم يتوقف، فأسقمتها الأسئلة والوحدة والشوق.

أيمكن أن يكون حبها لبهمان كبر بفضل الرسائل؟ لا ريب في ذلك. لقد ازداد قوةً ومتانةً فكانت كلما قرأت كلماته ومررت يدها على سطور الرسائل شعرت بالمزيد من القرب إليه. حتى الطعام لم يعد له نفس الطعم منذ رحيله، بل حتى الشمس باتت فاترة. كانت تشعر كما لو أن غطاءً من الحزن يخفي العالم من ورائه. لكن رسائله كانت تعينها على المضي وتخفف من شعورها بالفراغ، ولو على نحوٍ مؤقتٍ. كانت تسمع صوته في كل المقاطع حتى لقد آمنت أن رائحته تفوح من ألياف الورق الذي كتب عليه الرسائل.

يا ليتني لم أضطر للرحيل، وأودّ لو كنت معك. لكننا سنعيش معاً لبقية عمرنا، وسأعوضك عن كل شيء يا رويا جون. سوف ترين بعينك وسوف تفهمين كل شيء قريباً.

بالرغم من أنها كانت ترغب في معرفة سبب رحيله رغبة شديدة، إلا أنها كانت تثق به. وكانت إذا فرغت من قراءة إحدى رسائله استتب إيمانها ورسخ بأن حب بهمان لها لا يوازيه في الدنيا حب، وأن ثمة أسباباً وراء رحيله سيخبرها بها فيما بعد. لقد صدقته. ثم إذا وخزها الشك أو شعرت بالتيه أخرجت علبة الرسائل

من تحت السرير فتتداوى بترياق كلماته، فقد كانت الرسائل مثيرة ومريحة في الآن ذاته ومنها اقتنعت أن ليس في هذه الدنيا ما يوازي بهمان فتوناً ورومانسية.

لا رغبة لي في شيء إلا قربك يا رويا جون، لا شيء آخر.

لم يتخلف قط عن الرد على رسائلها. لم يجعلها قط تنتظر. كانت الرسالة قبل الأخيرة التي كتبها إليها مدرجة بين صفحات قصيدة حب للرومي كانت تقرؤها في ذلك اليوم الربيعي يوم تركهما السيد فخري وهرع إلى المصرف فاختليا ببعضهما للمرة الأولى. تأثرت رويا من هذه اللفتة من السيد فخري. أيكون رآها تقرأ تلك القصيدة؟ أيكون أولى اهتماماً بالغاً لذلك فوضع الظرف بين صفحات القصيدة من أجلها؟ استنشقت الورقة كدأبها كي تشم رائحة بهمان. افتتح الرسالة بمدى شوقه لرؤيتها ثم تلى ذلك بفقرات عن خوفه من الإطاحة برئيس الوزراء وخطر التأثير الخارجي على البلاد. قال إن النفط هو لعنتهم - تخيلي يا رويا لو لم يكن عند القوى الخارجية طمع في نفطنا. كتب لها عن تنافس البريطانيين والروس من أجل النفوذ في بلادهم. **إن كل الاحتمالات واردة بما فيها الانقلاب، والاجتياح، والحرب، كل هذا وارد يا رويا جون. ولكننا سنعد ما استطعنا من قوة ورباط خيل!** ثم ختم رسالته بشعار: يا مصدق يا الموت!

لاحقاً تلك الليلة، كانت رويا تجلس عند رِجل السرير في

الظلام والرسالة في حضنها حتى صاحت فيها زاري: «ألن تأتي إلى النوم أيتها العاشقة البلهاء!».

ولى ربيع محلات الحلويات والخروج والتسكع صحبة بهمان، وولى أول الصيف الذي فيه كانت خطبتهما، وولت سهرات الرقص، فخلف من بعد ذلك منتصف صيف لم يجلب معه إلا الرسائل المخبأة في الكتب. ولكن آخر رسائل بهمان كانت مزيجاً من خطاب سياسي وقصيدة حب. وإذ أصبحت طهران مرتعاً للاحتجاجات والاحتقان السياسي، ازداد شعور رويا بالوحدة وازداد خوفها على سلامته في ظل الاضطراب الحاصل. هل هو ضالع في أنشطة سرية معادية للشاه؟ هل هو في السجن؟ لقد عبر في رسالته الأخيرة عن إخلاصه لها ولرئيس الوزراء بالقدر عينه تقريباً.

كثيراً ما كانت الأختان تصعدان إلى سطح الدار في العشايا والأماسي هرباً من لظى الحر. كانت ماما قد وضعت لهما زرابي على السطح المنبسط فكانتا تنامان هناك أحياناً. وبعد ظهر أحد الأيام وبعد قيلولة طويلة استيقظ منها الجميع، بمن فيهم كازب، وانصرفوا إلى شؤونهم، صعدت الأختان إلى السطح رغم الحر المستعر هناك. وكان الصعود إلى السطح في منتصف النهار بمثابة الهرب. جلستا على زربية ووضعتا بينهما وعاء فيه البرقوق الأخضر الحامض ومن فوقهما الشمس ومن تحتهما الباعة المتجولون ينادون على بضاعتهم.

- «ابتهجي يا أختي. رجاء. لقد مرت الأسابيع منذ رحل وما زلت عابسة طوال الوقت. ثم إنك لديك رسائله أليس كذلك؟ حسبت أن ذلك سيخفف عنك».

لم تكن رويا تدري إلى أي حد يسعها الوثوق في زاري ولكن أختها كانت كل ما لديها فأقرت لها أخيراً: «لقد كان في رسالته الأخيرة شيء من الغرابة».

- «حقاً؟»، قالت زاري إذ تناولت حبة برقوق وقضمت منها.

- «لم يذكر فيها إلا خوفه أن يطاح برئيس الوزراء مصدق في انقلاب».

- «يا للرومانسية!».

استلقت رويا على الزربية وأسندت رأسها بكفيها. شعرت بلمسة حنون من الشمس، رغم أن ماما تكره أن تتعرض بشرة بنتيها إلى الأشعة. لقد كانت الشمس غريم ماما: كانت تخشى من النمش ومن الاسمرار. كانت ترى أن بنتيها يجب أن تحافظا على صفاء بشرتهما ما أمكنهما. وكانت رويا تجن جنوناً لمعتقد أن الفتيات الإيرانيات كلما صفت بشرتهن زاد جمالهن. امتلأت عيناها بالدموع، وحلت عليها رغبة في أن تكون مع بهمان. وسواء كانت تلك الرغبة ناشئة عن أمور بيولوجية فيها أو عن حماقة منها أو عقل الشباب عندها، فإنها كانت رغبة شاملة لا رادع لها.

وفجأة نزلت أصابع زاري المبللة بمرق البرقوق على خدّها تداعبها وتكفكف دموعها.

- «هيا. يكفيك بكاء. أنا على يقين أنه بخير. لربما رحل لسبب... وجيه. قد يكونون في فيلاتهم قرب البحر، هذا كل ما في الأمر. عليم الله ما تعبت أمه من التبجح بتلك **الفيلا** متعالية علينا. كفى يا أختي. أنا متأكدة أنه بخير».

قالت رويا وأصابع زاري اللزقة والمبللة بمرق البرقوق لم تزل

تمسح وجهها: «لكان أخبرني إذاً. أعتقد أنه اعتُقل أو مختبئ لسبب خطير، فلو كان ذهب إلى الفيلا بالشمال وحسب لكان أخبرني».

كان صوت بائع الشمام الذي يدفع عربته في الشارع تحتهما كصوت النواح وكصوت الأذان تقريباً. وفي ذلك الحر المومض ولظى الصيف المستعر، سُمع كأنه صوت الأسى.

- «انهضي يا أختي. لملمي شتات نفسك وانطلقي إلى المكتبة، فإني متأكدة أن ثم رسالة في انتظارك».

لما وصلت رويا إلى المكتبة، وجدت السيد فخري ينظر أمر زبائن آخرين فانتظرت في صبر إلى أن يُتمّ تجارته وراقبت باقي الزبائن في حذر، فما يدريك أي الناس يكون جاسوساً يترصد أنصار مصدق.

قال لها السيد فخري بعد أن رحل آخر زبون: «عذراً رويا خانم ولكن لي ما يشغلني فهذا وقت الجرد، ويجب علي أن أنهي بعض الحسابات».

تراجعت من مدى غلظة السيد فخري ولكنه ربما كان مشغولاً حقاً. فردت: «بالتأكيد، كل ما في الأمر أنني كنت أتساءل... إن كان لديك أي شيء يخصني».

رن الجرس فالتفت كلاهما إلى الباب وإذا امرأة تستدير بسرعة فصار ظهرها لهما فلم تستطع رويا رؤية وجهها. بدا الذهول على السيد فخري. قال لرويا باضطراب: «أنظريني دقيقة».

تولى إلى الخلف واستتر لأكثر ما اعتاد ثم عاد بظرف. شعرت بالقلق لأنه لم يضعه بين صفحات أحد الكتب، فقد كان الظرف في

يد السيد فخري منكشفاً وخطراً فتمنت لو أنه خبأه. قال لها وكأنه قرأ أفكارها: «عندما لا يكون أحد في الجوار، أستطيع بالطبع تسليمك الرسالة دون الحاجة إلى إخفائها».

نظرت حولها فلم تجد للمرأة أثراً في المكان فقالت: «أوه، فكرت فقط أن. . . حسناً، لا يهم. شكراً لك».

مدت يدها إلى الظرف لكن السيد فخري لم يخله، وبدا لوهلة كأنه رجع عن رأيه فتساءلت إن كان أحد رجال الشرطة أو ربما تلك المرأة التي رأتها قبل لحظات قد دخلت من جديد دون أن تسمع هي رنين الجرس. أو إن كان أحدهم قد ظهر فجأة من بين الرفوف.

- «سيد فخري؟».

رمقها بقلق بالغ ثم أرخى قبضته عن الظرف قائلاً: «هاك يا بنية. هاك. فقط. . .» ثم ابتلع ريقه وأردف: «خذي حذرك أرجوك».

ردت رويا متحيرة من طريقة كلامه: «بالتأكيد».

كانت الرسالة قليلة السطور ولكنها كانت تحوي كل شيء.

لا أستطيع التحمل أكثر من ذلك. إني راجع. سأشرح لك كل شيء. سامحيني رجاءً يا رويا جون. أعلم أنك لقيت في هذا عسراً، وإني لا أريد أن يتكرر هذا الفراق من جديد، ولا أطيق صبراً على اجتماعنا. أعلم أن موعد زفافنا هو في نهاية الصيف، وأعلم أن لوالدتك تحضيرات تعملها. ولكن عندي فكرة: هل تأتين معي إلى مكتب

المأذون الشرعي؟ وهناك نشارك في طقس رسمي قصير ونصير شرعاً زوجاً وزوجة. وذلك أمر إن تم لن تسع فرحتي به الأرض بما رحبت. فإذا وافقت، اكتبي إلي وسلمي الرسالة للسيد فخري وعجلي في ذلك ما قدرت، وستتمكن من فعل ذلك. أعدك يا حبيبتي. قابليني في ميدان سباه، وسط الميدان، بعد أسبوع من اليوم؛ يوم الأربعاء ثامن وعشرين مرداد[1] في الثانية عشرة زوالاً أو بعدها بقليل إن لم أتمكن من ذلك. قابليني هناك وعندها سنجتمع للأبد. إن لهفتي لرؤيتك هي ما سيساعدني على تحمّل ما بقي من أيام.

على أمل أن أراك من جديد - قريباً بإذن الله!

أنت حبي.

بهمان

(1) الشهر الخامس من التقويم الشمسي المعتمد في إيران وأفغانستان وهو 31 يوماً، ويوافقه في التقويم الغريغوري من 22 يوليو إلى 21 أغسطس - المترجم.

الفصل الثاني عشر

19 أغسطس 1953

الانقلاب

في ليلة الخامس عشر من أغسطس عام 1953، اتجه العقيد نعمة الله نصيري برجاله إلى منزل رئيس الوزراء محمد مصدق ومعه مرسوم من الشاه يأمره فيه بالتخلي عن منصبه. ولكن مصدق، كما علمتْ رويا فيما بعد، كان أحاط علماً بمحاولة الانقلاب تلك فتهيأ للعقيد النصيري وقواته قبل وصولهم؛ فاعتقل العقيدَ ووجّه له تهمة الخيانة. وفي صباح الغد، أفاق بابا للاستماع إلى إذاعة راديو طهران في تمام السادسة صباحاً كما دأب، لكنه ألفى نفسه يوكل الضربة تلو الأخرى للمذياع الصامت. ثم بعد نحو ساعة من ذلك، صدحت الموسيقى العسكرية من المذياع وملأت الدار، إذ لا شك أن بابا كان قد رفع الصوت إلى أعلى درجاته على أمل تلقي موجة أخبار. أعلن المذيع خبر محاولة الإطاحة بمصدق على يد الخونة، ثم جاء صوت رئيس الوزراء على الأثير يخبر الشعب أن «الشاه تحالف مع القوى الأجنبية وحاول تنفيذ انقلاب علينا، بيد أنه تم التصدي لمحاولتهم بنجاح». إذاً فكل شيء على ما يرام. تسمر بابا في مكانه لربع ساعة أو أكثر، فقالت له رويا مطمئنة:

- «لا عليك يا بابا، لقد فشلت محاولتهم».

قال بابا وقد اصفرَّ وجهه: «أكاد لا أصدق أنهم أقبلوا على فعل ذلك».

- «ولكن مسعاهم خاب، ومصدق في أمان، وكل شيء سيعود إلى سيرته الطبيعية».

كانت رويا تحاول طمأنة أبيها ونفسها، فقد كانت على موعد مع بهمان في غضون أيام قليلة ويجب ألا يحدث ما يفسد الأمر.

استرسلت الأخبار من المذياع أن الشاه وزوجته حملا بعض الأمتعة وطارا هاربَين إلى بغداد في منتصف الليل.

كان بابا غاضباً يقول: «فليخزيه الله، كيف له أن يحاول الإطاحة برئيس الوزراء الأمين ثم يفر بعد أن خاب مسعاه! هذا ما يحدث عندما تسمح للدول الإمبريالية الشجعة بالتأثير عليك، فالبريطانيون وراء كل ذلك، تذكروا كلامي جيداً، ثم إني لا أستبعد ضلوع الأمريكيين أيضاً».

- «الأمريكيون؟ ما كان الأمريكيون ليقدموا على أمر كهذا، فما هم بهذا المكر»، ردت ماما.

امتزج على رويا إحساسان بالانفراج والخوف في الوقت ذاته. لقد كان بهمان محقاً؛ فقد حاكت إحدى الجهات مؤامرة ضد مصدق، حتى لقد كان الشاه عيّن بموجب ذلك المرسوم اللواء فضل الله زاهدي رئيساً للوزراء خلفاً لمصدق. ولكن مشيئة الله عز وجل وقفت مع مصدق فتمكن من إفشال تلك المؤامرة. خلال الأيام القليلة التي تلت، وبينما كانت الاعتقالات تحصد الضالعين في المحاولة الانقلابية، كانت رويا تعد الأيام فالساعات. كانت تنتظر يوم الأربعاء على أحر من الجمر، وكل مناها أن تلتقي ببهمان من

جديد. كانت الأسئلة تتقاذفها: هل هو في أمان؟ هل له أية علاقة بكل هذه الأمور؟ وإن لم يكن له علاقة بها وكان مختبئاً وحسب، ما رأيه ترى في هذه الأحداث المجنونة؟

في اليوم الذي تلى محاولة الانقلاب، خرجت رويا رفقة زاري تتمشيان في الخارج دون المجازفة بالابتعاد كثيراً. كانت أعداد إضافية من عناصر الشرطة تملأ كل الأركان، وكانت نسخ من مرسوم الشاه الذي أمر فيه بتنحي رئيس الوزراء مصدق وتعويضه باللواء زاهدي في كل مكان.

قالت زاري متسائلة: «كيف يستطيعون طباعة نسخ كثيرة من ورقة بهذه السرعة؟».

هزت رويا كتفيها قائلة: «الآلات في أمريكا تستطيع طباعة نسخ كثيرة كهذه».

فردت زاري بالسؤال: «أنت أيضاً تؤمنين بنظرية المؤامرة؟».

- «تقول جاليه تباتبايي. . .».

- «جاليه تباتبايي فتاة شيوعية محبة للروس كما تعلمين. إن أمريكا بعيدة عن كل هذا».

تمنت رويا أن تكون أختها محقّة. فهي عرفت أمريكا من الأفلام في سينما متروبول، ومن الروايات المترجمة في مكتبة السيد فخري، ومن أغاني فرانك سيناترا في الجراموفون الذي عند جهانگير، عرفت أمريكا متألقة مليئة بأناس فاتنين يقبلون دون توقف. تلك أمريكا التي أرادتها أن تكون، وليس أمريكا التي يُرجّح ضلوعها في مؤامرة للإطاحة بحكومة بلدها.

عاد بابا من العمل عشية الاثنين فأخبرهم أن مسيرة من المتظاهرين انطلقت من جنوب المدينة ومشت حتى ميدان بهارستان

فأوقعوا تمثالاً للشاه رضا، كما مارسوا أعمال السلب والنهب في المباني والمكاتب، وأضرموا النيران حتى.

قالت ماما متسائلة: «ما الذي يحمل أنصار مصدق على العنف الآن؟ لقد فازت الجبهة الوطنية، لماذا يهيجون الوضع دون سبب؟».

فرك بابا وجهه قائلاً: «وما يدرينا أن هؤلاء أنصار مصدق حقيقيون، لعلهم مرتزقة جيء بهم للتظاهر».

سألت ماما بارتياب: «ولكن من الذي سيدفع لهؤلاء؟ فالشاه غادر البلاد وأنصاره محبطو العزيمة، فمن ذا الذي سيدفع لهؤلاء ليخربوا ويدمّروا؟».

لم يرد بابا. لكن رويا كانت تدري أنه كان يوجه أصابع الاتهام إلى القوى الخارجية. كانت تدري أنه يحمّل الذنب لأمريكا، لكنها لم ترد التصديق أنه على حق، فهي أرادت أن تؤمن بأمريكا التي في الأفلام الرومانسية وليس أمريكا المرعبة التي يراها بابا.

في نهاية اليوم الثالث من المظاهرات المدمرة التي تلت محاولة الانقلاب، طلب رئيس الوزراء مصدق من أنصاره البقاء في منازلهم قائلاً: لا مزيد من الانكباب في الشوارع. لا مزيد من الاحتجاج.

وصباح الأربعاء، كانت رويا في طريقها إلى حمام الحي، فألفت الشوارع أهدأ مما كانت عليه خلال الأيام الماضية، فحمدت الله أن استجاب الناس لدعوة مصدق فلبثوا في منازلهم، فحتى الحمام كان شبه فارغ.

خمس ساعات. خمس ساعات فقط تفصلها عن لقاء بهمان من جديد. خمس ساعات وتمسك يده وتحضنه وتحدثه. لم يغادرها الوجع لحظة في غيابه خلال الأسابيع الماضية. من دونه كانت تشعر

بأن وزراً يجثم عليها وتشعر أنها غير مقيدة في الآن ذاته. ولولا تلك الكلمات من رسائله لما استطاعت مواصلة الحياة، كلمات كانت تعينها على الخطو حتى في بهو الحمام الواسع الآن.

خلعت ثيابها في غرفة تغيير الملابس، ثم دخلت إلى البهو الرئيسي، وهو ذو سقف على شكل قبة ويملأ بخار الماء أرجاءه، وانزلقت في أحد الأحواض الدافئة. وبينما أخذت إحدى المساعدات متوسطة العمر تغسل شعرها وتفرك فروة رأسها برفق، أغمضت رويا عينيها وتنفست بعمق. وبعد لحظات مريحة من الصمت، نطقت المرأة: «دعيني أخبرك بشيء يا آنسة، لو لم يقدم رئيس الوزراء مصدق على حل البرلمان قبل بضعة أسابيع لما وصل إلى ما هو عليه اليوم، أليس كذلك؟ لقد حاول حشد أكبر قدر من السلطة. لقد كان مصدق يدفع المَلَكِية جانباً، وإننا أمة يحكمها الشاهات منذ آلاف السنين، ألا تتفقين معي؟ إننا بلد الملوك وتلك مسألة ما كان على مصدق المساس بها».

- «أتعتقدين أنه بإمكاننا فقط...».

- «مع كل احترامي يا خانم، لقد خدم الشاه صالح هذه البلاد كثيراً حتى إن رئيس الوزراء يجب أن يكون ممتناً للّه أن أنعم علينا بشاه مثله. إن الجحود لفضل الشاه علينا ينذر بخراب البلاد، ها أنا ذي أقولها».

أغمضت رويا عينيها وجنحت إلى الصمت.

وفي القاعة الموالية من الحمام، أخذت فتاة في عمرها تقشر جلدها بخرقة خشنة فأنشأت خلايا الجلد الميتة تتقشر من أطرافها كأنها فتات من ممحاة اشترتها من محل السيد فخري. شعرت بالارتياح لدى التخلص من السموم غير المرغوبة والضغوط المتراكمة

طوال الأسابيع الماضية، وكأنه وزر ينزاح وحمل يخف ثقله. لكن فجأة أخذت الفتاة تقول إن الروس هم أصدقاء إيران، وإن الأفضل لإيران أن تمشي على نهجهم وتتبع نظامهم السياسي الذي أنهى التفاوتات الطبقية، واستعباد الجماهير، وبقايا النظام الإقطاعي الذي سمم الشعب. كان على مصدق أن يجعل من إيران بلداً شيوعياً، أليس كذلك؟ واستمرت الفتاة في فرك جلد رويا بقوة قائلة إنها تعلم أنها تستطيع إخبارها بكل هذه الأمور دون خوف من الوقوع في المتاعب، ذلك أنها لا تبدو كجاسوسة وشاية تعمل لحساب الشاه. ولما انتهت، كان جلد رويا قد غدا ناعماً ووردياً، بينما تورعت رويا عن استعمال أي من ردود بابا المعهودة مما مضمونها أن مصدق يريد الديمقراطية لا الشيوعية.

وفي المحطة الأخيرة جاءت امرأة أكبر سناً من سابقتيها ومسّدت كل نقطة من جسمها بالصابون ثم غسلته بالماء الساخن. حمدت اللّه أن هذه المرأة كانت صموتاً، فلما انتهت من تنظيفها تمددت رويا بينما دهنت المرأة ساقيها وبطنها وذراعيها بزيت تفوح منه رائحة الياسمين، وكلما ضغطت المرأة على جسمها بيديها ازدادت يقظة وصحواً. لم يتبق الآن سوى ساعتين ونصف على لقائها بهمان، فكان كيانها برمته مفعماً بالحياة ولم تعد تطيق الانتظار.

مشت الهوينى إلى بيتها ولما دخلت صرخت فيها ماما: «لماذا خرجت بشعر مبلل، أتريدين أن تصابي بنزلة برد؟».

- «الجو حار جداً، كيف يمكن أن أصاب بنزلة برد في قيظ الصيف؟».

كان شعرها يقطر على ثيابها فتكونت بقعة وانتشرت حول كتفيها والحقيقة أنها برّدت عليها حرارة الجو.

قالت ماما بتعابير قلقة: «آمل أن تكون الأوضاع آمنة في الخارج اليوم».

وكانت رويا قد قررت بعد تأنٍّ طال أمده أن تخبر أهلها أن بهمان سيعود وأنهما اتفقا على اللقاء في الميدان، فقد حمل بابا هم سلامته في قلبه لأسابيع، ودعت ماما الله من أجل عودته بخرزات سبحتها كل ليلة، فكان من العدل إخبارهما أنه سالم معافى وأنه في طريق العودة.

- «لقد جئت لتوي من هناك يا ماما؛ الشوارع هادئة. الناس سمعوا كلام رئيس الوزراء، فلزموا منازلهم، ولربما الأجواء في الخارج آمنة اليوم أكثر من أي يوم آخر».

لم تبد ماما مقتنعة، لكن رويا ابتعدت قبل أن تفه بأي شيء آخر قائلة: «يجب أن أتهيأ».

دخلت غرفتها ووضعت مشابك الشعر في شعرها لتزيد من تموجاته، فقد توقفت عن تسريح شعرها في ضفيرتين قبل بضعة أسابيع، وما ألفت في ذلك غرابة وإنما تحرراً. دهنت رسغيها ورقبتها بماء الورد ولبست التنورة الزهرية التي انتقتها بعناية لتلبسها خصيصاً في هذا اليوم، ثم دست فيها بلوزتها ومررت أصابعها على الأزهار المطرزة التي تزين الياقة فتذكرت الأيام التي قضتها وزاري تطرزان تلك الأزهار الصغيرة وهما منكستان رأسيهما. أخرجت بعدها جوارب الركب البيض، تلك الجوارب التي حالفها النصر بالعثور عليها - بعدما طوفت في كل المتاجر الفاخرة في وسط

المدينة بحثاً عنها - في كشك في البازار القديم، عند رجل غزت التجاعيد جلده فقال لها بابتسامة من فمه الدرد: «من أمريكا! إنها من أمريكا يا خانم!».

كانت الجوارب البيض الناعمة مناسبة تماماً لهذا اليوم فلبستها.

جاءها صوت ماما من غرفة الجلوس تصيح: «رجاء كلي شيئاً قبل أن تخرجي!».

- «لست جائعة يا ماما!».

لقد كانت متحمسة ومتوترة بقدر لم تعد لديها الشهية للأكل.

عندما عادت إلى غرفة الجلوس، وجدت بابا وماما وزاري جالسين صفاً وكأنهم ينتظرونها لتفتيشها، أو لإيقافها.

نظرت إليها ماما وقد بدت أكثر قلقاً من أي وقت مضى: «هل أنت متأكدة أنك لا تريدين أكل شيء؟».

وسألتها زاري في ارتياب: «كيف عاد إلى المدينة هكذا فجأة؟».

ردّت رويا: «صدقاً أنا لست جائعة يا ماما جون».

سألت زاري مرة أخرى: «لماذا لم يطلب لقاءك هنا؟ أو في مكتبتكما التي تحبانها؟».

ماذا لو كانت أخبرتهم بكل شيء! أن بهمان كتب في رسالته الأخيرة أشياء أخرى غير طلبه اللقاء في ميدان سباه، طلب أن يقصدا مكتب المأذون الشرعي لتوثيق عقد قرانهما! بإمكان ماما تحضير حفل الزفاف - الذي سيقام في مستهل سبتمبر - كما تشاء، فيحضر الأقارب والأصحاب للاحتفال معهم. أما هي وبهمان فسيقضيان بضعة أسابيع بهيجة وهما زوج وزوجة في سر لذيذ. سيكون سراً حلواً بحق وخطيراً إلى حد أنها تكاد هي نفسها لا تصدق. لعل

اختياره وقع على ميدان سباه لأن الأخير قريب من مكتب المأذون وهكذا إن التقيا عند الزوال يكون لهما أن يذهبا بسرعة قبل ساعة قيلولة الغداء. ما كان بهمان ليعرّضها للخطر قط، ثم إنه كتب الرسالة قبل وقوع محاولة الانقلاب حتى. ولكن من يدري، لعل أحدهم كان يتعقبه. ربما لم يشأ أن يعرّض أسرتها للخطر من خلال القدوم إلى بيتها. ربما كان ميدان عام أأمن من البيت. والحقيقة أنها في تلك اللحظة كانت مستعدة للمشي على النار للقائه.

انتصب بابا واقفاً وانطلق إلى المشكاة فأخذ قبعته قائلاً: «سأذهب معك إلى الميدان، يجب ألا تذهبي وحدك. من يدري، قد تخرج مظاهرات اليوم أيضاً».

- «يجب ألا تخرج من الأساس»، قالت زاري.

- «كلا يا بابا جان! شكراً لك، ولكن ليس من الضروري ذهابك معي، فعلاً. شوارع المدينة آمنة سالمة اليوم. سأكون على ما يرام إن شاء الله».

حدق بابا في قبعته ثم فرك وجهه بتكرار كما لو أنه يحاول حل مسألة رياضية معقدة.

- «سأبلغه سلامكم!»، قالت رويا وقبلت وجن بابا وماما وزاري ثم خرجت مسرعة.

ولكن زاري أسرعت وراءها من الأندرون إلى الغرف الخارجية ومن ثم إلى الحديقة. «اسمعيني يا أختي. **أنا** آتية معك».

- «كفي عن السخافة!».

- «ولكن من الجنون أن تخرجي في ظل كل ما يجري من أحداث. ثم لماذا هذا الأسبوع من كل أيام الله! لقد حاولوا القيام

بانقلاب منذ ثلاثة أيام، فأي توقيت هذا اخترتماه! أمن قلة أيام الله يعني!».

صاحت رويا: «لقد تمّ إحباط الانقلاب ولم يستطيعوا الإطاحة برئيس الوزراء، إنه لا يزال في السلطة وكل شيء على ما يرام!».

- «تتكلمين **مثله** تماماً».

لوحت رويا لأختها قبل أن يبتلعها باب الحديقة.

لما خرجت إلى الزقاق، أخذ قلبها يخفق بشدة حتى تمنت ألا يتوقف قبل أن تصل إلى الميدان، أرادت أن تصل إليه بأقصى سرعة. لن يمسها شر بالتأكيد، وما قلق أسرتها إلا لخوف. وأختها الصغرى؟ ما الذي تعرفه عن الحب الحقيقي على كل حال؟ لم تفهم أن رويا كانت تستمدّ قوتها وتصميمها فقط من فكرة لقاء بهمان، وأنها من أجل لقائه مستعدة للمشي على النار.

كانت أعداد الناس في الشوارع أكبر مما كانت عليه في الصباح، ولكن هذه مسألة طبيعية، فالناس يخرجون لقضاء شؤونهم في المدينة على كل حال. ولا ضير في ذلك ما داموا لا يحتجون.

بدأ الأمر بالهتافات وصوت السلاسل والطرق. وفجأة اهتزت الأرض من تحتها، فالتفتت وإذا بها ترى جمهوراً مما سلمت أنه مئات من الرجال يقتربون من قاع الشارع المنحدر، يسيرون موكباً ويهتفون. ولما اقتربوا منها أكثر، عرفت أنهم يهتفون بكلام من الذي يقال في قاعات الزورخانة[1] حيث يمارس المصارعون تمارين اللياقة البدنية التقليدية وطقوس التدرب. كان بابا أحياناً يحاكي تلك العبارات مزاحاً إذا رفع ثقلاً أو زاول تمارين التمدد. كان الحشد

---

(1) تعني بالفارسية بيت القوة وهي صالة تدريب المصارعة الشعبية - المترجم.

مكوناً من المئات من رافعي الأثقال والرياضيين في أقمصتهم الضيقة؛ وكان منهم من يحمل فوق رؤوسهم قطع خشب وحديد مخروطية الشكل، بينما كان رجل له شارب وشعر يلمع زيتاً يقذف أوتاداً في الهواء كما يفعل الحاوي. وفي الأخير، سيطر ذلك الحشد الغريب على الشارع سيطرة كاملة حتى اضطرت السيارات إلى الانحراف عن طريقهم.

اندهشت رويا من رؤية جماعات صغيرة من الرجال والنساء تنضم إلى تلك المجموعة الأولى التي تكاد تكون فريقاً كوميدياً من رافعي أثقال ورياضيين وحواة، فلما ازداد حجم الحشد اكتست الهتافات كسوة السياسة.

«عاش الشاه!».

مشت رويا شمالاً وقلبها ينبض بقوة. مشت في نفس اتجاه الحشد الضخم، لأنها كانت تريد الوصول إلى ميدان سباه. **من دفع لهؤلاء الأوغاد للخروج اليوم؟** هكذا كان بابا سيقول لو أنه خرج معها. أي نكتة مجنونة هذه أيضاً؟ ربما كان بهمان يعلم بأمر محاولة متهورة من نوع ما نُظمت من شدة اليأس. كانت متلهفة لتجتمع به وتشاركه هذا العرض الذي رأته. سيضحكان منه معاً. بالتأكيد.

خرجت إلى طرف الحشد وظلت قريبة من مجموعة نساء كن اعتزلن الحشد فسمعت إحداهن تقول تهكماً: «هذا ما كان ينقصنا» فضحكت الأخريات وشعرت رويا بالارتياح لسماع مزاحهن.

لكن مع سيرهم نحو وسط المدينة، تسلل التوتر حتى إلى أحاديث النسوة المرحة. وما زاد من خوفها ربما كان حدسُ رويا نفسه. انضم المزيد من الرجال إلى الحشد، بعضهم يمسكون أيادي بعض.

«مرگ بر مصدق!».

توقفت رويا فجأة، إذ لم يكن الشعار الذي سمعته: «يا مصدق يا الموت»؛ وإنما: «الموت لمصدق». وما برحت المجموعات المعادية لمصدق تنكب للانضمام إلى الطاقم الأول الهجين من الرياضيين والحواة حتى ملأوا الشوارع والأرصفة بشكل كامل فأصبح من غير الممكن للمرء السير في الشارع دون أن يكون جزءاً من الغوغاء.

فكرت للحظات أن تتراجع، ولكنها أعرضت عن الفكرة وقالت لنفسها إنها ستكون على ما يرام. بهمان كان في انتظارها. وضعت قدماً أمام الأخرى وتقدمت، فما كان عليها إلا أن تكافح للوصول إلى الميدان.

حين وصلت أخيراً إلى ميدان سباه، وجدته يعج بأعداد كبيرة من المحتجين، فبدا تجمع الرياضيين صغيراً قياساً بهم. لم يكن لها أن تتقدم دون دفع الناس، فكان ذلك بمثابة صراع تخوضه لتصل إلى المكان في الوسط الذي اتفقت مع بهمان أن يلتقيا فيه. كان الجو حاراً، ولكن نسمة ريح هبت فألصقت تنورتها الزهرية بفخذيها. حدق فيها ثلاثة رجال بشهوانية وصفر أحدهم، فتذكرت البلطجية الذين ضربوا بهمان بالهراوة والسلسلة. احمرَّ وجهها فجرت تنورتها إلى الأسفل لتستر نفسها.

تعالت هتافات الوحدات المعادية لمصدق، فكرهت وجودها قربهم. كل ما أرادته هو أن يصل إليها بهمان فينتزعان بعضهما وينطلقان. حاولت أن تبقي تركيزها على شعورها عندما ستراه أخيراً، وتكون بقربه من جديد.

مرت عشرون دقيقة فازداد عدد المحتجين بالضعف تقريباً،

وكانت هتافاتهم عالية وعدوانية. تعرق إبطاها. لوت عنقها بحثاً عنه فلم تجده هناك. بالتأكيد، وكيف له أن يكون هناك، فذلك يقضي أن يسلك بالقوة من خلال هؤلاء الرعاع، وأن يشق طريقه بين المحتجين للوصول إليها. كان تأخره مبرراً، فلا أحد توقع هذه الفوضى. حفرت كلمات زاري في ذهنها: **لماذا هذا الأسبوع من كل أيام الله؟ لقد حاولوا القيام بانقلاب منذ ثلاثة أيام، فأي توقيت هذا اخترتماه!** ولكن إن كان رئيس الوزراء نجح في إخماد انقلاب قبل بضعة أيام فقط، فمن ذا الذي قد يجره جواد حمقه إلى إعادة الكرة بهذه السرعة؟

«الموت للشيوعيين!».

«الموت لمصدق!».

انكب الناس على الميدان أفواجاً، وسرعان ما صارت رائحة العرق والغضب الحادة، خانقة. لقد كان الحشد في مهمة؛ إذ لم يكن هدفهم التجمع هناك وحسب، بل كانوا يتحركون، كانوا يصيبون وجهة، ولم يكن الميدان هدفهم النهائي بطبيعة الحال. وإذ تصارع موجة من الغثيان، أدركت رويا أنهم يستهدفون منزل رئيس الوزراء، وظلت هتافاتهم المطالبة بزواله مستمرة. لو كان بهمان حضر هذا الحراك المناهض لمصدق لانفطر قلبه. ولكن أين هو؟

مر الوقت ولم يظهر أثر لبهمان. أحست بالعطش والوهن والدوار. التصقت بلوزتها بصدرها، وأخذ الميدان يتأرجح في عينيها. لقد كانت ماما على صواب؛ كان عليها أن تأكل، فالآن وقد صار الميدان مكتظاً بالناس من حولها، صارت بالكاد تقوى على الحراك. لقد باتت محاصرة.

أخيراً وصل رجال الشرطة يحملون السلاح، فتنفست رويا

الصعداء. الحمد لله! ولكن يا للمفاجأة، إنهم لم يحاولوا تفرقة الغوغاء حتى. لقد انضموا إليهم. نفدت طاقتها حين أدركت أن وحدات الشرطة إنما جاءت للانضمام إلى المظاهرة. لقد تحققت كل مخاوف بهمان إذاً. لقد تعاونت الشرطة مع المحتجين على مصدق لمحاولة تنفيذ انقلاب آخر، ليحاولوا الإطاحة برئيس الوزراء أخيراً؛ رئيس الوزراء الذي أحبه بهمان وبابا والكثير من الناس غيرهم؛ رئيس الوزراء الذي آمنوا أنه قائدهم الديمقراطي؛ والذي كان فيه من الشجاعة أن تحدى القوى الخارجية الطامعة في نفط إيران؛ رئيس الوزراء الذي انتخبه الناس على أمل أن يحقق لهم الديمقراطية. لو كان بهمان حضر هذا المشهد لانفجر حسرةً وقهراً. ولكن أين هو؟ دعت العلي القدير أن يكون بخير.

مضى الوقت، ولا أثر لبهمان. اضطرت لتتحرك من مكانها في الوسط، فلا يمكنها البقاء هناك مسيجة بالحشود. أرادت أن تخرج وتتجه إلى الطرف حيث قد تجد الأعداد أقل. ربما بهمان وصل لتوه وعلق هناك ولم يستطع الوصول إليها. أرادت أن تجد سبيلاً إلى الخارج لكن زحمة الناس حالت بينها وبين ذلك. استمرت تدفع وتصد وتتحرك شبراً شبراً ولكنها لم تكن تحرز أي تقدم ملحوظ فتغلغل فيها الهلع وأرادت أن تصرخ وتفر هاربة.

وفجأة أمسكها أحدهم من كتفها. «رويا!».

التفتت لترى من الذي نادها باسمها. كان شعره ملتصقاً برأسه بفعل العرق. كان يلهث وكان قلقاً جداً. تضببت الرؤية في عينيها ولكن لما صفت الصورة أمامها أدركت أن الرجل هو السيد فخري، وقد كان في عينيه يأساً لم تره رويا قط من قبل.

- «الحمد لله! سيد فخري! هل رأيت. . .».

- «رويا خانم، أرجوك اسمعيني. . .».

أمسك كتفيها بيديه وقد كان جامحاً بفعل عجلة أخافتها. هي لم تلتقِ به قط خارج مكتبته الجميلة والنظيفة، باستثناء ليلة حفل خطبتهما عندما شهد كلاهما على حال الانهيار المحزن التي كانت فيها السيدة أصلان. أما هنا، تحت هذه الشمس المستعرة ووسط هذه الحشود، فقد بدا متوحشاً تقريباً. بدا نسخة مجنونة للرجل الهادئ الذي سلم لها دواوين الشعر وساعدها في التواصل مع حبيبها الذي لم تكن تريد شيئاً الآن سوى رؤيته.

صاحت حتى يعلو صوتها صوت الضجيج: «يجب أن أجد بهمان».

- «رويا خانم، أرجوك أريدك أن تعرفي شيئاً. . .».

حالت طلقات الرصاص بين صوته ومسمعها وملأت الصيحات الجو. لسعت رائحة الكبريت أنفها، ورأت من رؤيتها المحيطية دبابتين في طرف الميدان. لم تصدق ما رأت. تخلصت من قبضة السيد فخري وانحرفت لتتضح لها الرؤية. يا للأوغاد! كان الجنود يقفون فوق الدبابات يصوبون رشاشاتهم وقد وقف إلى جانبهم أناس على الدبابات يلوحون بقطع من الورق ظهر أنها أوراق مالية.

هل دار جسدها على محوره ببطء أم بسرعة؟ هل أطالت التحديق في الجنود؟ ما الذي جعلها تتخلص من يديه وتلتفت لرؤية الجنود الشباب ذوي الزي الموحد الذين كانوا يقفون على الدبابات ومن حولهم الناس يلوحون بالأوراق المالية؟ لماذا أفلتت من قبضة السيد فخري؟ لماذا التفتت؟ لماذا ابتعدت عنه؟

أحست بشيء بقربها ينتقل ثم ينهار ويهوي أرضاً.

«سيد فخري!». كان الأخير مستلقياً على الأرض يتلوى والدم

ينتشر على صدره. قرفصت عليه ومسكت ذراعيه فصرخت: «لقد أصيب بالرصاص، أصيب بالرصاص!».

أتى بعض الناس وشكّلوا حلقة حولهما. كانت رويا ترى في ذهنها صورة فتاة تقرفص على رجل أصيب بالرصاص وسط الجموع، تقنع نفسها أن ذلك كان يحدث لفتاة أخرى، لا لها هي. لا يمكن أن تكون هي.

صراخات وتحذيرات وضجيج في كل مكان، وغديران من الدم ينبعان من عيني السيد فخري ويجريان على وجهه. لمست قميصه الغارق بالدماء وجذعه الدامي.

وفجأة نحاها أحدهم، فَعَلا رجلٌ جسدَ السيد فخري وطفق يضغط على صدره بكلتا يديه، بينما حام عليه نساء ورجال يستحثون ويحاولون مد يد العون. وفي خضم العجيج المستنسر - الذي كان عالياً أن ابتلع معه كل الضجيج وصار ما يشبه الصمت - لم تسمع إلا صوتاً واحداً واضحاً ونقياً: صوت تمزيق القماش. مد أحدهم قطعة قماش بلون الشمام لُفت على الجزء العلوي من صدر السيد فخري، ولكن ما لبث القماش أن صار أحمر.

أما السيد فخري فلم يتحرك فيه شيء إلا عيناه. وبالرغم من غديرَي الدم الجاريين منهما، نظر إلى الأعلى. ليس إليها ولا إلى الرجل المقرفص عليه الذي يحاول إنقاذ حياته، ليس إلى جمع الناس الذين يسندونه ويدعون لنجاته. كانت عيناه تنظران شِمال الميدان، إلى حيث مباني السفارات، حيث الشارع الذي فيه مكتبته.

نظرت رويا حيث نظر، فحسبت أن ما رأت إن هو إلا بفعل البارود أو أن رؤيتها مشوشة من الدموع، ولكنها خلت أنها رأت سحابة دخان تنبعث من تلك الجهة، وقبل أن تقطع اليقين بذلك، سقط

الرجل الذي كان يضغط صدر السيد فخري على صاحبه باكياً: «إنا لله وإنا إليه راجعون!» فأخذ أحد المسنين قربه يتأرجح ويتلو الدعاء.

بعد عدة دقائق، حمله بضعة رجال ورفعوه في الهواء ليحملوه فوق رؤوسهم.

هكذا، تركت رويا الحشود بمعية مجموعة صغيرة من الناس يحملون السيد فخري وصدره تلفه قطعة قماش بلون الشمام. فسح لهم الناس الطريق وهم في صدمة واجمون، تماماً كما كان يفعل أناسٌ لآخرين في بقعة أخرى من الميدان. وهكذا، فإنما ما بدأ كشيء من الدعابة، أو لعبة، أو عرض صاخب، أو عرض حواة، قد انتهى إلى هذا: إلى مظاهرة وأعمال شغب، فحضرت الشرطة والجيش، وانتهى ذلك بقتل صاحب المكتبة.

«خذوه إلى المستشفى! يجب أن تُوثَّق جرائم القتل هذه كلها»، صاحت امرأة إذا تبعت رويا الموكب الصغير خارج المظاهرة، تقول في ذهنها: تُوثَّق. تُوثَّق بقلم ودفتر. على ورق نظيف.

قاومت موجة غثيان.

أُطلقت صافرات الإنذار واندفعت الشرطة بين الناس، ولكن قلب الحشد اتجه شمالاً مهما كان من الفوضى.

لما خرجت مجموعتهم الصغيرة من الميدان واستدارت اتجاه المستشفى، توقفت رويا. كانت قد مدت الرجل الذي حاول إنقاذ حياة السيد فخري باسمه ومحل سكنه، بينما ألح عليها البقية أن ترجع إلى بيتها. قالوا لها إن المكان لا يناسب فتاة في سنها. **شكراً لك على المعلومات، سنحرص على أن نوثّقها بالشكل الصحيح، ونخطر ذويه. لا تقلقي. والآن يا ابنتي ارجعي إلى بيتك فليس هذا مكاناً للفتيات الصغيرات. ثم إنك شهدت ما يكفي.**

في طريقها إلى شارع تشرشل وجادة حافظ، ألفت حاويات القمامة المشتعلة متناثرة على جنبات الشوارع. وفي البنايات كان الزجاج الذي في نوافذ المكاتب مكسوراً وعلى الأرض تناثرت كسراته وعليها انعكس رعب مختلفة ألوانه. شعرت رويا بالاشمئزاز ولكنها حملت نفسها على قصد الناحية التي نظر إليها السيد فخري خلال الدقائق الأخيرة من حياته.

ولما وصلت إلى الشارع حيث تقع المكتبة، وجدت نوافذ السوق الصغير الذي يجاور المكتبة - حيث كان بائع الشمندر يفرش سجادته أحياناً لصلاة الظهر - وقد استحالت ثقوباً سوداء. كان سقف الكشك الذي يبيع الجرائد جوار المكتبة غارقاً في الدخان، وكانت البناية حيث توجد المكتبة ترقص بين ألسنة النار التي بدت بعلوٍّ تكاد منه تلتهم السماء.

وقفت رويا قبالة المحل وقد خدرها منظر النار. كانت ألسنة اللهب ترقص وترتفع أمامها وهي جامدة لا حراك فيها ولا طاقة ولا إحساس. لقد كان الأوان قد فات، ولم يعد ما يمكن عمله. سمعت صوت سيارة الإطفاء من بعيد. سيأتون، وسيحاولون. ولكن اللهب كان قد أكل الجدران والنوافذ والسقف وعوارض الدعم.

كانت صفحات الكتب المجعدة والمسخمة ترفرف خارج ألسنة اللهب فتطوف في الجو وتتوقف وهلة ثم إذا حطت على الأرض صارت رماداً أسود.

لعلها تنسى يوماً عجزها وهي واقفة هناك بينما الكلمات تحترق. لعلها تكون يوماً بعيدة عن هذا الهول. بيد أن رائحة الورق المتفحم لن تفارقها أبدا وستسكن جسمها دائماً. تذكرت وهي تقف أمام المحل المحترق الموقد التقليدي الذي يُستخدم قبل فاتح العام

الفارسي، وتذكرت كيف كانت تقفز فوق اللهب هي وزاري وهما تصيحان ابتهاجاً بوجهين متوردين من الحرارة وقلبين يقفزان فرحاً.

لا يلبث أن ينتهي كل شي؛ الكلمات التي أحبتها ودواوين الشعر التي حملت فيها رسائلها من وإلى بهمان، والدفاتر والمحابر وأقلام المداد وبرايات أقلام الرصاص. كل هذا صار رمداً بدداً. النشرات السياسية المخبأة في غرفة التخزين الخلفية والأقلام الملونة المحزومة بشريط في باقة، الملاذ برمته وما في باطنه من أسرار. راح. لقد راحت حياة السيد فخري في هسيس نار.

تساءلت إن كان الجرس الذي يعلو الباب سينجو من النار. إن هي وجدته وحملته وحركته، أتراه يرن؟

تجاوزت الباب إلى الفناء، مروراً ببركة الكوي، وصولاً إلى منزلها حيث الملاذ الآمن.

في الداخل، كان أفراد أسرتها لا يزالون يغطون في قيلولتهم. كان وعاء ماما الكبير في حوض المطبخ، ذلك الوعاء الذي تسكب فيه دائماً **الخورش** بالدجاج والبرقوق. كانت زاري مستلقية على السرير ملتحفة بغطائها القطني، وفي الغرفة المجاورة، كان بابا يشخر وماما ممددة بجانبه. كان شبشبها مرتباً بعناية على الأرض. كان الميع موجوداً، سالماً معافى. أسرتها لم يكن لهم خبر عما يجري في ميادين طهران، عن القوة التي شقت طريقها شمالاً، وعن خطر الحشود. لم يكن لهم خبر عن مصير السيد فخري. لم يستنشقوا الدخان من المكتبة المحترقة. تناولوا يخنة الدجاج والبرقوق مع الأرز وخلدوا إلى قيلولتهم كما لو أنه يوم كسائر

الأيام. وبهمان. لم تجده. هل حقاً ذهبت إلى الميدان وهي تتوقع أن تلقى بهمان مرتدياً قميصه الأبيض النقي وفي يده وردة، مستعد لأخذها إلى حيث يخلصان عقد زواجهما؟ لقد بدا لها الآن من المضحك أن تكون قد رجحت إمكانية حدوث تلك التوقعات.

علمت أسرتها عندما استيقظوا وشغّلوا المذياع أن الغوغاء شقّت سبيلها إلى منزل رئيس الوزراء مصدق. هناك تسلق الناس الجدران ودخلوا المنزل. ولكن مصدق تمكن من الفرار عبر النافذة وتسلق سلماً إلى دار جيرانه. عندما استيقظت أسرتها من قيلولة الظهر، وفتحت زراي عينيها وتمطت، وذهبت ماما إلى المطبخ لتعد الشاي في الساموفار، وشغّل بابا المذياع على الساعة الثانية بعد الزوال، عرفوا آنئذ أن المتآمرين الذين نفذوا الانقلاب قد استولوا عل محطة الإذاعة في شارع شميران وأن الحشود قد هاجموا منزل رئيس الوزراء فدمّروه ونهبوه، فقسماً أحرقوا وقسماً سلبوا.

هذه المرة، نجح الانقلاب. هذه المرة، تغير العالم إلى الأبد.

ولكن في البداية، وقبل استقاظ أسرتها، تجولت رويا في المنزل بجوارب الركبة. ووحدها بكت على السيد فخري وبكت على بهمان، وبكت على ما آلت إليه بلادها. حتى إنها لم تلحظ - وما كانت لتكترث أصلاً - أن جواربها البيضاء التي اشترتها بمناسبة لقاء بهمان من جديد كي يعقدا قرانهما ويصيرا زوجاً وزوجة، كانت ملطخة بالأحمر ومسودة من الدخان، ملطخة بدماء رجل مات عند قدميها وهي تحاول إيجاد الرجل الذي تحبه.

الفصل الثالث عشر

1953

مآل حلم

أحضرت لها زاري كوب شاي ساخن فيه سكر النبات. وسكر النبات هذا من الأشياء التي يُعتقد بقدرتها على شفاء معظم الأمراض كاضطراب المعدة، والزكام، وتقلصات الدورة الشهرية، وقد يشفي القلوب المنفطرة كذلك. جلست على طرف السرير ثم دست الكوب في يد رويا قائلة: «هاك اشربي».

أومأت رويا من ذقنها أنْ «لا»، لم تكن تريد لا الشاي ولا اهتمام زاري، بيد أن حتى تلك الحركة الصغيرة من ذقنها جعلتها تشعر كما لو أن رأسها سينفجر.

- «هيا انهضي. لقد قضيت النهار كله في السرير. اسمعيني، لقد كان يوم أمس أسوأ يوم في التاريخ للقاء أحدهم في ميدان وسط طهران، ولعله أضاع سبيله إليك. أنا متأكدة أنه على ما يرام. أما السيد فخري. . .». سكتت وأردفت في همس: «رحمه الله. لقد كان في. . . المكان الخطأ في الوقت الخطأ».

جلستا في صمت شعرت أنه امتد لساعات، فرويا لم تعد قادرة على الإحساس بالزمن. كسرت زاري ذلك الوجوم بقولها: «هي

اشربي»، فأخذت رويا الكوب على مضض وارتشفت منه وإذا بعصب يخفق فوق عينها اليمنى. هل يعلم بهمان بوفاة السيد فخري؟ أتراه ضالع في محاولة إحباط الانقلاب؟ أتراه في السجن الآن مع رهط من أنصار مصدق؟

- «لعل بهمان تعرض للاعتقال، أو ربما قُتِل هو الآخر»، قالت رويا.

- «لست على يقين من هذا».

كانت رويا قد اتصلت بهاتف منزله مراراً وتكراراً لكنها لم تجد رداً.

- «لا تؤاخذني يا أختي، ولكنه ربما لم يكن ينوي لقاءك من الأساس. أقصد، أين كان مختفياً خلال الأسابيع الماضية على كل حال؟ ثم من ذا الذي يكتب رسالة يقول فيها 'قابليني في ميدان وسط المدينة' في ظل كل هذه السخافات السياسية التي تجري؟ كنت أعلم أن تلك الفكرة غير سديدة، وقد أخبرتك بذلك».مكتبة سُر مَن قرأ

كل ما وسع رويا قوله هو: «وما كان ليدريه عندما كتب الرسالة أن محاولة انقلاب أخرى ستحدث؟ لم يكن يريد إلا لقائي».

- «لو كان مناضلاً، ولو كان شهماً صائناً حقاً، لكان له ما يكفي من الحكمة لتثنيه عن دعوة فتاة في السابعة عشرة من عمرها إلى الوقوف وسط ميدان في ظل أوضاع كهذه، حيث يتعرض الناس لإطلاق الرصاص! أكاد لا أصدق أن بابا أذن لك بالذهاب أصلاً! (ونظرت إلى يديها) يحاول بابا التصرف بعقلية حداثية وتقدمية ولكني أرى أنه يبالغ في ذلك أحياناً، فالنساء في حاجة للحماية أحياناً».

كانت رويا في أحلك حالها، بيد أن هذا لم يمنعها من إدراك أن زاري كانت تنطق بلسان الحزن على السيد فخري، وأنها تعبّر عن

ذلك الحزن بطريقتها الخاصة. ففسحت المجال لأختها لترغي وتزبد على بهمان وتقول إن أسوأ شيء في هذه الدنيا هو الوقوع في حب شخص مغرم بالسياسة.

انتظرت رويا أخباره طوال النهار، فطالت بها ساعاته ولم تنل من أخباره طرفاً. كل الذين سألتهم كانوا مفجوعين من الانقلاب الذي جرى، فلما تواصلت مع أصدقائه، أخبرها كل منهم بأمور مختلفة؛ فزملاؤه السابقون قالوا إنهم لم يلقوه ولكنهم استبعدوا ضلوعه في أي من الأحداث التي جرت في الشوارع؛ بينما أخبرها صديق آخر أنه قد يكون ذهب إلى أحد الميادين خلال الانقلاب فاعتُقل وأن عليهم البحث في السجون كلها للعثور عليه. أما جهانگير فلم يقل شيئاً غير السب واللعن، وقال أنْ ليس هناك أنبل من السيد فخري، وقال إنه يستغرب كيف طوعت أنفس الجنود لأصحابها أن يطلقوا الرصاص على العباد جزافاً، وأنه يتمنى أن يستمر بهمان فين النضال حتى يعود مصدق إلى الحكم. ألفت رويا نفسها عاجزة عن معرفة أيهم تصدق. لطالما سلمت أن أصدقاءه يشاطرونه مواقفه وأنهم ينصرونه، أما الآن وقد صبّ جهانگير جام غضبه على الشاه، فقد أصابتها ذرة من الشك. أوجست في نفسها ريبة من أنه ربما يزلها عن كشف ميول مناهِضة للشاه، فلربما كان جاسوساً هو الآخر. لقد كرهت فكرة أنها أصبحت تشك في الجميع، فحتى جهانگير لم تعد تثق فيه كل الثقة.

كانت إشاعة تورط عملاء أجانب في إسقاط رئيس الوزراء حديث الناس في البازارات والمقاهي حول فناجين الإسبريسو وفي

البيوت وفي كل مكان. أما زاري فلم تبرح موقفها من نظرية المؤامرة فتقول: **طيب، ماذا لو أنهم دفعوا لهم بالعملة الأجنبية؟ ماذا عن الإيرانيين؟ يوجد بيننا بلطجية متخاذلون على استعداد للنزول إلى الشوارع وترديد ما وجدوا من شعارات، وعلى استعداد لأخذ المال من الأمريكيين لقاء تنفيذ ما يريدون!**

كان النوم يجافي رويا، فإذا نفذت إليه كان نوماً متقطعاً ترى فيه أحلاماً واضحة ومفصلة.

وكانت ترى في الحلم الذي يطاردها غالباً أنها تدخل مكتبة السيد فخري فيرن الجرس الذي فوق الباب كما دأبه.

في الداخل، تفوح رائحة الحبر والكتب وتعانقها طراوة المكان المريحة والمألوفة. في البداية لم تر السيد فخري ثم ما هي إلا لحظات حتى يظهر لها خلف المنضدة وهو يكتب في دفتر الجرد وقلم المداد ينزلق عرض الورقة. بدا في مظهره الطبيعي: نظيفاً وهادئاً بنظارته المستوية على عينيه ولم يكن فيه شيء من تلك الحالة الجامحة التي ما فتئت تذكرها من ذلك اليوم الفاجع في الميدان. رفع بصره إليها وعبرت نظرة ذعر محياه لثوانٍ ثم أشرق وجهه بابتسامته المألوفة، ونطق بنبرته المهذبة التي اعتادتها منه وسألها عن حال أهلها وأختها، زاري خانم، وعن حال العائلة الكبرى، وسألها عن حال جيرانهم ودعا للجميع بالصحة وطول العمر وأضاف بضع عبارات تنضح لباقة.

- «هل سمعتَ شيئاً عن بهمان؟».
- «كلا يا رويا خانم».
- «إطلاقاً؟».
- «ولا كلمة».

- «ولكنه كان يعطيك رسائله إلى حدود بضعة أيام خلت، صحيح؟».

تنهد السيد فخري ورفع بصره إلى السقف قائلاً: «نصيحتي إليك يا صغيرتي هي أن تنسي أمر ذلك الشاب وتمضي في حياتك. تزوجي، وانجبي أطفالاً، واهتمي بصلاح أمرك».

خفق قلب رويا برهبة وقالت: «عذرك؟ الزواج هو ما أنا مقبلة عليه بالضبط، أنا مخطوبة له».

- «نعم، في الواقع، الخطوبات لا تنجح دائماً، ألا تعلمين ذلك؟». قال هذه الكلمات برقة كما لو أنها ستفطر قلبها لو قالها بلا مبالاة.

- «أريد أن أعرف إن كان على ما يرام، لم أجد خبراً عند كل من سألتهم فخلت أنك قد تكون سمعت شيئاً بما أنك...».

رفع السيد فخري يده قائلاً: «لا تعطينا الحياة دائماً ما نريد يا رويا خانم. الأمور لا تسري دائماً على النحو الذي خططنا له، لكن معشر الشباب يحسبون أن مآسي الدهر ورصاصاته ستخطئهم بشكل من الأشكال، وأنهم يستطيعون أن ينقذوا أنفسهم بالأمل الساذج والطاقة. يعتقدون - خطأً - أن الشباب والرغبة أو حتى الحب قد يفوق يد القدر (تنفس واسترسل). الحقيقة يا صغيرتي أن نص قدرك مدوّن على جبينك منذ يوم ولادتك. لا نستطيع رؤيته ولكنه مدوّن هناك على جبين كل منا. وإن الشباب الذين شغف الحب قلوبهم لا يعلمون شيئاً عن مدى بشاعة هذا العالم». ثم أراح يديه فوق سطح المنضدة وأردف: «إن هذا العالم لا يعرف من الرحمة نقيراً».

أحست رويا كأن أحدهم نقعها فجأة في ماء مثلج.

استرسل السيد فخري قائلاً: «تذكري هذا جيداً» ثم أطلق صفيراً خفيضاً ومزعجاً بين أسنانه وخلع نظارته، فرك عينيه، ثم أردف أخيراً: «وإني لا أحسبه أحبك يوماً، إنما كانت لعبة منه لعبها عليك».

ثم تستيقظ بعد ذلك واثبة والعرق البارد يبللها.

كانت **تحس**، حتى في يقظتها، بالسيد فخري في مكتبته يجرد مخزونه ويرتب ترجمات الكُتَّاب من جميع أنحاء العالم. كانت تستطيع رؤيته ينفض الغبار عن الطاولة التي يضع عليها دواوين الشعر، بما فيها تلك التي تبادلت فيها رسائلها مع بهمان.

لقد فتح لها السيد فخري عالماً من الفرص، ومنحها مكاناً فيه تحولت أحلامها إلى مسارات قابلة للحياة، ومكاناً تهرب إليه من صخب السياسة، وملاذاً تأمن فيه. مكاناً حيث وقعت في الحب.

كانت لم تزل تشعر بالرفوف توخز ظهرها لما كانت تستند إليها وبهمان يميل نحوها ليهمس في أذنها.

ولكن السيد فخري كان دائماً يقول لها في الحلم إن بهمان لا يحبها. يقول لها أن تبدأ فصلاً جديداً من حياتها، ولو أن هذا الفصل لم يزل فيه الكثير من الأسئلة المعلقة التي لم تلق لها جواباً.

لقد كان حليفاً لهما، ومرافقهما المحفز. كهل ينفض الغبار عن الكتب ويرتب الأدوات المدرسية في المكتبة، ويحدث الشباب ويساعدهم سراً في بلوغ الكتابات السياسية وفي تبادل رسائل الحب.

إلا أنه رحل. رحل، ولكن الرصاصة، ولله الحمد، كان من الممكن أن تصيبها هي. كان من الممكن جداً أن تصيبها هي. وإن ما حصل سيضل دائماً ملازماً لها، كالجرح الغائر، كالحقيقة الثابتة،

كالجمرات المهسهسة من بقايا المحل المغروسة في جسدها، كجسد السيد فخري الخفي المحمول فوق ذراعيها الممدودتين إلى الأبد.

والآن بعد أن رحل السيد فخري، باتت تفكر فيه أكثر من أي وقت مضى. أما آلامه التي حملها بداخله، فلم تعرف عنها شيئاً.

القسم الثاني

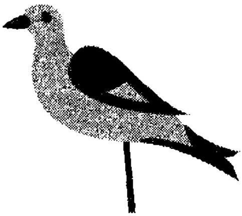

الفصل الرابع عشر

1916

ابنة بائع الشمام

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا الشاب، الذي يتسكع بين ضفاف الأزقة المتعرجة في البازار وسط المدينة، موعود بالزواج من إحدى قريباته التي اختيرت له منذ ولادته. لقد اختاروا له عطية زوجة. وعطية في اللسان الفارسي تعني «المستقبل»، بيد أنها ليست المستقبل الذي يريده. فهو مغرم بفتاة تعمل في البازار حيث تكدس حبات الشمام في صناديق كل صباح وتقف في غطرسة بجانب أبيها وهو يفاصل الزبائن. إن علياً عاجز عن درء تلك الفتاة الفقيرة من ذهنه، ويذهب إلى البازار لا لحاجة إلا لاستراق لمحة منها وهي تنزع البذر من الشمام. وسط صخب وفوضى المحلات، يراقب الفتاة ذات الخرقة الصغيرة على رأسها. فتاة رثة أسمالها، ولكن كأنها البدر في حسنها. إنها صغيرة السن، ربما صغيرة جداً، ولكنها فاتنة.

بسكين تبدو كالسيف، يزيل والد الفتاة الجزء الداخلي الرطب من الفاكهة بحرفية ثم يبيع الشرائح لزبائنه الظمأى. منهم من يشتري حبة شمام كاملة ويلقي بها في سلته، ومنهم من لا يطيق صبراً على حلاوة وبرودة قطع الشمام مع الثلج. والثلج لا يقل أهمية عن

الفاكهة نفسها، فبائع الشمام يجلب قطعة منه إلى البازار كل صباح وتتولى الفتاة حراسته بيقظة حيث تقف إلى جانبه ويداها على وركيها.

ترصف والدة علي الأفكار لعناصر سفرة عرسه قائلة:

- «لقد انتظرتها طويلاً حتى كَبُرَتْ، وها هي ذي قريبتك اليوم في السادسة عشرة يانعة، وحان لك قطافها. كنا نعلم منذ البداية أنكما لبعضكما».

سعادة أم علي لا توازيها سعادة. تؤكد على الخادمات أن يتحققن من وجود ما يكفي من القرفة لتزيين حلوى الشله زرد[1] ليوم العرس. «في نهاية الصيف سيقام حفل زفافك يا علي جان. أليست هذه أفضل هدية لعيد ميلادك الثامن عشر؟».

وعطية تلك في نظر علي أشبه بالزبادي السائل ولا يتخيلها إلا عديمة الطعم مثله. أما الفتاة الرثة أسمالها في البازار فتزوره في أحلامه وتطعمه شرائح الشمام.

في أحد أيام الجمعة، انطلق إلى البازار ليسترق النظر إليها كالعادة، فتوارى خلف عمود في كشك التوابل وراقب الفتاة وهي ترتب الشمام في أكوام هرمية الشكل ثم تقطع الفاكهة إلى شرائح غير متساوية.

ناداها رجل درد الفم أدهمت بشرته من فرط تعرضها للشمس المسفعة: «بدري، تعالي!». إنه والدها.

بدري، بدري، بدري. أخذ علي يردد اسمها بصوت خفيض

---

(1) نوع من تحلية الأرز بالحليب المصنوع مع الزعفران، يقدم في المناسبات وفي الأعياد - المترجم.

كما لو كان سينساه يوماً. كما لو أنه لن يتوجع لسنوات طويلة كلما سمع اسمها.

يتدافع المتسوقون ويتحاشدون، والنساء كل منهن في تشادرها يحملن السلل بداخلها البقل والباذنجان، والأطفال يبكون، والباعة المتجولون ينادون على سلعهم. **بدري، بدري، بدري**.

عليًّنا هذا ابن أحد علماء طهران الذين يحظون باحترام كبير، وسيرسله والده قريباً إلى مدينة قم لدراسة الدين وأمور الفقه. معنى ذلك أن هذه الفتاة لا ينبغي أن تحتل فكره، فهي تعمل مع والدها في السوق. إنها ابنة دهاتي[1]. إنها فتاة ليس لديها شيء، لا تفوق منزلتها منزلة الخادمة التي تغسل ثيابه.

أذن المؤذن لصلاة الظهر فترك الباعة حوانيتهم وأخذوا سجادات الصلاة فبدأ السوق يفرغ ممن فيه بانتظام. ترك الجميع البيع والشراء وذهبوا سعياً إلى ذكر الله. كانوا يخلفون أماكنهم وراء ظهورهم وينسلون فرادى إلى حيث باحة المسجد في نهاية السوق لكي يتوضؤوا استعداداً لصلاة الظهر.

تساءل إن كانت بدري من المصلين أيضاً، ثم ما لبث أن وخزته الخيبة وهو يراها تغادر الكشك. بالتأكيد ليس بمقدوره أن يتبعها إلى القسم المخصص للنساء في المسجد، وأقصى ما يمكنه هو أن يراها تخلع حذاءها لدى المدخل (ليس حذاء بالضبط إنما شبشب قماشي ممزق ورث) قبل أن يبتلعها قسم النساء إلى حيث لا يستطيع الوصل إليها.

---

(1) بالفارسية هي فلاح، وقد ينعت بها الشخص ممن قلت منزلته أو غير المتحضر - المترجم.

بعد أن غادرت، بقي علي وحيداً في البازار وأحس فجأة كما لو أنه عارٍ في موقعه ذاك قرب كشك التوابل، فقد كانت الحشود تشكّل درعاً يغطي نقطة مراقبته، أما الآن وقد انفضوا إلى سعيهم، فبات غير حصين وغير مرتاح.

وإذ هو كذلك سمع وقع خطى. صوت شبشب يطرق الأرض ببطء، فرفع بصره ورأى ما لم يكد يصدقه. عادت الفتاة. ظل يراقبها - متمنياً ألا تراه - وهي تحرك أشياء في الكشك الذي يبيع فيه والدها الشمام. حملت طشت قصدير كبير ورفعته إلى وركها بعدما بدت أنها تجاهد في حمله، ثم سرعان ما وازنته هناك على نحوٍ مثالي وغادرت.

لما تأكد علي أنها لا تستطيع رؤيته، تبعها. لقد وجد فيها جاذبية غريبة؛ ذلك أنها تتمتع بالثقة والسطوة رغم صغر سنها وفقرها.

لم تنعطف يميناً حيث المسجد بل انعطفت يساراً، وعلي يتبعها، ثم اتخذت طريقاً ضيقاً يقود إلى الناحية الخلفية من البازار إلى أن بلغت باحة مربعة تحفها الأشجار، تُستخدم كرصيف لتفريغ البضائع ورمي النفايات. لا بد أن هذا هو المكان الذي يضع فيه التجار أحمال حميرهم ويفتحون صناديق بضاعتهم. كان الرصيف مصفوفاً بحاويات كبيرة توضع فيها النفايات حيث تصير أكواماً، وكان الذباب يحوم في أسراب فوقها. شقت الفتاة طريقها بهدوء بين الحاويات كريهة الرائحة والمتخمة بالنفايات إلى أن وصلت إلى واحدة لم تكن ممتلئة كثيراً. كان طشت القصدير لا يزال متزناً على وركها وهي تمشي فتعجب علي من قدرتها على حمل الطشت الثقيل كما لو أنها فعلت ذلك طوال حياتها، ثم فكر ثانية وقال في نفسه

ربما هي حقاً فعلت ذلك طوال حياتها، ذلك أن هذه هي حياة هذا النوع من الناس. إنهم يعملون. يعملون الشاق من الأعمال، بمن فيهم النسوة، فهن يخرجن إلى العمل في الحقول والأسواق منذ نعومة أظفارهن. هن قويات وخشنات. فكر علي في عطية وفي بشرتها الثلجية. فكر في أصابعها الطويلة وشفتيها اللتين تبدوان شفافتين (لدى زواجهما سيعبر الأقارب المتحمسون عن فرحتهم المدعاة لرعايته هذا الجمال المثالي الذي هو عطية). لقد رأى عطية دون حجاب. كان ذلك في طفولتهما عندما كانوا يطلبون منهما أن يلعبا سوية، أما اليوم فوجه عطية محمي من الشمس دائماً مخافة أن تدهم أشعتها بشرتها وتفسد بياضها ونقاءها.

وقفت بدري على أطراف أصابع قدميها بجانب الحاوية ورفعت طشت القصدير إلى نقطة أعلى من وركها ثم وبحركة خاطفة قلبته وأفرغت محتواه بدقة وحرفية. سقطت قشور الشمام وبذوره الزلقة فملأت الهواء برائحة الشمام الحلوة. وصلت الرائحة إلى حنجرة علي حتى كاد يتذوق طعم الفاكهة الحلو في فمه، وكاد يحس بلحم الشمام الرطب بين أصابعه. هزّت بدري الطشت بضع مرات لتفرغه مما قد علق بقعره ثم التفتت.

- «لماذا تتبعني؟».

كان صوتها بالغاً وسلطوياً أكثر مما توقع، أضِفْ أنها خاطبته بضمير المخاطب المفرد وليس الجمع؛ وهو الأسلوب الذي ينبغي لفتاة من الطبقة الكادحة أن تخاطب به شاباً يبدو عليه أنه يفوقها منزلة. أيعقل أنها غير متعلمة إلى درجة لا تعلم غير ذلك الأسلوب في الكلام؟ لكن شيئاً في مظهرها المتغطرس أوحى بخلاف ذلك فهذه الفتاة يبدو عليها أنها تعلم ما تفعل.

- «تستطيع الكلام، أليس كذلك؟ أم أنت أخرس؟».

أعادت الطشت الفارغ حيث كان ووضعت يدها على وركها الأخرى. كانت تقف على قدميها وهما متباعدتان ومفتوحتان، وتلك وقفة ما كانت عطية والفتيات من طبقتها ليجرأن على فعلها قط في حضرة رجل غريب.

- «يا هذا! لقد سألتك، لماذا تتبعني؟».

- «أنا لا أتبعك».

رد علي في صوت كأنه همس. ها هي ذي مجرد ابنة بائع شمام، مجرد طفلة، بيد أن علياً لسبب ما يشعر بالضعف في ركبتيه. ها هي ذي بوجهها المدور، وعينيها اللتين تنظران إليه بكل جرأة، وبشفتيها كأنهما براعم الأزهار.

- «سأخبر أبي كي يقطع رقبتك! إياك والاقتراب مني. لا أكترث إن كنت رجلاً ذا أبهة أو أياً كنت. أعرف تصورات الرجال من طينتك بشأن الفتيات أمثالي. إن اقتربت مني فسأصرخ حتى تصم أذناك. سوف أضربك! ضرباً مبرحاً!».

ثم رفعت طشت القصدير بكلتا يديها فوق رأسها وقالت: «سأهشم رأسك بهذا الطشت. لقد ضقت ذرعاً بالرجال أمثالك. إنكم تحسبون أنكم تستطيعون نهش لحمي فقط لأنني فقيرة. كلا، لا تستطيعون ذلك. إن اقتربت مني فسيقطع بابا رقبتك بسكينه، فهمت؟».

لبث علي أخرس اللسان، ذلك أن لا أحد خاطبه بهذا الأسلوب من قبل. في المنزل، تجله والدته، وهو فيه شهريار زمانه. الخادمات لا يجرأن قط على مخاطبته بينما لا يُسمِعه الخدم الذكور إلا ما يحب، أما الشخص الوحيد الذي يصدقه القول ويصارحه فهو

والده. لم يسبق لأي فتاة أن خاطبته بهذا الشكل من قبل، فاختلط عليه شعوران واحد بالإعجاب من جرأتها وآخر بالإحراج. لا بد أنه بدا شاباً منحرفاً. ليس أكثر من ابن ناس مغفل يترصد لفلاحة.

- «كلا، كلا، أظنك مخطئة. أنا لست هنا للمعاكسة، رجاء لا أقصد إخافتك».

تغلغلت موجة من الحرارة في الهواء وأصبح كأن أحدهم رش كل ذرة غبار برائحة الشمام الخانقة. تقدم علي من الفتاة رغماً عنه. كان ينبغي له طمأنتها، وكان يريد أن يثبت لها أنها مخطئة. شعر بحاجة غريبة في إظهار أنه لم يأت من أجل تلك الأشياء التي في ذهنها إطلاقاً. وكلما دنا منها قويت الرائحة الحلوة في رئتيه. لا بد أن رائحة الشمام كانت متغلغلة في كل أهداب القماش الذي يغطي جسدها وكل خصلة شعر تطل من خرقة رأسها، ومن شرابات شبشبها الممزق حتى. لما دنا منها أكثر رأى في وجهها سمرة وعافية ملحوظة وكأنها تتلقى تغذية يستحيل على الفتيات اللاتي يعرفهن الحصول عليها؛ أولئك الفتيات اللاتي ينهاهن أمهاتهن عن التعرض للشمس واللاتي يتعلمن التطريز والقراءة والكتابة، فتيات من أسر ثرية يتدربن على ترتيب الأزهار بأناقة في المزهريات الكريستالية. أخذت بدري تحملق فيه وهو يدنو منها والطشت لا يزال فوق رأسها.

- «ضعي الطشت».

استرجع علي نبرة صوته الثابتة والهادئة التي يخاطب بها الخدم، النبرة التي اعتاد بها على إعطاء الأوامر فتطاع.

قالت بصوت مرتفع وقد تبددت منه الثقة: «سيذبحك بالسكين التي يقطع بها الشمام!».

بدت الآن أشبه بالشخص التي هي عليه فعلاً؛ فتاة صغيرة ومستضعفة، مهما حاولت إظهار الخشونة والصلابة. أصبح علي الآن منجذباً إليها أكثر من ذي قبل، منجذباً لوقفتها بقدمين متباعدتين ولحديثها الغليظ ولشفتيها المتوردتين ولوجهها القمري المدور الذي فيه رفعت ذقنها المرتعش. لقد أصبح منجذباً حتى لرائحة الشمام التي سترتبط بها إلى الأبد.

كرر علي بنبرة أكثر هدوءاً هذه المرة: «ضعي الطشت».

رمت الطشت فتنطط على الأرض المتسخة محدثاً صوتاً خفيفاً يكاد يكون مضحكاً. كان يجب أن يحط باصطدام صاخب، كان يجب أن يحدث صوتاً عالياً، بيد أن الطشت تنطط في صمت ونزل على بعد بضعة أقدام منهما واستوى هامداً على جنبه. بالتأكيد، لم يكن أحد ليسمعه من بعيد. أدرك علي أن للبنت سبباً للخوف، فالرصيف محفوف بالأشجار، وهي معه لا يراهما أحد ولا يعلم أحد أنهما هناك. فالجميع في الجامع يصلون ويرفعون أكفّهم قبالة وجوههم ويوشوشون الآيات.

ولكنه سيطمئنها مرة أخرى أنه لا يريد بها سوءاً، وسيؤكد لها أنه فقط. . . أنه يفعل فقط ماذا بالضبط؟ يتعقبها. بالتأكيد، لا يستطيع مقاومة جاذبيتها إلا أنه سيشرح لها ويطمئنها، فهي تحتاج أن تدرك أنه رجل محترم.

ارتبك علي وغضب لأن هذه الفتاة لها القدرة على إرباكه. فهي لا شيء. إنها دونه منزلة. سيخبرها أنه موعود بالسفر إلى قم لدراسة الفقه وعلم السلف بعد زواجه. . .

وإذ هو ينازع أمره كيف يصيغ كل هذا في كلام، أحس بنكهة الشمام الحلوة تغلفه. وهناك تحت شمس الظهر غشيت أبصاره لوهلة

وأحس كأنه يهذي. شيء لزق ودافئ نزل على خدّه، وبقي لمدة دقيقة لم يعرف ما ذاك. وما هي إلّا لحظات حتى أدرك أن البنت تقف بجانبه: لقد جاءت إليه وقبلته. ظلت واقفة هناك على أصابع قدميها لمدة بدت له نتفة من الزمن مستقلة عن سواها. شفتاها اللزقتان والدافئتان حطتا على وجهه لثوانٍ، ثوانٍ ستظل عالقة في ذاكرة علي إلى يوم يلقى ربه، لحظة محفوظة في كرة معزولة عن كل لحظات حياته، ما استدبر منها وما سيستقبل.

لما وقفت على كعبيها من جديد، ولم تعد شفتاها على وجهه، لبث علي متسمراً لا يتحرك. لقد شل. تحول. لقد حولته جرأة هذه الفتاة ولمستها الدافئة والمشتعلة - قبلتها - إلى أخرس جامد.

- «هاك! ها قد نلت ما تريد».

خرج صوتها رقيقاً هذه المرة. أما هو، فلم يجرؤ على النظر في عينيها.

- «أليس كذلك؟».

لمس دمغة القبلة ذات نكهة الشمام التي نزلت على خدّه ودون أن يفكر رفع أصابعه إلى أنفه. يستنشقها. لن ينسى أبداً ذلك الطعم، ولا حتى عندما يتزوج من عطية، ولا حتى عندما يصبح أباً لأربعة أولاد، ولا حتى عندما يقدّم أعمال السلف وأعمال الكُتَّاب الأجانب العظام للشباب الذين سيرتادون على مكتبته التي سيملكها في المستقبل. وأبوه، ما أشد خيبة أمله منه عندما سيختار هذا الدرب: «لديك الإمكانيات لتصبح عالِم دين، وأنت تريد أن تفتح **حانوتاً**؟ مثل **بازاري**؟ مثل بياع؟».

أردفت بدري إذ هو واقف في الشمس غير قادر على الحراك، خائف من رد الفعل على قبلتها، وقد بدا ذلك من الطريقة التي

يتنفس بها: «والآن، كما أخبرتك، إذا علم أبي بأنك حاولت تقبيلي، فسيقطع رقبتك بسكينه. يحسبها الناس سكيناً ولكنها سيف. إنها سيف جده الذي كان قاطع طريق وقتل رجالاً أزعجوه». سكتت وعيناها تحدجه، ثم أكملت: «بذلك السيف».

ما زال علي يقف في الشمس مرغماً نفسه على إبعاد ناظريه عنها.

- «نعم لقد قتلهم. فإذا علم بابا أنك تبعتني إلى هنا وراء البازار لتسرق قبلة. . .».

- «لم أفعل». تكلم علي أخيراً مقاطعاً ومواجهاً.

- «سينقض على رأسك ويقطعه. إنه يجيد استعمال سكينه. لا شك أنك رأيته يشرح الشمام. أو تحسب أني لا أراك تقف هناك يومياً، تترصدني في السوق؟ أليس لأمثالك مدرسة يذهبون إليها؟».

غمغم علي: «إنه الصيف».

عبرت تعابير الإحراج وجهها وقالت: «أنا أعلم أن المدارس تغلق أبوابها في الصيف! أم تحسبني أمية، وغرة؟ ألِأَنَّ أبي يبيع الشمام في السوق، بينما أبوك. . . ماذا يفعل؟ يسير البلاد؟ يختلس أموالنا؟ يدخن السيجار؟ لا أدري، ولكني أقول لك، لو علم بابا بهذا الأمر فسيذبحك».

أومأ علي.

- «والآن»، قالت وهي تقبل على الطشت ترفعه وتضعه على وركها من جديد، «إن أردت، فإنك تعلم أين تجدني. آتي دائماً إلى هنا لأفرغ القمامة عندما يذهب أبي ليصلّي الظهر».

همس علي: «معذرة؟».

- «الجميع يذهب إلى الصلاة أليس كذلك؟ ساعتها يكون الجو هادئاً هنا». ثم رفعت بصرها إلى السماء وتبسمت، «الجو هنا جميل وهادئ وآمن. فقط نحن والذباب».

- «الظهر؟».

- «نعم».

غرس مقدمة حذائه اللامع في التراب وقلبه ينبض بقوة، ثم لبث يراقبها وهي تمضي، والطشت يتنطط على وركها .

في لاحق الأيام، قرب حاويات القمامة، وتحت شمس الصيف، حدث بينهما ما لا ينبغي أن يحدث بين شاب غني ومتعلم وابنة بياع شمام في السوق. علقت حلاوة الشمام التي فيها بسرواله وبحلقه. لقد كانت في كل مكان معه وفيه.

وبينما كانت تجهيزات العرس تهيأ لعطية كقياس الفستان وخياطة الجواهر الصغيرة على حرف حجاب العروس، كان علي يشم رائحة بدري في الظهر قرب الحاويات. لقد تذوق منها أجزاء أخرى ما كان ينبغي له قط أن يطأها، ثم يمضي إلى بيته دائخاً مستنزَفاً.

ولكن متى تحولت نظرته إلى بدري من نظرة المشتهي إلى نظرة العاشق؟ هل عندما كانت صورها وحدها كل ما يحتكر باله قبل النوم؟ هل عندما كان يحس بالفراغ بل وبالغثيان لدى تفكيره في احتمال ألا يكون معها؟ متى توقف علي عن استنشاق رائحة فلاحة جميلة ذات أربعة عشر ربيعاً وبدأ يريدها أن تكون له؟ أن تكون له رسمياً، مهما يكن من سخافة الأمر، واستحالته. ذلك أن مثل هذه الأمور يجب ألا تحدث. يجب ألا تحدث أبداً. ليس عندما تكون

الحيوات مخططاً لها، ليس عندما تكون الأمهات قد رتبن أمورهن، ليس عندما تكون الأقدار مرسومة، ليس عندما يكون الشريك مؤاتياً بشكل مثالي. إن المستقبل مرتب ومحسوب ومخطط له بعناية: عطية كانت مستقبله، أما بدري فهي فتاة الشمام التي يلقاها قرب حاويات القمامة.

لم يخفق قلبه إلا لبدري. لقد سكنت روحه. ولم يزل يمشي في الأرض وفي نفسه رائحتها وطعمها. كان يريدها. يريدها. ورغم أنها سلمته نفسها بأعجوبة، مهما يكن في ذلك من حماقة ومخاطرة ولامبالاة، فلم يكتف. فما إن ذاق حتى طلب مزيدًا، فأعطته، وما إن أعطته مزيداً حتى طلب أكثر وأكثر، فأعطته أكثر فأكثر. وما إن نال أكثر وأكثر حتى داوم الطلب، فأصبحت تعطيه نفسها يومياً. وما إن حصل عليها يومياً حتى أرادها إلى الأبد. لقد كانت شهوته فيها لا تشبع إلى درجة أنه لم يعد يهتم إن كان ذلك شهوة أم حباً. لم يعد ثم تمييز. ليس لعلي. أرادها دائماً وكفى، كل الوقت، ولم يرغب أن يتخيل وقتاً ولا مستقبلاً لا تكون معه فيه.

والمخططات إنما توضع لأسباب محددة. إما مالية، وإما منطقية، وإما اجتماعية. ولقد سيّر والداه حياتهما بالعقل والسلطة والاهتمام. لقد كانت عطية مناسبة له، وقد أرادت كلتا الأسرتين ذلك الزواج. والرجال من طبقته يسلكون أفضل السبل فيزيدون ثروتهم ويتحلون بالمنطق. الرجال من طبقته لا يصبون إلى فتيات قذرات يعملن في البازار. وإن فعلوا، فإنما يأخذون نصيبهم، ويسرقون قبلهم ويتحسسون ويداعبون ثم يمضون في سبيلهم. دون ضرر يذكر.

إلا أن علياً لا يريد العروس البكر المتزينة التي اختارتها له أمه من يوم ولادته. منزل علي مليء بالكتب، وبلاطه مفروش من زرابي الفرس بأفضلها. فإن تزوج فلاحة دهاتية لكان ذلك مزحة في عين أهله. فعندما دخل على أبيه في مكتبه وقال له بكل جسارة إنه لا يريد أن يتزوج عطية، سأله أبوه ببرود: «ولماذا؟» بنبرة توحي أن مقال علي مثير للإزعاج. وعندما ذكر علي بعد تململ وتردد كبيرين، وبعد صعوبة، أن الأمر يتعلق بفتاة لطيفة وجميلة وحسناء وذات وجه كأنه البدر، تكلم والده وقد نفذ صبره قائلاً: «فمن تكون إذاً؟» وحين سمع منه أن الفتاة هي ابنة بائع الشمام، تجمدت ملامحه لوهلة ثم استغرق في موجة قهقهة مجلجلة مرفقة بسعال أدرك معها علي باشمئزاز متسلل أنها أعمق ضحكة سمعها من أبيه، فترك الغرفة وأبوه لم يزل يفرغ حلقه بضحكه.

سيتزوج عطية عند نهاية الصيف. ولكنه لم يزل يفكر في فتاة البازار: جمالها، ومشاكستها وكل شيء فيها. كان يطأ عطية، الفتاة التي تزوجها، وفي ذهنه رائحة الشمام المرتبط ببدري. فبعد عامٍ على زواجهما، ولد ولده الأول فأقيمت الاحتفالات في محيطهم، في الجزء من المدينة حيث دوائرهم الضيقة من الأغنياء. فرحت عطية بطفلهما الذي أعقبه سريعاً ثلاثة آخرون ولم يمت منهم أحد. وعجب الجميع من مباركة الله لعلي وعطية أن وهب جميع أولادهما الصحة والعافية. عانقت عطية عالم الأمومة وتدبير أمور البيت، فتطرز ثوب الكتان وتحيك سترات جميلة وتربي أطفالهما على البر والاحترام. تتجاهل عزلته وانغماسه في الكتب وتكتفي بجلب الشاي له في مكتبه ليلاً. ولا تتذمر عندما يصرف كل طاقته في فتح مكتبة، ولا تبدي إحراجها وخيبة أملها من اختياره أن يصبح تاجراً بدل

العالم الذي كان ينبغي له أن يكون، وتظل مخلصة له، وتكبر معه محافظة على جمالها وصفاء بشرتها التي وقتها من أشعة الشمس.

دائماً ما تأتيه فتاة الشمام في أحلامه شرسة مشاكسة؛ تقبله قرب الحاويات وراء البازار. يشم فيها رائحة حلوة ومنشية، فيستيقظ متحرقاً شهوة فيها. مرت عليه أعوام كلما نزل البازار بحث عنها. لا شك أنها تزوجت **دهاتياً** مثلها، لا شك أن لها اثني عشر ولداً الآن. وكان أحياناً يرى نسوة فقيرات يمشين في الشارع بضواحي المدينة يعضضن على تشادرهن المرقط بالأزهار ويحملن سلة خضر أو شبه لحم (إن كن محظوظات) فيبحث بينهن عن ابنة بائع الشمام التي صارت امرأة، لكنه لا يجدها.

عندما فتح المكتبة في زاوية جادة حافظ، كان بذلك من الرواد الذين لهم فضل السبق في استيراد الكتب الأجنبية، فالطلبة الشباب كانوا حينها مهووسين بالقراءة وبالروايات والقصص الأجنبية هوسهم بالأدب الفارسي القديم والمعاصر.

ذات يوم، وإذ علي فخري يخرج ترجمات فارسية طبعت حديثاً لمؤلفات دوستويفسكي وديكنز من صندوق ويرتبهم بحيث يجعل ظهورهم متناسقة، رن الجرس الذي يعلو الباب ودلف أحدهم إلى المحل، فملأت رائحة عطر نفيس المكان.

امرأة طويلة القامة أنيقة الهندام تتزيّا كما نجمات السينما الغربيات. الواضح أن هذه المرأة من النسوة اللاتي اعتنقن إصلاحات الشاه رضا فيما يخص ملابس النساء. فمن النساء من قاوم سياسة الشاه ورأى في مسألة خلع الحجاب صدمة أصولية؛ فكانت شرطة الشاه إذا جاءت تنزع الحجاب عن رؤوس النساء بالقوة لإرغامهن على التحضر تجد المتدينات منهن يقاومن. ومن النساء من

رحب بالطريقة الغربية الجديدة في التعري، والبادي أن هذه المرأة من أولئك اللاتي لا يشتقن للحجاب وزمانه. حتى إن وجنتيها كانتا مزينتين بالروج، وكان وجهها ناضراً كأنه البدر؛ بدر مدور جميل.

لبث علي مرتبكاً لوهلة، فقد كان يستبعد أن تكون المرأة التي أمامه هي ابنة بائع الشمام. هذه المرأة الواقفة أمامه لا يمكن أن تكون تلك البنت الفقيرة التي أفرغت قشور الشمام لوالدها عند حاويات القمامة.

- «صباح الخير يا علي آغا. ما أجمل مكتبتك». حيته بصوت واضح مليء بالثقة.

لبث علي فخري جامداً وراء المنضدة.

- «حسبتَ أنني لن أجدك؟ ليس بأمر صعب. لماذا هذا الرعب؟ هل حسبت أنك ستجدني أكد على الرصيف المقابل؟ أنا اليوم زوجة مهندس، ألم تكن تعرف؟ ولقد خصص لي زوجي وقتاً لتعليمي القراءة والكتابة، وها أنا اليوم في هذه المكتبة الرائعة!».

وقبل أن يستطيع الرد، رن الجرس من جديد ودخل ولد في الخامسة عشرة تقريباً. له وجنتان متوردتان وشعر أسود كثيف، وله عينان مفعمتان بهجةً وأملاً.

- «هذا ابني. ظننتُ أنك ستحب التعرف إليه فهو محب للمطالعة وقد جئت به إلى هنا لما تناهى إلي أنك تعرض أحدث الكتب وأفضلها. يقولون إنك بائع كتب متميّز».

بلع علي ريقه وحاول قول شيء. اقترب منه الولد وأومأ التحية ثم تبسم له فتفاجأ علي فخري من ثقته. «صباح الخير، أخبرتني أمي بالكثير عنك. قالت لي إنك تتوفر على مؤلفات لكُتّاب أمريكيين مثل هنري ديفد ثورو؟ وإني لأحب قراءة مثل هذه الكتب».

أدارت أمه عينيها لدى كلماته قائلة: «دائماً السياسة والفلسفة! لا أفتأ أقول له إن مستقبل هذه البلاد مع النفط. أقول له أن يجد في دراسته، وأن يدرس الاقتصاد والمالية. أن يعمل شيئاً نافعاً! ولكن ماذا يمكننا فعله؟». داعبت رأس الفتى بشيء من الإحباط وشيء من الفخر ثم دفعت رأسه بتؤدة فتذلل الفتى واسترسلت هي: «السياسة، السياسة! يا لهذا الجيل! إنه يريد الكتب المعقدة يا علي آغا».

كان أسلوبها في الكلام متصنِّعاً قليلاً، إذ كانت تتكلم بنبرة متكلفة، نبرة المرأة التي بدل الله فقرها غنى. التقت نظرتها بنظرته لنحو دقيقة شعر فيها علي بالوهن في جسده. إنه أب لأربعة أولاد أصحاء، والناس يقولون إن زوجته، عطية، امرأة رائعة، ملاك بحق. ولقد فتح مكتبة لبيع الكتب والقرطاسية، وهي تحظى بالاحترام في المدينة لما لها من فضل على الطبقة المثقفة. ولقد أرشد الطلاب الشباب إلى ما يلائمهم من الفكر على الرفوف. ولقد استورد الكتب والمنتجات من كل أنحاء العالم، وهو ناجح ويحظى بإعجاب الناس، ولو أن والده ما زال خائب العشم فيه لأنه لم يصبح عالم دين. ولذا فإن ابنة بائع الشمام لا تستحق اهتمامه ولا تفكيره ولا طاقته. وحتى إن هبنا أنها قبل سنوات كانت جريئة ومندفعة معه في البازار، فإنه اليوم رجل فوق كل هذه الاعتبارات.

ومع ذلك، فإن علياً لا يجد، وهي تقف أمامه، إلا أن يتذكر تلك القبلات الحلوة واللزقة التي سرقاها بين الأشجار. لا يجد إلا أن يتذكر كل التفاصيل. يتذكر يوم كانت ملك يديه. يتذكر بشرتها الناعمة للغاية وضحكتها الواثقة. يتذكر يوم وعدها ألا يتزوج غيرها، ويوم انتحبت نحيب المنفطر قلبه لما أخبرها بموقف والده من زواجهما وشرح لها أن الأمر مستحيل.

لقد ظلت في فكره لسنوات. والآن يشعر علي وهي تحدق فيه أن لا شيء يهمه، حتى وإن طارت أوراق كل كتبه التي نسقها بعناية داخل جنة الأرض هذه وطفت كقصاصات الورق في السماء فلن يكترث. فعندما تقف أمامه تغزوه الرغبة فيها من جديد. ويتيه في هواها من جديد. لاحظ أن صوتها لم يتبدل، بل ظل كما كان دائماً: صوت بالغ واثق لا يناسب فتاة صغيرة. أما اليوم فقد صارت في عمر صوتها.

خلف حاويات القمامة في البازار فعل معها أشياء ما كان ليجرؤ على فعلها مع فتاة من طبقته. فما كان ليجرد فتاة من شرفها إن كانت من عائلة محترمة. أما معها فقد غلبت عليه رغبات المراهقة. وهي لم تقاوم، بل فاجأته. لقد وعدها بالزواج، وقد كان يقصد ما يقول فعلاً. وكان جزء منه يتمنى أن يحدث ذلك، رغم أنه كان يعلم أنه أمر مستحيل بالتأكيد. لم يكن يريد عطية، بل كان يريدها هي. أيعقل أن خيارات والديه كانت قابلة للتفاوض؟ كلا، بالتأكيد لا. فبنتٌ كانت تساعد والدها في بيع الشمام بالبازار لم تكن تصلح للزواج، ولم يكن له قط أن يلد معها أولاداً.

قالت بدري بنبرة التوكيد: «زوجي مهندس. إنه من آل أصلان، وهم من أصفهان. لعلك سمعت بهم؟ إنهم من أرقى الطبقات. نسل الملوك. مر على زواجنا أكثر من خمسة وعشرين عاماً. آه، لقد كان عرساً بديعاً. والآن، كما أسلفت لك، ابني هذا يحب القراءة، وأنت خير العارفين. يا لهؤلاء الطلبة المتفوقين، يريدون أحدث كتب الفلسفة. ففي الجزء من المدينة حيث نسكن...».

ألقت له باسم الشارع حيث يسكنون. إنه في حي قريب يقع إلى الشمال من المدينة حيث انتقلت الطبقة حديثة الثراء، البورجوازية

الجديدة، التي بنت منازلَ كبيرة وأثثتها بالأثاث الحديث والفاخر وبستائر الدانتيل وبالصحون المزينة بالذهب. تباهت بمحل سكنها ولدغته بأخبار زوجها المهندس ودفعت إليه ابنها الوسيم والمهذب. أما هو فاحتفظ باسم الشارع في ذاكرته لأنه يعلم أنه سوف يعجز عن كبح رغبته في المرور بذلك الشارع بحثاً عن منزلها وعن نافذتها وعن ظلها.

- «أريدك أن توري ابني الفلاسفة الشجعان. يريد أن يتعلم من الرجال أُولي الجسارة، من أولئك الذين يصنعون مصائرهم بأيديهم. أولئك هم الرجال الحقيقيون. وليس الذين يتبعون قواعد من الأزمنة الغابرة عن الطبقات والزواج، ألا تتفق؟».

استقبل كلماتها كمن رشق بسهم. وبعد هذا الكلام ثبتت عينيها في عينيه لدقيقة إضافية دون أن ترمش.

نعم. لقد أذعن. لقد سلم لطلب أهله. فلو أنه تزوج ابنة **دهاتي** لكان فعل أمراً سخيفاً، أقرب إلى الطرفة. ثم إن الناس من طبقته لم يعتادوا على فعل ذلك. لم يكن شيئاً يُفعل. وإنه لمن التفاهة منها أن تتعامل مع الأمر بمرارة.

سيأخذ علي الفتى إلى رواق الفلسفة. سيعرض له أحدث طبعة من كتاب **ولدن** لهنري ديفد ثورو، وهي ترجمة فارسية حديثة. سيطوف بالفتى بين العظماء الذين يرقدون بين رفوفه ويساعد عقله الصغير على الاكتشاف والنمو. فكم من الطلبة ساعد في هذه المكتبة نفسها؟ أليس هو موسوعة المدينة؟ الكتبي المرجع غزير المعرفة وواسع الخبرة في الأدب والفلسفة والشعر؟ هذا عمله، هذا ما يجيد فعله. سيأخذ يد الفتى ويساعده. سيعوض به أمه. سيرعى الفتى عسى أن تسامحه بدري.

سيفعل أي شيء لتسامحه بدري.

وقفت ساكنة تتحداه وتضايقه بلباسها الضيق ويدها على وركها وروجها على وجنتيها. كيف تجرؤ؟ ما هي إلا ابنة بائع شمام قادتها عجائب الأقدار إلى زوج مهندس، وها هي تمارس كل السلوكيات التي يكرهها علي فخري عند البورجوازية الجديدة.

- «أعرف ذلك الشارع جيداً، فأنا أذهب إلى هناك أحياناً».

- «منزلنا هو الذي في آخر الشارع حيث شجرة القيقب الكبيرة أمام الباب. يا لجمال المنظر المطل على جبال ألبرز من هناك! والآن يا بهمان جان (التفتت إلى ابنها ودفعته تجاه السيد فخري) بهمان جان، اذهب لترى ما يمكنك أن تجد في تلك الكتب».

أخذ علي فخري بهمان الصغير إلى الركن الذي يحوي كتب الفلسفة وعرض له محتويات تشكيلته بينما تنفث بدري شعرها. سيُعلِّم هذا الفتى مما علمه الله، وسيريه مما تعلم، وسيرشده إلى حيث يشتهي قلبه وإلى حيث قدره، مهما يكن. وهذا أقل ما يمكنه فعله.

الفصل الخامس عشر

1953

قدر مدوّن على الجبين

عادت زاري إلى المنزل وفي يدها ظرف قائلة: «وجدته في البريد اليوم».

شعرت رويا بقلبها يقفز من صدرها فانطلقت إلى زاري وقبضت على الظرف. إنه خطه! انهال عليها وابل من الأسئلة: هل ستعلم أخيراً سبب تخلفه عن الحضور إلى الميدان؟ هل هو على ما يرام؟ أين كان مختفياً طوال هذه المدة؟ لقد عانت من لوعة فراقه مدة طويلة وكل مناها اليوم معرفة أخباره لتعلم إن كان سالماً معافى. أمسكت الظرف بكل قوتها وشعرت بالهذيان لمجرد رؤية خط يده من جديد. أخرجت من الظرف ورقة الرسالة التي كانت تعرفها جيداً وأخذت تقرأ ما سيغير حياتها:

رويا خانم،

عساك وأسرتك بخير وعافية. أرجو المعذرة على الفزع والحزن اللذين سببتهما لكم. أعلم أننا تكلمنا عن الزواج وكل ذلك، ولكن اعلمي عفاك الله أن ما أوليه

الولوية حالياً هو خدمة هذه الأمة، وذلك أمر لن أقصر فيه من جهدي شيئاً حتى أتممه. أرجو المعذرة إن كنت أوهمتك بكلام الحب، وإن كنت جعلتك تظنين أننا سنحظى بفرصة لنكمل حياتنا معاً. فقد كنتُ مخطئاً - وما أدرك ذلك إلا الآن. لقد كان بيننا حب لأن كان لدينا أمل في مستقبل جيد معاً. ولكننا كنا ساذجَين. لقد كنتُ ساذجاً، فأنا لست مستعداً، وقد اندفعنا في أمرنا وفيه كنا عجولين. إني في حاجة إلى الوقت وفي حاجة إلى بعض الاختلاء فأرجو ألا تتصلي بي. في الحقيقة ذلك أمر خطير، إذ ستعرضينني به للأذية. يجب أن أمضي في القضية بالكتمان. يجب أن أساعد الجبهة الوطنية. لقد ألهاني عشق المراهقة خلال الصيف، والآن ثمة أمور أعظم وأدهى تنتظرني ويجب عليك أن تثقي في هذا. أنت فتاة ذكية وجميلة وسيطلب ودك الكثيرون. أتمنى لك مستقبلاً مزدهراً وأتمنى لك دوام الفرح والعافية.

مع صدقي ومودتي،
بهمان

ارتعدت أصابعها. لقد كانت الرسالة مدبجة بخط يد بهمان، وعلى نفس نوع الورق الذي كتب عليه كل رسائله السابقة. بيد أن كلمات هذه الرسالة كانت قذرة وما كان بهمان ليكتب مثلها.

وضعت الرسالة ولسان حالها يقول ما هذا الهراء، فلم تستطع الخروج منها بمدلول معقول.

- «زاري، أين وجدت هذه؟».

- «لقد أخبرتك أنها جاءت عبر البريد».

- «ولكنه لا يستعمل البريد مطلقاً، فكل رسائله وصلتني من خلال المكتبة».

شبكت زاري ذراعيها وحدقت فيها ثم قالت: «وكيف له أن يفعل ذلك الآن؟».

- «ولكن هذه الرسالة مجرد هراء في هراء، ثم إن كان لها أن تصل اليوم فهذا يستلزم أن يكون قد بعث بها قبل بضعة أيام، أي قبل الانقلاب وقبل دمار المكتبة...».

- «وهل كان في رسائله غير الهراء يا أختي؟».

- «قرأتها إذاً؟».

احمر وجه زاري ونفت نفياً باتاً وبنبرة عالية: «كلا لم أفعل!» ثم أردفت سائلة: «خبريني إذاً يا أختي، ماذا يقول في ما فعله؟».

هزت رويا رأسها وقالت: «لا يأتي قط على ذكر سبب تخلفه عن الحضور إلى الميدان. إطلاقاً».

- «حسنٌ، بما أن الرسالة قد وصلت اليوم، فهذا يعني أنها بعثت قبل يوم لقائكما المفترض، أليس كذلك؟ فكيف له أن يشرح فيها سبب تخلفه إذاً؟».

كانت رويا تدرك أن زاري على صواب رغم أنها تألمت من مسألة تلك الرسالة الفظيعة التي لم تذكر حتى أين كان في الوقت الذي كان يفترض بهما أن يلتقيا في الميدان. استسلمت وأظهرت لأختها رسالة بهمان، ذلك أنها كانت تريد تأكيداً على أنها لم تكن سوى مزحة.

قرأت زاري الرسالة في عجل ثم استعادت أنفاسها وقالت: «يا للثعبان! لقد أخبرتك أنه ثعبان. يا له من قرد سياسي!».

- «ما كان بهمان ليكتب شيئاً كهذا».

- «أختي، إنه سياسي - وأولئك أناس مجانين، وها هو يفصح لك باللسان الفارسي المبين عن حقيقته. لماذا لا تستطيعين تصديق ذلك؟». مكتبة سُر مَن قرأ

قضت رويا ليلتها تتقلب في الفراش وتقول في خلدها إن بهمان لا مناص كتب ما كتب تحت الإكراه، ثم عندما غفتْ أخيراً رأت في أحلامها أن بهمان كان معتقلاً في مكان ما وأن حراساً يجرّونه من شعره ويرغمونه على كتابة تلك الكلمات الفارغة من المنطق والإحساس.

- «إنه من أجلك يا رويا».

ذهبت إلى غرفة الجلوس فمدت إليها ماما سماعة الهاتف وهمست لها في قلق: «إنها أم بهمان».

صُعقت مما سمعت حتى إنها بالكاد استطاعت حمل السماعة السوداء الثقيلة إلى أذنها. «سلام أصلان خانم».

- «رويا؟».

تمنت ألا تُسمع دقات قلبها القوية عبر الهاتف ثم، وتماشياً مع ما يوجبه العرف والطاعة والعادات الاجتماعية التي تقضي بوجوب احترام المرء لمن يكبره سناً، قالت: «كيف حالك يا أصلان خانم؟ لقد سرني كثيراً سماع صوتك».

تكلمت السيدة أصلان بوتيرة سريعة دون راحة ولا استراحة: «عزيزتي، أريد أن أخبرك بأمر ما. إنه خبر صعب. بالمناسبة، لقد عاد بهمان ونحن جميعاً في الشمال...».

قالت رويا وهي مشوشة الذهن: «هل هو بخير؟».

- «بخير وعافية. على كل حال، لا داعي للخوض في التفاصيل. أنا لا أريد أن أثير قلقك أو أظللك. الحقيقة يا رويا جان أن بهمان كان على خير ما يرام طوال المدة المنصرمة. فلدينا فيلا هناك في الشمال كما تعلمين ويعلم الجميع. تعلمين أننا نحب ذلك المنزل على الشاطئ. لقد كان معنا هناك، والآن قد عاد. الحقيقة يا رويا جان، الحقيقة هي أنني اتصلت بك لأنني... لا أدري كيف أبلغك هذا. على أي حال، العرس بعد شهرين. بهمان سيتزوج».

لم تدر رويا إن كانت سمعت السيدة أصلان جيداً.

- «عزيزتي، إني أعلم مدى صعوبة الأمر عليك. بالتأكيد سيكون صعباً. لا حول ولا قوة إلا بالله، لم أستطع إخبار أمك، سامحيني! أمك المسكينة التي لم نر منها إلا اللطف. إنكم أناس طيبون، وأرجو ألا يُؤخذ ما حصل بتأويل خاطئ. إنكم أناس طيبون ووالدك رجل محترم ولا دخل لوظيفته الحكومية في الأمر، وبهمان يتفهم حاجة والدك إلى العمل لحساب الشاه رغم كل ما جرى».

- «عفواً؟».

- «أما من جهتي، يا عزيزتي، أقول إن هذه الأشياء صعبة - لا تفهمني خطأ. كلنا مررنا بأنفاق حب الشباب، وأستطيع أن أؤكد لك شخصياً أنني أعرف لفاته ودورانه وتقلباته». سكتت ثم قالت: «وخساراته. والآن أرجو المعذرة على هذا القول الثقيل، ولكن

بهمان سعيد الآن يا رويا جان. أنت تفهمينني. وأنت ما زلت شابة. هكذا هي الحياة. أقدارنا ليست في أيدينا، ولا يمكننا أن نغير منها شيئاً. ولسوف تحظين بحياة ناجحة بإذن الله».

لم تستطع رويا صياغة الكلمات. أحست بيديها تتندى عرقاً وبالسماعة تفلت من أصابعها.

- «ينبغي لي الذهاب الآن. تنتظرني الكثير من الأمور ينبغي لي التخطيط لها! أعلم يقيناً أنك تتفهمين عدم دعوتك وأسرتك لحضور حفل الزفاف. أما بهمان فسعيد ومعافى، وعسى أن تكوني أنت كذلك يا بنيتي. حفظكِ الله ورعاكِ».

بقيت رويا جالسة على الأرض دهراً بعد المكالمة تنظر إلى الجدار. جاءت والدتها وأثارت عليها هرجاً وقالت كلمات لم تسمعها رويا. لا شك أن وقتاً طويلاً مر عليها وهي على وضعها ذاك، فقد عاد بابا من العمل وكان يكلمها ولكنها كانت ترى شفتيه تتحركان ولا تسمع شيئاً. وحده صوت زاري المجلجل استطاع في الأخير اختراق ذهولها فسمعت أختها تقول: «لقد أخبرتك بهذا»، و«ابن الكلب»، و«يا له من معتوه كذاب».

جرّت زاري أختها إلى السرير ووضعت خرقة مبللة على جبينها. كانت رويا تسمع بين الفينة والأخرى عبارات مثل «رجل خوار» و«أم حمقاء» ولكنها كانت تحت الماء، كان كل شيء من حولها يحدث ولا يحدث. ظلت كلمات السيدة أصلان ترن في أذنيها بصوتها الغليظ الصريح. كان في فيلا صيفية طوال هذا الوقت؟ وكيف لها أن تخبرها أن بهمان مقبل على الزواج هكذا وكأنها تدردش في ثمن الخيار أو المطر القادم أو مسألة عادية؟

لم ترتّب زاري شعرها في قصاصات الجرائد تلك الليلة، وبقيت تردّد كم كانت تكره ذلك الكلب الكذاب، بهمان أصلان، وأمه الانتهازية المجنونة العابدة للمال.

فقالت لها رويا إذ يغلفها العار ويسحق الحزن قلبها: «كنتِ على حق يا أختي».

الفصل السادس عشر

1954-1953

رائدتان

«سيُقبَل ترشحكما إن شاء الله، قال بابا على مائدة الإفطار. «إلى متى يطيق أب رؤية طفلته مفطورة القلب؟ لا يمكن لك الجلوس مكتوفة الأيدي هكذا يا رويا جون. وأنت كذلك يا زاري. كلتاكما. . . لقد فقدت بلادنا الأمل والشباب. . . ولا حاجة لخسارة مستقبلكما أيضاً. وما كنتُ أنا لأسمح بذلك. لقد رزقنا المولى العزيز هاتين البنتين الجميلتين والذكيتين المفعمتين بالآمال، أليس كذلك يا منيجه جون؟ لم يرزقنا سواهما. لم يكن من نصيبنا أن نرزق بمزيد من الأطفال. وكذلك لم يكتب الله لبلادنا الديمقراطية، فما السبب يا ترى؟ لم نطلب إلا أن يكون لنا رأي، أن يكون للشعب رأي، صحيح يا منيجه جون؟».

شبكت ماما ذراعيها ورمت ببصرها خارج النافذة.

- «مهما حصل من انفطار قلب وتنحية مصدق وهلك من هلك، ينبغي لنا المضي قدماً، أليس كذلك؟».

كان بابا قد ألح على رويا بدراسة الإنجليزية حتى يتسنى لها الترشح لإحدى الجامعات الأمريكية. وكذلك الشأن لزاري، اقترح

عليها تعلم الإنجليزية أيضاً. تمنعت رويا في البداية لكنها وافقت على كلام أبيها فغدا أمر الإنجليزية منفذاً لها من غصة قلبها وحزنها.

- «هذه فرصة غير مسبوقة!»، تابع بابا.

قالت ماما وقد بدت على وشك البكاء: «إن مجرد التفكير في هذه الأمور مستحيل. فتاتان تسافران إلى الخارج للدراسة؟ كيف يعقل؟ أعرف فتياناً سافروا إلى الخارج؛ فتيان أغنياء، من عائلات ثرية. أما نحن... فما نحن إلا أسرة متوسطة الحال. ماذا سنفعل من دونهما؟».

- «إننا نعيش في العصر الحديث يا منيجه، حيث يمكن للنساء الدراسة في الخارج مثل الرجال تماماً. هذا ما يفعله الأوروبيون وكذلك الأمريكيون. فما يمنعنا نحن من ذلك؟ هل نحن متخلفون؟ كلا والله. ثم لماذا يكون الأمر حكراً على بنات الأغنياء؟ أعرف برنامجاً خاصاً أعلن عنه مؤخراً، كما أن مديري أبدى استعداده لمساعدتي. لقد سبق له أن ساعد الكثيرين، وابنه كذلك استفاد من هذا البرنامج. ستكونان رائدتين أيتها البنتان! فكرا فيما سيعنيه الأمر لكما. يا لها من فرصة! فرصة غير مسبوقة. عندما كنت أنا وأمكما في سنكما، أتدريان ما كنا سنقول لو قيل لنا إن فتيات إيرانيات يمكنهن السفر للدراسة في جامات أمريكية؟».

- «أن بهن مسّاً من الجنون»، همهمت ماما.

- «نعم! أقصد، لا. كان ليعترينا الذهول. والفخر».

تنهدت زاري وجاءت كازب فأخذت بعض الصحون إلى المطبخ، بينما لبثت رويا جالسة في سكون.

- «قولوا ما شئتم عن الشاه، لكن الرجل في الحقيقة جعل من

مثل هذه الأشياء أمراً ممكناً؛ إنه يدعم النساء كثيراً. له علينا هذه. أتدريان ما سيقال عنكما إن ذهبتما إلى أمريكا؟»، سأل بابا.

- «مجنونتان»، ردت ماما.

- «كلا، ليس مجنونتين! بل كما قلت: رائدتان! ذلك أن جيلكما أول جيل يسمح فيه للإيرانيات أن يحظين بمثل هذه الفرص. إنه لأمر مذهل». فرك بابا وجهه واسترسل: «يقول الأقارب أشياء عني. يقولون إن إرسال ابنتي إلى الخارج أمر مخزٍ. يقولون 'كيف سولت لك نفسك مجرد التفكير في إرسال ابنتيك غير المتزوجتين إلى بلاد بعيدة؟'». يقولون...

غير المتزوجتين. عبارة جفلت رويا لما سمعتها، إذ حملت إليها صورة غير مرغوب فيها لعرس بهمان وشهلا في حديقة أحد المنازل شمال العاصمة. كان قد مر شهران على زواج بهمان من شهلا، وكان عرساً، حسب قول جهانگير، أشبه بالمهرجان برزت فيه شهلا كأنها نجمة سينمائية، وسخّرت فيه السيدة أصلان كل إمكاناتها.

- «ما أريد قوله يا بنيتي هو أنه ينبغي لنا أن نفعل شيئاً! إن الجلوس هنا والعبوس لن يفيدك بشيء بقدر ما سيمهد لك الطريق لتصبحي عانساً مسنة. ستخسرين شبابك. في الوقت الذي يمكنك الذهاب للدراسة في جامعة أمريكية. فكري ملياً. فكري في ركوب الطائرة والطيران في السماء، ألا تحبين ذلك؟».

- «لسنا أغنياء يا مهدي»، قالت ماما.

- «نحن أغنى من غيرنا. إنه أمر يمكن تدبيره».

كانت رويا قد أخبرتهما أنها لن تتزوج ولن تقترب من رجل آخر ما حيت. وخلال الشهور الأربعة التي تلت وقوفها في ذلك الميدان

تنتظر بهمان، ورؤية السيد فخري يسلم الروح إلى بارئها، لم تبرح دارها تقريباً. أغلقت باب غرفتها وذرفت الدموع. كانت بالكاد تأكل، وكانت تشعر بالفراغ. ذلك أنها كانت قد قضت من المرحلة الثانوية وبما أن كانت خطوتها الموالية هي بداية حياة جديدة مع بهمان، لم يبق لها شيء تفعله.

في نهاية المطاف، خرجت مع زاري ورافقتها أحياناً إلى محل البقالة. كانت دائماً تخشى رؤية بهمان أو أحد أصدقائه في المدينة. كان الخزي يغمرها. الخزي والندم على ضعف تبصرها وغبائها وسذاجتها. كانت تشعر أن حفلات الرقص التي حضرتها في منزل جهانگير بعيدة وغريبة عنها كشأن الأفلام الأجنبية التي شاهدتها في سينما متروبول. تساءلت إن كانت فعلاً قد حضرت تلك الحفلات، وإن كانت فعلاً قد رقصت التانغو بين ذراعي بهمان. تساءلت إن كان أي من تلك الأشياء قد حدث بالفعل. أما الآن فلم يعد أمامها إلا دراسة الإنجليزية ومساعدة زاري على التدرب على الكلمات الجديدة؛ والحق أنها وجدت بعض السكينة في الدراسة رفقة أختها، فإشغال المرء لذهنه دائماً ما يساعد على تخفيف لوعته.

استحضرت تلك الأيام التي قضتها داخل مكتبة السيد فخري. صارت اليوم تتجنب ذلك الشارع كلياً. لم تعد تطيق الاقتراب من ذلك المكان، فهو مليء بالذكريات، زد أنها شاهدته يحترق بأم عينيها ولا تحب ما يذكرها بذلك المشهد. لا يزال يراودها ذلك الحلم الذي ترى فيه أنها تقابل السيد فخري من جديد. من كانت تلك الفتاة التي كانت تهرع إلى مكتبته وكلها أمل، تريد تسليم رسالة أو استلام أخرى؟ كم كانت حمقاء تلك الفتاة!

كانت رويا قد سرحت بأفكارها ففقدت تسلسل الكلام فلم تعد

تدري عم يتكلم بابا ومن يقصد بكلامه إذ قال شيئاً عن الحفظ والحماية. استرسل بابا القول: «ولو كلفني ذلك أن تتركني بنتاي للحصول على تعليم جامعي في الجهة المقابلة من العالم. لا تنظري إليّ هكذا يا منيجه جون. يجب أن نضحي من أجل الفتاتين».

من أجل الفتاتين.

كانت رويا تدري أن الدراسة لطالما شكلت صعوبة لزاري. أتراها ما زالت تكن شيئاً ليوسف؟ ويوسف هذا التحق بالجامعة لدراسة الطب، ويبدو أن ما بين زاري ويوسف لم يكن مجرد غزل عابر، فهل سترغب في ترك إيران؟

- «هل تدرين الصعوبات التي لقيتها في تعلم طريقة الترشح لجامعة في أمريكا، إنه أمر يحرق الأعصاب».

بدلت ماما وضعية جلوسها واسترسل بابا:

- «لقد أخذ المدير بيدي في مسألة التسجيل ومدني بالمعلومات عن المنحة، لا أدري كيف كنت لأتصرف لولا مساعدته».

- «دع زاري تبقى، لماذا ترسلها هي الأخرى؟ دعها تبقى معنا»، قالت ماما.

- «يا مانيجيه جون، وجودهما معاً أأمن لهما».

- «أأمن؟ ماذا تقول يا مهدي؟ أي أمن وأنت مرسل بنتينا إلى أمريكا حيث لا تعرفان أحداً؟ إن للحداثة حدوداً. أهذه هي الموضة البورجوازية؟ أن نرسل طفلتينا إلى الخارج؟».

- «لقد ذهبت أخت الشاه إلى...».

- «نحن لسنا أخت الشاه!».

كان الأربعة يجلسون أمام المائدة وكازب تطوف عليهم بالشاي

والزبدة، إلا أن رحى النقاش كانت تدور بين ماما وبابا حصراً ورويا وزاري كانتا تعلمان ذلك.

- «يا منيجه جون، لقد ذقت المر! إن مجرد إقناع الفتاتين بالتفكير في الأمر كان صعباً جداً، وكذلك كانت عملية الترشح. أتدرين أنني اضطررت إلى الاستعانة بكل معارفي؟ أتدرين أنني كنت أتوسل لأحصل على المعلومات حول كيفية فعل كل هذا؟».

- «ولكن لماذا فعل كل هذا!؟»، كانت الدموع في عينيها، «فهما صغيرتان جداً».

- «يجب علينا أن نلحق بقطار الفكر الحداثي. ما دام مديري على استعداد للمساعدة، وما دامتا تحظيان بهذه الفرصة، فلِمَ لا نحاول؟ ستعودان. ستحصلان على تعليم لم نحلم به قط، وبعدها ستعودان إلينا». ثم أومأ بابا إلى رويا: «منذ شهور لا تفعل شيئاً سوى البكاء، ولا تزيد إلا اكتئاباً وحزناً هنا».

شعرت رويا لحظتئذ أنها تتضاءل وتنكمش، الآن وقد باتت هي تلك العاشقة التي هجرها حبيبها، وقد أصبحت الفتاة موضوع شفقة الناس وأسفهم. لقد كان خزياً ما بعده خزي...

- «وقد رأيتِ ما حصل في الانقلاب. رحل الكتبي! وقتل الكثيرون. وعلامَ؟ إن إيران غير مستقرة اليوم. كنت أريد لها الاستقرار، وأنت أردت لها الاستقرار. كاد يتأتى لنا ذلك. ربما لم يكتب لنا رب العباد أن نعيش الديمقراطية. عليم الله لقد حاولنا. لقد ناضل والدي في الثورة الدستورية عام 1906 وكان في نفس عمر الفتاتين الآن. لقد منحنا جيله البرلمان الفارسي. ولكن أين صرنا اليوم؟ إننا كلما قطعنا خطوتين إلى الأمام إلا رجعنا ثلاثاً إلى الوراء. لم نكد نفرح برئيس وزراء لائق حتى أطاحوا به. واليوم،

الشاه يحكم قبضته على البلاد. ويا ليته كان شاهاً، إنه مجرد متزلف للغرب، مجرد كركوز».

- «ولهذا يجب أن تذهب الفتاتان إلى الغرب؟ أي منطق هذا؟».

- «لا يمكن الاعتماد على الديمقراطية هنا. لقد صار حلمنا سراباً. على الأقل في الغرب لن تقلقا بشأن الانقلابات والدكتاتوريات! إن الأمر أشبه بالحصول على بوليصة تأمين يا منيجه جون. أما نحن فينبغي لنا توخي الحذر الآن فالكثير من مناصري مصدق يتعرضون للملاحقات، وقد يكون الدور علينا. ورويا كانت هناك في الشارع وكان من الممكن أن تصاب بطلق ناري!».

غطت ماما وجهها بيديها لدى كلماته وأطرقت بالسكوت.

«سأسافر» قالت زاري فجأة وانتصبت واقفة: «نعم يا بابا جان. لنقدم ترشيحنا، ونحاول. سأسافر مع رويا ثم نرجع بعد ذلك. سنرجع لنعيش بقربكما إلى نهاية العمر ولكن سنعود ومعنا تعليم أمريكي لا يستطيع أحد أن يأخذه منا».

بدا بابا كأنه يغشى عليه وقال: «زاري! نعم، نعم. هذا ما أقوله. ما إن تنهي تعليمك لن يستطيع أحد أن يأخذه منك. أتفهمين؟ يمكنكِ الحصول على شهادتكِ من الجامعة ثم تضعينها في جيبك فتلبث هناك طوال حياتك. هذا كل ما أقوله».

سرحت رويا في ذرات غبار تطفو في شعاع شمس تسلل من النافذة. كان الشاي يصدر رائحة ليمون البرغموت، وكانت الأصوات الناشئة عن أعمال كازب في المطبخ مألوفة ومريحة. وفي الخارج كان أحد البائعين المتجولين ينادي على شمندره. كانت رويا

تريد أن تترك وراءها الخزي ولكنها لا تريد أن تترك كل هذا: وجود ماما العذب، مدينتها، منزلها. لا تريد أن تقول لبابا «وداعاً».

- «يمكنهما الدراسة هنا. يمكنهما الترشح هنا. يمكنهما الحصول على تلك الشهادة هنا»، قالت ماما.

هز بابا رأسه فحسب؛ لم يكن عليه أن يقول شيئاً آخر. كانوا جميعهم يعرفون أن «هنا» تعني مدينة الانقلاب؛ المدينة التي يُطلق فيها النار على الناس من دون سبب. وتعني أيضاً المدينة التي تعرضت فيها رويا للخيانة من قِبَل خطيبها، وكانت لم تزل تجد صعوبة في التجول في أرجائها، خوفاً من الالتقاء ببهمان. أو بشهلا. أو بهما معاً، وهي الطامة الكبرى.

ارتشفت زاري الشاي فرغبت رويا في القول لها: **لا داعي لأن تسافري معي. فأنت لك حياة هنا. أظنك مغرمة بيوسف. بالتأكيد أنت مغرمة به. ابقي هنا. أنا حياتي ضل سبيلها، فما لك أنت لتغيري مسار حياتك أيضاً؟ ابقي هنا مع بابا وماما وعيشي الحياة التي كتبت لك. أنا حياتي معلقة في الهواء، هذا لا يعني أن حياتك يجب أن تكون كذلك أيضاً.**

كانت تدري أن هذا ما يجدر بها قوله لأختها الصغرى؛ هذا التصرف الصحيح الذي تفعله الأخوات الكبيرات الصالحات، ولكن مهما يكن من حداثة أسرة رويا، فهي لم تكن تجرؤ على المزايدة على قرارات بابا. أو ربما لم تكن قادرة على تحمل السفر دون زاري وكانت مسرورة في سرها بالخطة التي حلم بها بابا.

وفي حي آخر من نفس المدينة، كان بهمان يجلس مع زوجته الحديثة. حسب أخبار جهانگير، كان بهمان قد أجّل البحث عن وظيفة كصحافي في تلك الجريدة التقدمية من أجل العمل مؤقتاً في

مجال النفط. تماماً كما أرادت والدته. الفتى الذي سيغير العالم؛ ها هو انصاع لرغبة والدته. تخيلته يستيقظ صباحاً قرب شهلا في السرير فيلبس ثيابه أمامها ثم يخرج للعمل ليتعلم كيف يزيد من أرباح النفط إلى أقصى درجة. هذه هي الحياة التي اختارها. هذه هي الحياة التي اختارتها له أمه فسمع وأطاع. لقد رحل مصدق على كل حال وبدأ بهمان حياته مع شهلا.

منذ تلك الرسالة الأخيرة لم تسمع من أخباره شيئاً؛ فلا هو هاتفها ولا راسلها. كان جهانگير هو من يورد لها أخباره. أما هي فقد كانت من الأنفة وعزة النفس بما يمنعها من الاتصال به. ولم قد تفعل على كل حال بعدما عاملها بتلك الطريقة؟ ألم يطلب منها في رسالته الأخيرة ألا تتصل به؟ لم تكن لتتذلل له. ثم من يحسب نفسه؟ كم كانت مخطئة بشأنه. كم كانت غبية، وساذجة.

كانت رويا تكره أعين الشفقة التي كانت تلاحقها حيثما ولت: **مسكينة! لقد كانا زوجاً مثالياً! انظر إليها الآن، يا لقدرها المسكينة! أتعلمين أنها كانت بجانب الكتبي عندما أطلق عليه النار؟ لقد مات! يا للكتبي المسكين...**

أصبح من المستحيل عليها أن تواصل حياتها في هذه المدينة كما كانت في الماضي. ربما كان بابا مصيباً؛ ينبغي لها ترك طهران.

- «بالطبع يا بابا جان، سوف نسافر. سوف نسافر معاً»، قالت رويا. حينئذ كان جسدها قد فقد شكله فحامت فوق مائدة الفطور كشبح هائم.

رغم أنها شعرت أنها بسفرها إلى أمريكا كأنها ذاهبة إلى القمر، كان ذلك يضمن لها عدم لقاء بهمان ولو لبضعة أعوام. حينئذ تكون قد استعادت جادتها. ثم إنها بسفرها ستكون بعيدة عن

المكان الذي سقط فيه السيد فخري وعن بقايا المكتبة المتفحمة التي قيل إنها سيعاد بناؤها لتكون من فروع أحد المصارف. ستذهب للدراسة ثم تعود لتكون واحدة من النساء القليلات اللاتي يحملن شهادة جامعية، ومن أمريكا. ستلتحق فعلاً بالطبقة التي اعتنقت الحداثة والتعليم. ستكون من الرائدات. ولم لا، لم لا ينالها من ذلك حظ؟ ما الذي بقي لها هنا؟ أما بخصوص زاري، فستعمل جهدها في الاعتناء بأختها الصغرى. نعم ستفعلانها، كما فعلتها اللواتي من قبلهما ورأى الناس في ذلك أمراً منافياً للعقل. كانت البلاد في مسار التغيير، فلم لا تكونان في طليعة جيل المتعلمات؟ ستعودان حالما تنهيان تعليمهما، ثم بعد ذلك لن تعبأ بكل من رمقها بعين الشفقة.

أومأ بابا وقال إنه سيسأل مديره بخصوص أوراق الترشح؛ قال ذلك بصوت خفيض كما لو أنه كان مشدوهاً وخجلاً بعض الشيء. أما ماما فحدقت في رويا أولاً ثم في زاري وأجهشت بالبكاء.

- «اسمعي، لست مضطرة لفعل هذا»، قالت رويا لزاري إذ أويتا إلى السرير تلك الليلة.

- «لن يسمح لك بابا بالذهاب وحدك».

- «ثمة علاقة بينك وبين يوسف، أليس كذلك؟ إنك متكتمة للغاية بشأنه هذه الأيام، ما الذي يجري بينكما؟ عادة ما تفشين بكل التفاصيل، فلماذا كتمانك الآن؟ اسمعي، أعرف أنك لا تشاركينني شيئاً لأنك تخشين رد فعلي. لا تقلقي، فأنا أسعد لسعادتك. لستِ مضطرة لحمايتي؛ إن كنت تحبينه فابقي في طهران».

أزالت زاري الدبابيس من شعرها، فكانت قد أقلعت عن وضع قصاصات ورق الجرائد في شعرها لصنع التموجات مذ أن اتصلت السيدة أصلان لتخبر رويا بأمر عرس بهمان. أصبحت تثبته بالدبابيس على الجانبين فجعلها ذلك تبدو أنضج وأكبر سناً. لقد صارت في مظهر يليق بفتاة في السنة الختامية من المرحلة الثانوية تدرس الإنجليزية بالموازاة مع دراستها. عجبت رويا أن أختها غدت تبدو أكبر سناً بكثير خلال نصف السنة الماضية، كما لو أن انفصال رويا عن بهمان ووفاة السيد فخري سرّعا من عداد عمر زاري، كما فعلا مع رويا.

- «لا تحملي هماً يا أختي».

أبقت زاري يديها على مؤخرة عنقها فبدت في ذلك كتمثال تصفه قصيدة قديمة.

- «مستعدة لتتركي كل شيء وراءك؟».

- «إن ذهبتِ، ذهبتُ. سنبدأ معاً. ثم إننا لن نبقى هناك العمر كله، فما هي إلا بضعة أعوام، أليس كذلك؟ ربما أنا أيضاً ينبغي لي محاولة فعل شيء في حياتي. إنه غد مختلف، ونحن رائدتا جيل الشابات الإيرانيات المتحررات!». كانت الجملة الأخيرة محاكاة مثالية لخطاب بابا.

ذهبت رويا إلى السرير مشدوهة من رغبة أختها في مرافقتها في رحلتها، ومستبطنة ارتياحاً في نفسها من ذلك. ذهبت وفي داخلها إحساس بأنها على وشك القفز من أعلى جرف والغوص في مياه متلاطمة ساقعة.

وصلت رسائل الرد في البريد بداية الصيف فأخذها بابا إلى مديره الذي تولى ترجمتها. نعم، طمأنه المدير بأن الرسائل تقول نعم. كلتا الأختين قُبلتا للدراسة في كلية البنات بكاليفورنيا التي كان مديره نصحه بالترشح لها نظراً لبرنامج المنح المتميز الذي تقدمه للطلبة الأجانب. أجل. لقد حصلتا على مقعد لكل منهما وستدرسان في نفس المستوى، ذلك أن رويا كانت انتظرت عاماً بعد حصولها على الثانوية العامة. ونعم، نعم، نعم بالتأكيد لقد قبلتا. ولا، لن تكونا الإيرانيتين الوحيدتين هناك، فقد قُبلت فتيات أخريات أيضاً هذا العام. قالت ماما بقلق: لعلهن قريبات الشاه! ولكنها، رغم قلقها، قامت الليل تخيط ملابس جديدة لبنتيها فصنعت لكل منهما مقدار حقيبة من البلوزات والتنانير والسترات. فبنتاها لن تذهبا إلى أمريكا دون أروع الملابس التي تخيطها يداها. عملت لكل منهما فستاناً (أخضر فاتحاً لرويا وسماوياً لزاري) من أنعم أثواب القطن الذي وقعت عليه في البازار. وكانت إذا فرغت من الخياطة ترشق إبرتها في ياقة الثوب فتضيف لمستها الفريدة بتطريز زهرات صغيرة عليها. كانت تقطع قماش الباتيستا وتسهر الليل في خياطة بلوزات مختلفة الألوان: الكريمي والأبيض والزهري الفاتح والأصفر. وكانت قد اشترت السترات والتنانير ذات الطيات من المحلات الواقعة شمال المدينة وكوتها بكل جهدها. وفي قاع كل حقيبة رتبت الملابس الداخلية والجوارب الطويلة التي اشترتها من البازار. في ذهول، ساعدت الأختان والدتهما في حزم الأمتعة. كانت كل مدخرات بابا قد صرفت في اقتناء تذاكر الطائرة وفي دفع جزء من الأقساط الذي لا تغطيه المنحة الجامعية، وكان قد باع سكات الذهب التي أهداها إليه أبوه بمناسبة زواجه، وعمل ساعات إضافية

لرفع مدخوله، حتى وقد طلب من ماما أن تبعث بكل ما ورثت عن والديها إلى أمريكا مع البنتين.

وفي يوم مغادرتهما، رفعت ماما مصحفاً فوق رأس البنتين فمشيتا تحته ثلاث مرات قبل أن تقبلانه تبركاً وطلباً لحفظ الله ورعايته في سفرهما. وكان ذلك طقساً بسيطاً لضمان الأمان في السفر. وقد تربيتا على تأديته كلما كانت الأسرة مسافرة في عطلة إلى مدن يزد أو أصفهان أو شيراز. وكذلك كانتا ترفعان المصحف فوق رؤوس الأقارب الذين يأتون لزيارتهم في طهران عند العودة إلى قراهم في الشمال. إلا أن رويا لم تكن قط تحسب أنها ستمشي تحت المصحف في سفر يأخذها إلى أمريكا.

في البداية، كان الألم الذي تجرعته من فراق بهمان ووفاة السيد فخري جليلاً جداً، حتى لقد شعرت كما لو أن جلدها يمزق، ولكن مع مرور الوقت التأمت الجروح. وعند صعودها على متن الطائرة، كانت تحس بالحياة تملأ جسمها منجديد؛ جلدها وعظامها وعيناها وأطرافها، باستثناء قلبها. كان جامداً مغلقاً، وقد انمحى منها كثير من الأشياء التي آمنت بها في السابق. ذلك أنها قطعت على نفسها العهود أن يظل قلبها مغلقاً ما حيت. كان شعرها مصففاً بعناية ومقبض حقيبتها يحفر كفها، وكانت قدماها على نحو ما تتحركان الواحدة وراء الأخرى. نظرت إلى زاري فرأت فيها قلقاً لكن ابتهاجاً طفيفاً أيضاً. سمعت ماما تبكي وشاهدت بابا يعد مالاً ويسلمه لهما؛ حفنة من الأوراق النقدية الخضراء غير المألوفة لديها. سجلت كل هذه المشاهد في ذهنها كما لو أنها في حلم.

وأثناء الطريق إلى المطار شاهدت الغيوم المائلة إلى السواد وقد بدت ممتلئة بالأمطار، ولكن تلك الكتل الرمادية لبثت منخفضة

وكثيفة. مروا في طريقهم ببنايات وشوارع مألوفة وبمحلات مروا بها ما يُعدّ ولا يحصى من المرات: مقهى غنادي، مدرستهما، بيت أهل ماما في شارع ثريا. اختار بابا طريقاً طويلاً فأعطاهما نظرة أخيرة على هذه المدينة التي ما هي إلا أن تصبح أثراً بعد عين، ولو إلى حين. وبطبيعة الحال، تجنب المرور بميدان سباه والمكان حيث كانت المكتبة. شعرت رويا بموجة من الحب تجتاحها تجاه وطنها ووالديها وكل من تتركه وراءها.

شدت زاري على يد أختها قائلة: «سوف نحب الحرم الجامعي أليس كذلك يا رويا؟».

أومأت رويا.

قال بابا في نبرة حاول جعلها تنم عن إيمانه بما يقول: «لا جدوى من البقاء في هذه البلاد بعد اليوم. لقد أطاحوا بقائدنا الديمقراطي، فبات للقوى الأجنبية والمتزلفين لهم أن يفعلوا بنا ما شاؤوا. لا جدوى اليوم. اذهبا، اذهبا والتمسا لنفسيكما الحرية. تعلما كل ما تستطيعان. ذلك أفضل من البقاء في بلاد تخنقكما فيها قبضة دكتاتور وحكومة ترمي شعبها بالرصاص».

توقعت رويا أمها أن تسكته فتقول: «يكفي هراء يا مهدي، يكفي من خطابك المعادي للشاه». ولكنها كانت فقط منصرفة إلى شهقاتها تقاومها في السيارة دون أن تتفوّه بكلمة.

ركبتا الطائرة وعندما مالت الأخيرة فوق المدينة، شدتا بيد بعضهما وفي ذهنهما احتمال الموت وارد. كيف لهذا الشيء أن يبقى معلقاً في الهواء؟ ازدادت سرعة الطائرة وحلقت في السماء كالبساط السحري فشعرت رويا أنها تكاد تلمس الغيوم الحاملة سيولاً من المطر. وإذ ارتفعوا أكثر في الجو، أرادت من تلك الغيوم الصوفية

التي تنبسط منخفضة فوق طهران أن تضع حملها على المدينة فتغرقها بسيل من الدموع. ولكن ربما تلك الكتل الرمادية الحانية على طهران أبقت على حملها ولم تسقط ولو قطرة مطر. وبينما كانت الطائرة تمخر الجو مبتعدة عن طهران أبعد فأبعد، صدمتها فكرة أن أموراً كثيرة ستجري في ديارها لن تعرف عنها شيئاً أبداً. . .

القسم الثالث

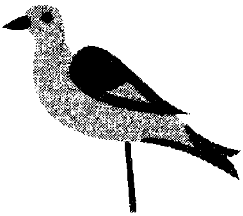

الفصل السابع عشر

1956

مقهى كاليفورنيا

كانت كاليفورنيا في عيني رويا جديدة وبراقة، وقابلت كل شيء فيها بانبهار طفل يفتح دمية جديدة. البنايات التي تغمرها أشعة الشمس، والشوارع المتألقة، والمحلات اللامعة، والقمصان الضيقة على أجسام الرجال وملابس النساء الفاتنة؛ كل ذلك بدا كأنه خرج من فيلم في سينما متروبول. ولكن رغم نور الشمس الباهر في وطنها الجديد، كانت رويا غارقة في حنين سرمدي، حيث كانت زاري صلتها الوحيدة بحياتها السابقة.

أخذت الأختان بيد بعضهما للتعايش مع حياتهما الجديدة. فتعلمتا سبل العيش في مسكنهما الجديد، وتعلمتا التنقل داخل حرم كلية ميلز في منطقة الخليج، وتدربتا معاً على استعمال لغتهما الجديدة. وكانت رويا في البداية، في تواصلها بهذا اللسان الجديد، أشبه بممثلة في مسرح صامت؛ تعوض بحركات اليد وفيض من الإيماءات عن افتقارها للكلمات، لم يكن ينقصها إلا الدموع ترسمها على خدّيها.

شعرت رويا إذ هي جديدة في هذا البلد كمن دخل غرفة

مظلمة؛ في البداية، لم تستطع تمييز الأشياء إلا من أشكال ضبابية في أفضل الأحوال. ولكن عينيها تكيّفتا مع المشهد وأخذت تلك الأشكال التي كانت في البدء متفككة تستحيل واضحة رويداً رويداً. أرشدت الأختان كل منهما الأخرى، ولو أنهما كانتا في ذلك غالباً كضريرتين تقودان بعضهما. كانتا تبتسمان بأدب في وجه السيدة كيشبو صاحبة الدار التي تنزلان فيها بمعية عدد من الفتيات سواهما.

لم تكن رويا تريد أن تترك طهران وراءها مهما يكن من الآلام وانفطار القلب والفوضى السياسية التي فيها. ولكن لم يكن أمامها إلا أن تبني حياة جديدة طوبة طوبة. لم تجد مناصاً من أن تمضي قدماً بحياتها. ولكن ما فاجأها هي زاري؛ فلما كانتا في طهران لم تكن زاري في تصور أختها سوى فتاة مغرورة مهووسة بنفسها. ولكن في هذه الصفحة الجديدة من حياتهما، استطاعت بتركيز يكاد يكون هوساً استيعاب الثقافة الأمريكية كأنها الهواء الذي سيمنعها من الهلاك. وفي عامهما الثاني في كلية الفتيات، غدتا متفوقتين في دراستهما وباتت لهما مجموعة صغيرة من الصديقات تذهبان معهن إلى السينما وتتعشيان معهن وأحياناً تتشاركان معهن مخفوق الحليب بالفراولة. ولكن لا شيء من هذا جعلهما في حل من الحنين إلى الديار.

بلغت رويا من الأهداف ما يكفي، بإتقان اللغة والنجاح في دروس الكمياء وعلم الأحياء. كانت قد أعرضت عن الرجال. أما زاري، فظلت منفتحة على المواعدات وهي تدفع نفسها في أمريكا. فلم تلبث أن قابلت شاباً اسمه جاك بيشوب في منزل إحدى زميلاتها فأصبحت تقضي معه وقتاً أطول فأطول. وجاك هذا كان في عيني زاري خيراً من يوسف ومن حسن وحسين وكوروش ومن كان مثلهم. كان في مظهره يشبه الحطّاب: عريض المنكبين، ممتلئ البدن وذا

شعر أشقر داكن بحاجة إلى قص. كان لا يتوقف عن التدخين والتبسم وإزاحة خصلات شعره عن عينيه. والده تاجر متنقل، لكن جاك كان يريد كسر نير الرأسمالية والتوسع في أعمال والت ويتمان.

أُعجِبت زاري بذلك الشاب الأمريكي، فأخذت رويا تراقب أختها وهي تتحول من فتاة إيرانية تريد ارتياد الحفلات الباذخة والزواج من رجل ثري إلى فتاة لا يفوق شيء رغبتها في فهم سبب تعلق جاك بيشوب بالشعر هكذا. فأدركت رويا للمرة الثانية تقلبات حب الشباب وعدم القدرة على التنبؤ به. أما زاري فكانت تحلق في حضور جاك، وهكذا ما برحت أن وقعت في حبه حباً جماً.

جلست رويا إلى طاولة مستديرة في أحد المقاهي في شارع تيلغراف ببيركلي وأمامها كومة كتبها. كانت تدوّن أشياء في دفتر المختبر محاولة حل بعض مسائل الكيمياء التي أقضت مضجعها، فكانت تتحاشى النظر في أعين الآخرين ولا شيء في خاطرها أكثر من سريرها في منزل السيدة كيشبو والنوم. كان أول العشي ولم يساعدها الصخب والجلبة في المقهى على تهدئة أعصابها مع أنها أتت إلى ذلك المقهى تحديداً على أمل أن يهون الضجيج الذي في الخلفية من صعوبة المذاكرة بعض الشيء. ذلك أنها على موعد مع الامتحان النهائي لمادة الكيمياء صباح يوم الثلاثاء على الساعة التاسعة، أي بعد ثلاثة أيام. كانت تحاول فك طلاسم الكلمات والرموز والأرقام التي في الكتاب وشعرت أنها متأخرة في المذاكرة وغير مستعدة، ففكرت أنها كان ينبغي لها البدء في المذاكرة في وقت مبكر؛ لقد تركت الكثير للأيام القليلة التي تسبق الامتحان فوجدت نفسها اليوم غارقة في بحر

من الدروس لاستدراك تأخرها فيها. كان بابا يرسل رسائل تحفيزية من إيران: كان يعبر فيها عن فخره بابنتيه العالمتين اللتين تدرسان مواد حديثة ستضمن لهما موطئ قدم في هذا العالم! وكانتا تتقنان الإنجليزية بسرعة رغم كونها لغة صعبة! لم تكن رويا **تريد** أن تصبح عالمة، ولكن بعد ما صاحب الانقلاب من رعب، وبعد خيانة بهمان لها، ولوعة قلبها في طهران، اتضح لها أن رغباتها ليست بأهمية أشياء أخرى، كالحاجة إلى البقاء. ثم بماذا نفعتها الدواوين الشعرية والروايات المترجمة؟ تابعت دراسة العلوم بنهم في كلية ميلز ليس إرضاءً لبابا وحسب، بل لأن شهادة جامعية في الكيمياء من شأنها أن تقيها من منقلبات الدهر إذا انقلب، وما يدريك.

ولكن تلك العناصر والجزيئات التي في كتابها أصابتها بالدوار. يقشعر جسدها كلما فكرت في الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء ولسان حالها يقول: يا ويلي كيف سأستعد لهذا الامتحان؟ ارتشفت من قهوتها القوية وأنزلت الكوب ثم أخذت تحرك السائل في توتر بملعقة صغيرة. يجب ألا أرسب، يجب أن أسجل علامات عالية وأحصل على شهادة الكيمياء مع مرتبة الشرف، فلقد قدم بابا وماما تضحيات جسيمة حتى يرسلاني إلى هنا.

دلف إلى المقهى مرتدياً بليزر زرقاء وسروالاً رمادياً وعلى رأسه ما يشبه كثيب رمل أشقر فبدا بمظهره هذا كأنه النسخة الشقراء من شخصية تان تان التي في سلسلة القصص المصورة البلجيكية. كانت أزرار سترته الذهبية تبرق وهو يتقدم في الطابور بثبات ثم نطق طلبيته.

حاولت ألا تنظر إليه. أحبت تلك القصص المصورة لتان تان في طفولتها، كما أن السيد فخري كان يجلب بعض الأعداد إلى مكتبته.

ولكن هذا الشاب كان أوسم من الشخصية التي في السلسلة بكثير. كانت مذهولة من مظهره الجميل على نحو لم تستطع تفسيره، إلى حدّ أنها أفلتت الملعقة من يدها وسقطت على الأرض. اللعنة! انحنت إليها وأخذتها ومن ثم ذهبت إلى المنضدة لتجلب واحدة جديدة من سلة قرب أباريق الحليب والكريما وأوعية السكر، فلما مدت يدها إلى إحدى الملاعق لامس مرفقها كوب قهوة فأسقطته على الأرض فاندلق السائل في كل مكان وبلل البلاط حيث انتشر في خطوط في كل مكان. أطلقت تأففاً عالي النبرة فخرج فارسي اللسان من حرجها وصدمتها. أخذت بعض المناديل الورقية وجلست القرفصاء تمسح ما افتعلته من فوضى ولكنها بذلك لم تزد إلا الطين بلة إذ تمزقت المناديل وهي تحاول امتصاص خطئها من على الأرض.

- «لا عليك، دعيني أتولى ذلك».

رفعت بصرها فإذا بتان تان مقرفص أمامها وعيناه في مستوى عينيها. لاحظت أن له عينين زرقاوين كعينَي فرانك سيناترا. قال لها بلطف: «لا تحملي هماً».

لاحظت أيضاً أن سرواله الرمادي من الصوف، وهما منحنيان معاً أحدهما بقرب الآخر. فتساءلت في خلدها: من ذا الذي قد يلبس الصوف في كاليفورنيا؟ هي لم تر كسوة صوف مذ تركت طهران.

- «أنا آسفة»، همهمت.

اللعنة، يا للصورة المقيتة التي أعطتها عن نفسها وهي مقرفصة كمن يقضي حاجة في مرحاض إيراني تقليدي، تمسح ما دلقت بخجل. دعت الله أن يستأنف المقهى هرجه ومرجه وأن يجعل كل من فيه يركز على أشياء أخرى سواها.

تبسم لها أزرق العينين قائلاً: «إنها حقاً ليست بالمشكلة الكبيرة. أتدرين، كنت أريد قهوة أخرى على كل حال».

تنفست رويا الصعداء إذ عاد المقهى إلى عجيجه، وعاد العمال الذي كانوا ينظرون إليهما إلى تلقي الطلبيات من الزبائن وتركوهما للفوضى التي هما فيها. انكبا سوياً على مسح القهوة المندلقة بالمناديل. شمت فيه رائحة الشامبو وكان من النوع الذي يباع في مراكز التسوق الأمريكية والتي تصنع فقاعات رغوة ضخمة تتكاثر بين أصابعك.

- «ألا أقول لك شيئاً، سأطلب قهوة أخرى، وأنت ستتوقفين عن لوم نفسك عما حصل. اتفقنا؟».

لم تعلم ما تقول لكنها أعجبت بأسلوبه البسيط في التعامل مع المسائل. أومأت فتبسمت ثم أومأت من جديد مدركة أنها كانت «تومئ كشخص أجنبي»، كما كانت زاري لتقول. عادت إلى طاولتها وجلست على كرسيها ووضعت قلمها على دفترها من جديد ثم أخذت ترسم أشكالاً سداسية للجزيئات. كان جيش من جامعة كاليفورنيا في بيركلي يحتل المقهى، لكن كان فيه بالمقابل عدد لا بأس به من طالبات كلية ميلز. شعرت بالجو مفعماً بالكافيين والتوتر، فالجميع يتهيأ للامتحانات النهائية، بينما بدت عطلة عيد الميلاد كسراب يلوح من وراء عقبات مرهقة - ذلك أن الطلاب ينتظرهم عمل مضني قبل أن ينالوا تلك الاستراحة التي هم بحاجة إليها.

رأت فجأة السواد يغطي الأشكال التي على دفترها، فرفعت بصرها فإذا بالرجل ذي البليزر الزرقاء يقف بجوار طاولتها.

قال وعلت ثغره تلك الابتسامة مجدداً: «هل تسمحين لي بالجلوس؟».

لم تدر ما تقول.

- «هذا المقهى مزدحم اليوم أكثر من المعتاد، ألا ترين ذلك أيضاً؟».

- «تفضل».

قالت رويا ذلك وجمعت كتبها في كومة مرتبة لتفسح له مجالاً على الطاولة. شعرت إثر ذلك كمن يهم بشق البحر. لم تدر إن كان تصرفها منفتحاً أكثر من اللازم، ولكن إن كانت رفضت طلبه فسيكون ذلك فظاظة منها. ودت آنئذ لو كانت ملمة بالقواعد الاجتماعية في هذا البلد. أحياناً كانت ترى أن لا وجود لقواعد هنا أصلاً. في إيران كانت الأمور أسهل بكثير؛ هناك تملي عليك العادات وقيم التعارف ومنزلة أجدادك كيف تتصرف.

مد إليها يده قائلاً: «اسمي والتر وأنا من بوسطن».

ارتبكت. لم تَدرِ أتصافحه أم لا. الأمريكيون يفعلون ذلك هنا. يحبون مصافحة الأيدي كما لو أنهم شركاء تجاريون يجرون صفقة بيع أو يبرمون العقود. وضعت كفها في كفه فتفاجأت بقبضته اللطيفة. كانت متأكدة أن وجهها احمرّ لحظتئذ فقد مضى عليها دهر لم تشعر بقبضة رجل على يدها. جلس قبالتها فشعرت بشيء من الانزعاج من جرأته، ولكن هكذا تجري الأمور هنا. ببساطة. لا سنن اجتماعية معقدة تجلب العار على سائر عائلتك إن أنت كسرتها، ولا قواعد مجنونة مثل تلك التي في ديارها.

توقعت منه أن يخرج كتبه بدوره ويتكوم خلفهم، إسوة بمعظم الطلبة، أن يشهق ويتأفف بشأن الامتحانات الختامية القادمة. لم يفعل ذلك، بل حرك قهوته الجديدة وارتشف منها كما لو أنه يجلس في ساحة في إيطاليا وتطل على الجبال، كما لو أن أمامه كل الوقت

ولا شيء يلحّ عليه. كان كل شيء فيه نقياً وأنيقاً. بطبيعة الحال، لن تستطيع المذاكرة وهو جالس معها. فلماذا قبلت طلبه بمشاركتها طاولتها منذ البداية؟ ولما سألها عن أي سنة هي فيها، تخيلت فقاعات الصابون تخرج من فمه. لا شك أن هذا الرجل استحم لتوه. لا يمكن لها تخيله عرقاناً إطلاقاً. ومع هذا لم يكن حسن الطلة هو ما فتنها فيه، وإنما سلوكه. فحتى قهوته، ارتشفها بتوازن واسترخاء ولم يكن في ذلك عجلاً. لقد بدا. . . رصيناً.

عرفت يوماً فتى ذا عجلة وتخندقت في شغفه وحماسته وطبيعته المتقلبة. ولكن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، فبعد بهمان وخيانته أقسمت رويا يمين الله ألا ترتبط برجل ما حيت. ستجتهد في دراستها في أمريكا ثم ترجع إلى إيران فتحصل على وظيفة ومن ثم تحقق الاستقلال المالي. ستعيش حياة عانس مليئة بالمعادلات والتجارب والعلم. وستثبت على موقفها ثباتاً يستسلم له أكثر الرجال إصراراً وينصرف إلى فريسة أسهل منها.

أما هذا الرجل، فتى المقهى هذا ذو البليزر الزرقاء، فكان لطيفاً جداً. سمحت له بالجلوس إلى طاولتها. كان يتبسم ويدردش بأدب دردشة رائعة في نقائها، خالية من أية تلميحات، وبالكاد تخللتها عبارات الغزل. كان محترماً في كلامه. سألها أسئلة أجابته عنها. وجفلت من فكرة الانجذاب إلى أي شخص، فلم تستطع العودة إلى الحال التي كانت عليها مع بهمان: فتاة مطواعة كأنها العجين في يديه.

نظر إليها بجدّية وسأل: «وهل تروقك الكمياء هنا؟».

- «عفواً؟».

- «ستجتازين الامتحان النهائي المتقدم في الكيمياء، أليس

كذلك؟». وأومأ إلى كتابها. «هل وجدتها كما توقعت؟ فقد قال أحد زملائي الذي ينحدر من لبنان واسمه عمر سعيد أن ما درسه هناك في بيروت كان أعمق مما ندرسه هنا. لذا تساءلت فقط...».

- «في الحقيقة لم يسبق لي قط أن ذهبت إلى جامعة في إيران، درست هناك الثانوية فقط. لذا أقول نعم، المادة هنا... عميقة. أقصد مرضية. الكيمياء. الفصل».

لماذا كانت تشعر بالارتباك وهي تحدث هذا الفتى بحق السماء؟

حدق فيها لوهلة ثم مال نحوها وهمس: «ثقافة كاليفورنيا هذه جديدة عليّ أنا أيضاً».

لا شك أنه حزر أنها جديدة على المدينة من لكنتها ومن سواد شعرها وعينيها. ولكن هل كانت تبدو أجنبية في كل شيء؟ تخيلت نسمة من رائحة ماء الورد والزعفران تحوم حولها حيثما ولت. أما هو فواصل التحدث إليها على نحو سلس كما لو أن لم يكن فيها من الغرابة شيء. حكى لها كيف انتقل من الساحل الغربي طلباً للتعليم الجامعي ليجد نفسه غريباً في كاليفورنيا. تحدث عن نيو إنجلاند وشتائها الذي يبليه في التزلج وتحدث عن كيب كود وصيفها الذي يقضيه في أكل لفائف الكركند وفي تشجيع فريق يسمّى «ريد سوكس» (الجوارب الحمر). الجوارب الحمر؟ من قلة الأسامي يعني! ذكرها وصف والتر لطفولته في نيو إنجلاند بمشاهد من فيلم أمريكي حضرته في سينما متروبول مع بهمان.

ركزت على ما كان يقول والتر. لقد كان حسن المعشر للغاية، حتى لقد اندهشت من ذلك. كان مثل شخصية من برنامج تلفزيوني عائلي. طبعاً. فهو لم يترك بلاداً أسقط رئيس وزرائها في انقلاب.

ولم ير الناس يرمون بالرصاص عند قدميه. فقط ذهب للتزلج واحتسى مشروب الشكولاتة الساخن. ولقد علمت رويا أنه كان له خلف تلك البليزر الزرقاء التي يرتديها براءة يحلم بها كثيرون. لقد حسدته على بساطته ووضوحه.

كانت، إذ هما جالسان معاً، تكثر الإصغاء وتقلل الكلام. أجابت عن أسئلته بإنجليزيتها المتعرجة؛ أسئلة عن مسقط رأسها وعن إقامتها وعن أختها زاري. ونعم، إنها تريد أن تصير عالمة.

وعندما انتهى والتر من قهوته، نهض وعاد بفنجانين إضافيين. وهو يمد لها واحداً، تذكرت رجلاً آخر يقف في مقهى ويمد لها القهوة ويسألها إن كانت راقتها. أخذت الفنجان من والتر سريعاً وارتشفت منه رغم سخونته. استرسلا في حديثهما. كان يجلس قبالتها وهي مصغية لحديثه فانفتح له شيء بداخلها. التشدد الذي جنحت إليه طويلاً أرخت زمامه قليلاً. شعرت باسترخاء لم تشعر بمثله منذ مدة طويلة. انقضت ساعة زمن قل فيها رسم أشكال الجزيئات السداسية. سألها إن كانت تقبل مرافقته إلى متحف باورهاوس بعد الانتهاء من الامتحانات النهائية، وقبل أن يعود إلى بوسطن لقضاء العطلة.

- «خطة جيدة؟».

التقت عيناه الزرقاوان مع عينيها.

نعم، بدت لها خطة جيدة تماماً.

الفصل الثامن عشر

1957

خطة بديلة

أسلك الطريق الذي يمر عبر ميدان بهارستان معظم الأيام عند عودتي من العمل. المرأة ذات الثياب الحمر لا تبرح موقفها عند النافورة. أراها هناك بعينيها الملطختين بالكحل وشعرها الأشعث الجاف. يقال إنها لم تغير ثيابها منذ تخلّف حبيبها عن موعده معها قبل سنين. وكل يوم تذهب إلى ذلك المكان ولا تفوّت موعداً. يا للروح التائهة المسكينة.

لا ينبغي لي سلك طريق ذلك الميدان، فهناك طرق أخرى إلى البيت. ولكن ليس بيدي حيلة، فالشوق والندم ينهشان كياني وبداخلي رغبة جامحة للعودة بالزمن إلى الوراء.

أذكر تلك النظرات في عينيك يوم التقينا في المكتبة. أذكر حذاءك. أذكر أن وجودي معك كان أسعد لحظات حياتي.

تراجعت تقلبات المزاج عند أمي، وهي اليوم في حال

سكون وهدوء، ولكن أكثر من اللازم. لقد توقفت نوبات الغضب والجموح بشكل نهائي تقريباً، أما الآن فهي تعاني من حزن طفيف ولكنه مزمن. إنها تداوي جراح روحها بهدوء الآن، ذلك أنها تأثرت كثيراً بوفاة السيد فخري.

رويا جون، يا ليتك لم تغيري رأيك. ويا ليت حالتها النفسية كانت بقدر ما تطيقين. ولكنك أخذتِ قرارك وأنا ما كنت لأحشر نفسي في حياتك قهراً.

على كل حال لقد ولى ذلك الماضي.

لقد رحل مصدق وصار الشاه يحتكر السلطة أكثر فأكثر. ولو أني ما زلت بهمان الذي كنت عليه في الماضي لكنت الآن أتمزق من الداخل ولكنت مليئاً بالرغبة في النضال، ولكني انتهيت من النضال. لقد مرت أربع سنوات على ذلك الانقلاب؛ وبينما الناس ينعون خسارة قائد، لا أشعر أنا إلا بخسارتك أنت.

لا أدري إن كان جهانگير أخبرك أن والدي قد توفاه الله قبل سنة. بالمناسبة، أنا حقاً مسرور أنك وجهانگير ما زلتما تتهاتفان أحياناً - فتلك وسيلتي الوحيدة للاطلاع على أخبارك. أقمنا له جنازة صغيرة وكتبت أمي دعوات الحضور وبعثت بها إلى أفراد العائلة الذين قطعوا علاقتهم بنا منذ سنوات. كان أبي هو من علَّمها القراءة والكتابة. إن أمي من أسرة فقيرة وأمية بينما أبي من أسرة متعلمة، وبذلك شكل زواجهما كسراً لرسن الطبقية، وهذا أمر رأت فيه أسرة والدي مهانة فنبذته لقراره الزواج منها. ولكنه أحبها! أعلم أنه أحبها. لقد أحبها عندما كانت صغيرة وأحبها

عندما مرا بفجائع لا توصف وأحبها رغم حالة الاكتئاب التي تعاني منها.

ذلك هو الحب غير المشروط الذي لطالما كافحت لأعطيه لها رغم صعوبة الأمر أحياناً. وكنت أظن أنك أيضاً ستحبينها يوماً، رغم كل شيء.

كان الآخرون يرون في أبي رجلاً ضعيفاً، أما أنا فلم أعد كذلك. لقد كان رجلاً ذكياً ومخلصاً ولقد حاول ما وسعه أن يكون عادلاً، كما أنه، وبأشكال عديدة، لم يكن ينتمي إلى النظام الذكوري الذي يمشي عليه مجتمعنا. كان يحترم أمي وكان يحاول مساعدتها في أحزانها وتقلبات مزاجها، ولم يكن قاسياً في حكمه عليها إسوة بما تفعله ثقافتنا مع الذين يعانون من حالات نفسية صعبة.

وبما أن والدَي كلاهما تزوجا خارج إطار طبقتهما الاجتماعية، فقد كان لي تصور - رغم أنه كان تصوراً أحمق - أن أمي ستحترم الحب، والزواج المبني على الحب. أعلم أن البعض ينظرون إلى الأمر على أنه مجرد هراء رومانسي. لقد كتب الشعراء، ومنهم شعراؤنا، الكثير عن الحب وكذلك الأفلام الأمريكية مهووسة به. ولكن بالطبع تظل العادات التي ترى في الزواج عقداً لتحقيق المنزلة الاجتماعية واقعاً راسخاً.

بعدما التقيت بك غمرني حبك وغرقت فيه. لم أكن أرى في الدنيا سواك. وتجرّأت على تخيّل مستقبل نعيش فيه سوياً. ومع توطيد خططنا علا سقف آمالي. لم أستطع التفكير في سواك، بيد أن أمي أصرت على شهلا.

فأخبرتها أنني مغرم بك.

كانت يومئذ تمارس فن الخط - لن أنسى ذلك ما عشت. كان نسخ الحروف يساعد في تهدئة أعصابها، فالطبيب كان قد نصحها بالأمر. فلما أخبرتها اعتلت وجهها تعابير حنان لوهلة ثم سرعان ما تصلبت وقالت: «بسه». (كفى)

- «كفى، كف عن الهراء».

كان وضعنا المادي متقلباً، رغم أن أمي كانت تحب التباهي بشأن «الفيلا» التي نملكها قرب البحر. كنت أعلم أن تباهيها ذاك كان يصيبك بالجنون. كنتُ أذوب من الخجل كلما ذكرت تلك الأشياء بخصوص «ثروتنا» في حديثها إليك. وحتى الآن، ما زلت أشعر بالخجل لمجرد التفكير في بعض الأشياء التي قالتها لك. ولكن الحقيقة أن أبي لم يترق في عمله في الهندسة. ورغم أنه ينحدر من أسرة ثرية، إلا أنه ما كان له أن يطلب من أقاربه أي نوع من المساعدة ولا سيما مساعدة مالية، إثر نبذهم له بعد زواجه من أمي. ومع توالي السنين، جسدت حالة أمي الذهنية سبباً إضافياً لتجنب لقاء أقارب أبي، ذلك أن أخواته كلما زرننا، على ندرة ذلك، ما ازددن إلا يقيناً أن مرضها هو بمثابة تأكيد على أنها لم تكن تصلح له منذ البداية.

وبما أن عائلة شهلا ثرية بسبب قربهم من الشاه ومكانة والدها النافذة، فقد رأت أمي في زواجي منها طوق نجاة. قالت إنهم أثرياء جداً لدرجة أنهم يشترون ملابسهم وحليهم من باريس. أما أنا فلم أكن أكترث لكل ذلك مثقال ذرة؛

كنت قلقاً بشأن مصير بلادنا فحذا بي ذلك إلى دعم محمد مصدق لأنه وعدنا بتحقيق الديمقراطية وبالاستقلال عن تأثير القوى الخارجية. لم أطق سياسة الشاه الجبانة مع الأجانب وافتقاره للشجاعة. وبالمقابل كنت معجباً بشخصية مصدق الاستقلالية. لكنني أستطرد. وبالعودة إلى موضوعنا، يكفيني القول إن شهلا لم تكن مناسبة لتصوراتي بخصوص مستقبلي البتة.

التي كانت مناسبة لتلك التصورات هي أنت.

لما وصلتني رسالتك الأخيرة، التي قلت فيها إنك لا تريدين قضاء حياتك معي، وإنك لا تطيقين احتمال حال أمي الصحية، وإنك لا تستطيعين أن تكوني زوجة في أسرة تعاني من عدم الاتزان النفسي كحال أسرتي، لم يكن بيدي شيء. ما كنت لأفرض أسرتي عليك، فمهما بذلتُ جهدي لم يكن بيدي تغيير وضع أمي الصحي. لقد جرحني تخليك عنها، وعني، يا رويا جون. ولكن لم أجد ما أقوله حيال ذلك. إنها أمي ولم يكن من الممكن ألا تكون جزءاً من حياتنا. لم أرد الوقوف في طريق أحلامك، فاضطررت أن أتركك ترحلين. لم ترغبي في رؤيتي واحترمت رغبتك.

ولكني اليوم أقول يا ليتني قاومت أكثر من أجلك. ليتني استطعت إقناعك أنها لا ذنب لها في الأمر. ليتني أطلعتك على شيء من ماضيها وعلى ما قادها إلى ما هي عليه. ولكن خجلي الشديد وكذلك ألمي الشديد حالا دون ذلك.

يوم أخبرني جهانگير برحيلك، أحسست كأن أحدهم

سلخ جلدي، حتى إنني لا أستطيع رسم صورة لكاليفورنيا في ذهني. على كل حال يا رويا جون، إنه لأمر رائع جداً أنك هناك في أرض كاري غرانت ولورين باكال وهمفري بوغارت وإرنست همنغواي والرئيس أيزنهاور. لا أذكر مشاهير أمريكيين آخرين، ولن أذكر وكالة الاستخبارات المركزية، تهذباً، رغم أني أحس بدمي يفور كلما تذكرت أنه كان لهم يد في الانقلاب. أريد أن أفرح لك لكونك هناك في أمريكا، وأنا حقاً كذلك، ولكن ما فعلته بنا حكومة وطنك الجديد. . . ستظهر البينة على ذلك يوماً، يومئذ سيعرف العالم أن الحكومة التي هناك أسقطت الحكومة التي هنا. ولماذا؟ أزهقت الأرواح وعانى الناس؛ هل كان الأمر يستحق كل هذا؟

لن أفهم أبداً تحول الأحداث الذي حدث لنا عام 1953. أعني في حياتنا نحن الاثنين، ناهيك عن بلادنا برمتها. لن أستوعب الأمر ولو عمرت قرناً.

إننا، حسب ظني، قضية خاسرة في هذه البلاد.

ما الذي تعلمه جيلنا في ذلك الصيف؟ لقد تعلمنا أنه مهما فعلنا من أمور صائبة لإحداث تغييرات سياسية، فإن القوى الأجنبية والإيرانيين الفاسدين قد ينسفون كل ذلك في يوم واحد وفي عشية واحدة.

لا أفتأ أتذكر أحداث الثامن والعشرين من مرداد (أو التاسع عشر من أغسطس حسب تقويمكم الغربي) مراراً وتكراراً. وإلى يومنا هذا، ما زلت أرغب في لقائك في ذلك الميدان، فأشعر بالقرب منك وأحضنك. يومئذ كنا

نزمع الذهاب إلى مكتب المأذون، وكنت قد خططت لكل شيء من اللقاء إلى لحظة وصولنا إلى المكتب، وحتى المأذون الشرعي الذي كنت قد اتفقت معه على كتب كتابنا قال لي إننا سنجده في انتظارنا بالوثائق اللازمة.

لا بد أن جهانگير أخبرك أنني أشتغل في شركة النفط. لقد غدوت سناً من أسنان دولاب الرأسمالية بدوري. هكذا هي الحياة؛ ما نصبحه لا يتطابق دائماً مع توقّعاتنا لما كنا نريد أن نصبح حين كنا صغاراً.

لقد دأب السيد فخري، رحمه الله، على مناداتي بـ«الفتى الذي سيغيّر العالم». أتذكر كيف كنت فتى مثالياً فلا أجدني محرجاً بقدر ما أنا مكلوم لما صرت عليه.

وددت لو كان في يدي أن أخلي الدنيا من الأحزان التي تسكن دروبها. أريد أن أتقبل أنك أخذت قراراتك لأسباب وجيهة. ستصيرين عالمة بعد كل هذا، ولا يسعني إلا أن أتمنى لك العافية والسعادة. صدقاً.

في الأخير يا رويا جون صدقيني إن قلت لك إني سأصبح أباً في الشتاء القادم. اعتقدتُ أن أمي ستفرح بهذا النبأ، بيد أنها فاجأتني بهدوئها وانعزالها.

عندما سيولد الطفل بإذن الله، سيكون قد مر أربع سنين ونصف على اليوم الذي انتظرتك فيه في الميدان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل التاسع عشر

1957

دروس في الطبخ

قط لم تتعلم رويا الأكل كما يأكل الأمريكيون.

هي ترعرعت في طهران؛ أبلت طفولتها في شوارعها، وتعلّمت في مدارسها، ثم انفطر قلبها وسط أحد أشهر ميادينها. طردت من ذهنها تلك الفترة من تاريخها التي كانت فيها مغرمة ببهمان.

ولكنها، ولدهشتها، وجدت صعوبة في التكيّف مع الطعام الأمريكي أكثر مما توقعت. فهذا الدجاج كأنه المطاط، وذلك اللحم أحياناً وردي اللون، وهذه البطاطا يهرسونها مع الحليب. ومع ذلك، فالأختان كانتا تتعاملان بأدب إزاء الأطباق التي تعدها السيدة كيشبو في البيت الداخلي. ثم كيف كان لهما أن تعترضا؟ لا ينبغي لهما الجحود والغلظة. ومع هذا فرويا لم تفتأ تحن إلى الطعام الفارسي.

خرجت مع والتر في موعد غرامي مزدوج بمعية زاري وجاك بعد أشهر من لقائهما الأول في المقهى. رفض جاك الذهاب إلى «مطعم باذخ» كما أسماه، فذهبوا إلى محل يقدم الهامبرغر ورقائق البطاطا المقلية ومخفوق الحليب. ولما أخذت رويا السكين والشوكة

وأخذت تقطع الهامبرغر، استند جاك على ظهر كرسيه ودخن وهو يحدق فيها ويهز رأسه قائلاً: «غير معقول!».

شهقت في ذهول لما رأت سائلاً زهرياً يخرج من قلب الهامبرغر.

قال لها جاك مدخّناً سيجارته: «وماذا تأكلون في إيران؟ هامبرغر الخروف؟».

ضحكت زاري. «يا لسخافتك يا جاك!».

كان صندوق الموسيقى يصدح بإحدى أغاني روزماري كلوني، وكان المكان ساطع الإضاءة وكانوا جالسين على مقاعد بلاستيكية منفوخة فشعرت رويا كأنها تجلس على بالونة لزقة.

- «في الحقيقة، لست مخطئاً»، قالت رويا.

كانت لا تزال تجد صعوبة في صياغة جمل بالإنجليزية أحياناً، بيد أن مستواها تحسّن كثيراً.

- «لدينا كباب الخروف المفروم، ولكننا لا نضعه في الخبز كما تفعلون (ورفعت رغيف خبز الهامبرغر الرطب)، كبابنا أطول وأرق من هذا؛ إنه مثل الأنبوب»، أضافت رويا.

- «فعلاً؟»، قال جاك نافثاً الدخان من جنب فمه ومبتسماً في تهكم.

- «أعتقد أن حضارة فارس القديمة تشتهر بمطبخها اللذيذ المعطر»، قال والتر.

- «صحيح يا صاح؟ سَمِّ لي طبقاً آخر من ذلك المطبخ اللذيذ المعطر».

- «حسنٌ، أعتقد أن. . .».

- «لديهم الكباب! هذا كل ما لديهم»، أصر جاك.

تبادلت رويا وزاري النظرات. لا، كلا، يا غلام. كلا وألف كلا. تمنت رويا لو أسعفتها إنجليزيتها حتى تستطيع إثخان أذنيه بلائحة من الأطباق التي اشتهت أكلها لحظتها: دجاج منقوع في الليمون والزعفران وموضوع فوق أرز البسمتي ويرش عليه شظايا اللوز وحبات البربريس (ذلك الطبق الذي أحبه الضيوف في حياتها السابقة يوم حفل خطبتها)؛ و**الخورش** بالرمان والجوز؛ والباذنجان المقلي مع البندورة والعنب المر واللحم والمقدم مع الأرز؛ وشوربة **الآش** بالخضر والفاصوليا؛ و**قورمه سبزي**[1] التي تعدها أمها؛ وورق العنب المحشو بكفتة العجل والأعشاب الذي يلف باليد ويطهى مع حب الهال.

ضغطت رويا رغيف الخبز بيدها فتمزق إلى أفتات وقالت: «ستأتيان إلى مسكننا. سنطلب إذن السيدة كيشبو، صاحبة البيت، ونطبخ لكما».

«كلا»، قالت زاري وهزت رأسها، «لا يسمح لنا بالطبخ هناك».

«سنطبخ لكما»، كررت رويا وحدجت زاري بنظرة.

أشرق والتر بابتسامة قائلاً: «عظيم، فكرة رائعة. سأستمتع بهذا كثيراً!».

«بالتأكيد يا غر»، قال جاك ولف ذراعه حول كتفي زاري مردفاً: «أما أنا فاعفياني من درس الطبخ إن لم يضركما هذا، فها هو ذا مطبخي الفارسي المعطر»، وشد ذراعه على زاري.

---

(1) **خورش** من السبانخ والكزبرة والبقدونس والبصل مع اللحم - المترجم.

احمرت وجنتا زاري وتيبست لدقيقة ثم ذابت في حضنه.

ركز والتر على طبقه وابتلع ريقه.

- «فلتأتِ أنت إذاً يا والتر، سأطبخ لك»، قالت رويا.

كان درسهم الأول مساء أحد أيام السبت. ذلك أن السيدة كيشبو تتولى الطبخ للنازلات عندها خلال أيام الأسبوع وأيام الآحاد، عدا السبت الذي تعتمد فيه كل نازلة على نفسها. ومعظمهن يخرجن في مواعيد غرامية يوم السبت على كل حال، بينما تستمتع السيدة كيشبو بزيارة ابنتها فترجع بحكايات طريفة عن أفاعيل أحفادها. كانت رويا قد طلبت إذنها لاستعمال المطبخ فقبلت شرط أن تنظف كل شيء، فلا تترك بقعة إلا مسحتها، وتجعل المكان كما لو لم يستعمل.

كانت زاري يومئذ خارجة مع جاك لمشاهدة فيلم **متمرد بلا قضية** لجيمس دين. شخرت رويا في ازدراء عند سماع عنوان الفيلم وقالت إنه مناسب لكليهما. أما هي فكانت قد هيأت لتلك الليلة بعناية. ففي مستهل الأسبوع، كانت قد أقامت حجة إلى محل بقالة تركي-أرميني في سان فرانسيسكو، بعدما تلاشت صلتها بالتوابل الإيرانية منذ حطت رحالها في كاليفورنيا. كانت قد قابلت فتاة تدعى سيدا كبابجيان في مختبر الكيمياء بالكلية فغدتا صديقتين (في الحقيقة، شعرت رويا بالدفء تجاهها من فورها لوجود كلمة كباب في كنيتها). وفي يوم كانتا تغسلان الدوارق في حوض المختبر، أخبرت سيدا صديقتها أن عمها فتح محل بقالة في مقاطعة ريتشموند في سان فرانسيسكو حيث يبيع التوابل والشاي والمربيات من الديار

فملأتها النشوة لدى سماعها ذلك حتى أفاضت دورقها وهمست لصاحبتها:

- «خذيني إلى هناك».

ولما وصلتا إلى المحل الصغير في المدينة، دلفت رويا إلى الداخل فأغمضت عينيها واستنشقت رائحة ذلك المزيج المألوف من الروائح، ثم فتحتهما وفجأة غزتها رغبة في افتراس المحل بأسره. أرادت أن تجمع كل ما على الرفوف في تنورتها وتفر حاملة مرطباناً من كل التوابل التي اشتاقت إليها. شعرت آنئذ أن قطعة منها قد عادت إلى الديار.

اشترت البازلاء الصفراء المفرومة؛ وحب الهال؛ والكمون؛ والقرفة (وكانت القرفة هناك ذات رائحة أقرب إلى القرفة **الحقيقية** من أي أخرى وجدتها في أمريكا)؛ وبتائل الورد المهشمة؛ وماء الورد؛ وماء زهر البرتقال؛ ثم إن المحل كان يعرض الليمون المجفف الفارسي الأصيل وخيوط الزعفران! (هل كانت في حلم؟). أخذت من كل المكونات بنهمٍ، حيث إن بابا كان لا يتأخر عن إرسال النقود إلى أمريكا متى ما وسعه، وها هي أنفقت في رحلة واحدة توماناته التي كسبها بجهد.

كانت رائحة الصابون وعطر ما بعد الحلاقة تفوح من والتر عندما وصل ليلة السبت لدرس الطبخ. كان يرتدي سرواله الصوفي وسترة البليزر الزرقاء وقبعة، فلما خلعها بان أنه كان قد غسل شعره وصففه بعناية من أجل هذه المناسبة.

ساقته رويا إلى المطبخ وتورعت عن التعليق على عدم خلعه حذاءه. لم يكن لذلك داعٍ في منزل السيدة كيشبو على كل حال، فلا أحد في هذه البلاد يخلع حذاءه عند الدخول من الباب، وقد كان أمراً غريباً عليها ومثيراً للاشمئزاز بعض الشيء، بيد أنها تكيفت مع الوضع.

قدمت له كرسياً وسألته عما يريد شربه.

- «شكراً لك، سآخذ كوكا كولا إن لم يكن في الأمر إزعاج».

لو كان والتر إيرانياً لقال: **كلا، شكراً لك، لا أريد أن أزعجك، لا بأس**. ولكررت سؤالها ولكرر هو تعففه وشكره لعرضها ثم لقدمت له الشاي الذي كانت قد غلته أصلاً، ولهيأت له وعاء من المكسرات وطبقاً من الفاكهة وصينية مليئة ببسكويت الحمص وحلويات أخرى. لو كان إيرانياً، لكدست له الفاكهة في طبق ولقشرت له الخيار وسكبت له الشاي في **الاستكان** وقدمت له مكعبات السكر ليضعها بين أسنانه وهو يرتشف الشاي الساخن. في البداية، رغبت في فعل كل هذه الأشياء لكل من يزورها في بيت السيدة كيشبو، للزميلات اللاتي كن يأتين للمذاكرة وحتى لجاك صاحب زاري. ولكن صلاحياتها كانت محدودة في هذا البيت الذي لم يكن بيتها؛ في بيت ليس في مطبخه الساموفار، وفي أرض لا يصنف أهلها الخيار في فئة الفواكه، ولا يرون أن الفواكه يجب أن يأكل منها قدر كبير قبل العشاء. وعندما زارتها سيدا كبابجيان لمراجعة الملاحظات التي دونتاها في مختبر الكيمياء، اعتذرت لها رويا عن عدم قدرتها على حسن استضافتها، فهزت سيدا يدها وقالت: «كفاك! ليس الأمر كذلك هنا، ليس الأمر هنا كما في ديارينا. لا داعي للإلحاح المستمر في الدعوة والتزلف، فالضيف إن

دعوته لطعام أو شراب قَبِلَ، فلا داعي للقلق كثيراً بشأن التصرف كالمستضيفة المثالية».

واعتباراً لهذا، لم تجد رويا في رد والتر «شكراً لك، سآخذ كوكا كولا إن لم يكن في الأمر إزعاج» غرابة، ذلك أنها عاشت هنا لما يفوق العام وباتت تعرف الآن هؤلاء الأمريكيين بما يكفي. باتت تعرف أن عدم تعفف والتر بأدب في البداية لم يكن من ضرب الفجاجة، وباتت تعرف أن أصول التعارف الفارسي - تلك الطقوس من العرض والرفض المتواصلة، وعادة ما تعززه كلمات منمقة وإطراء مبالغ فيه - لم يكن نفسه القاعدة هنا في أمريكا.

عادت بالكوكا كولا. كانت النازلات الأخريات خارج البيت وكذلك السيدة كيشبو، فبقي لها ولوالتر البيت ومطبخه لهما وحدهما. كان وجودها معه وحدهما في بيت كبير أمراً غير معهود، ولو أنهما في إيران لما سُمح لهما بذلك قط. ولكن هذا كان والتر. كان حسن السلوك ولم يكن ليفرض نفسه عليها قط. ثم ما برحت أن طردت هذه الأفكار من ذهنها وقالت: «هيا، لقد حان وقت الطبخ، أليس كذلك؟».

تبعها إلى المطبخ حيث كانت قد هيأت كل ما يلزم من مكونات قبل وصوله، فأرته إياها وشرحت له بعض الأمور عن الأكلة التي ستطبخها.

- «سنعد **خورش بادمجان**. في العادة نعدها بلحم العجل».

هز رأسه.

احمرّ وجهها إذ استطردت: «ولكن بما أنني لم أستطع توفير العجل فسنعدها بالدجاج اليوم».

تبسم قائلاً: «خطة جيدة!».

شرحت بصلة وقطعتها وقلتها في قدر كبير إلى أن صارت شفافة، ثم أخذت هاوناً ومدقة، كانت السيدة كيشبو تضعهما على الرف العلوي، فهشمت خيوط الزعفران الثمينة إلى أن استحالت مسحوقاً رقيقاً.

جلس والتر إلى طاولة المطبخ وأخذ يتفرج بتعابير مسرورة وقال: «لو رأيت أمي وهي تعد المشوي أيام الأحد، هي أيضاً تحب الطبخ».

- «فعلاً؟ انظر الآن هذا هو الزعفران. أترى كيف... يسحق؟».

وضغطت خيوط الزعفران بالمدقة على قاع الهاون قائلة: «أترى؟».

- «بالتأكيد، أراه كيف يسحق. هذا جميل».

بدأ خجلها ينقشع مع تغلغلها في الدرس وشعرت بالارتياح كما حدث لها في المقهى وخلال مواعيدهما - على قلتها - رفقة زاري وجاك. لم تكن قط تنوي قضاء وقت في أمريكا مع شخص مرح كهذا، إذ كانت تجد في المرح الزائد ما ينفر، لما يستبطن من زيف. ثم كيف يقدر هؤلاء الأمريكيون على المحافظة على روح المرح أناء الليل وأطراف النهار؟ لا بد أن للأمر علاقة بحداثة بلادهم، للأمر علاقة بذلك الفيض من الحريات. فهم ليس لهم تاريخ من آلاف السنين ورثوا منه قواعد سخيفة لزم عليهم اتباعها. لا شيء من ذلك. هنا، الكل يسبح مع التيار بسهولة. ومع ذلك فقد استأنست بهذا المرح. لقد استلطفت والتر وأعطاها مزاجه الإيجابي شعوراً بالارتياح.

تذكرت فجأة بهمان ولكنها سرعان ما طردته من ذهنها، فقد كان من السخافة أن تسمح لإحساس خطير كهذا بالنفاذ إلى قلبها من جديد.

أضافت إلى الزعفران بضع معالق صغيرة من الماء الساخن. والتر لم يكن مهتماً بوصفتها بالقدر الذي أظهره ولكنه كان يومئ من رأسه وهي منهمكة في طبخها مبدياً اهتمام من يشاهد حدثاً بارزاً، ثم وقف وقال بلطف: «هل تودين أن أقطع لك الدجاج؟».

لم تكن تتوقع منه أن يشاركها فيما تفعل، فبابا لا يطبخ. الرجال في إيران يحبون الأكل لا الطبخ؛ فنادرون هم الرجال الذين رأتهم رويا يطبخون. صدقاً لم تر قط رجلاً يطبخ إلى أن... بالطبع نالها من الذهول الشيء الكثير لما رأت السيد أصلان وبهمان يدخلان ويخرجان من المطبخ في بيتهم. ولكن هما لم يكن لهما خيار آخر فالسيدة أصلان كانت مريضة وكانت نوبات تقلب المزاج تعجزها. تناولت رويا سكيناً فغسلته ووالتر ينتظرها ليقدم لها المساعدة. كانت لها أمور تشغلها هنا أهم من التفكير في شخص آخر. فمدت السكين لوالتر وأقبلت عليه تشرح له الطريقة الصحيحة لتقطيع الدجاج، على قدر ما أسعفتها اللغة في ذلك.

اتبع تعليماتها وحرص على ألا يلمس السكينُ الملطخ شيئاً آخر غير الدجاج، ولما فرغ من التقطيع غسل يديه بالصابون. انبهرت رويا من مواظبته وانتباهه في عمله؛ حتى إنه كان أولى اهتماماً كبيراً لأحجام قطع الدجاج لأنه كان يدرك أن ذلك أمر مهم بالنسبة لها، فتأثرت بحرص هذا الرجل واكتراثه.

وضعت رويا قطع الدجاج في القدر الذي قلت فيه البصل فأصدرت هسهسة إذ تفاعلت مع الحرارة. كانا يقفان جنباً إلى

جنب، لكن دون لمس. والحق أنها لم تلمس والتر قط باستثناء تلك المصافحة يوم التقيا للمرة الأولى في المقهى. لقد كان رجلاً محترماً جداً في جميع مواعيدهما.

- «والآن نضيف الملح والفلفل. ثم المكون السري».

شعرت بالحر وهي تقف قرب الموقد، لكن كان عليها المحافظة على تركيزها.

- «وما يكون هذا المكون السري؟».

- «إنه... الكركم».

لم تعرف النطق الصحيح للكلمة. لمعت عيناه، ولكنها لم تدر إن كانت نطقت الكلمة نطقاً صحيحاً أم أن والتر لم يستطع تبين ماهية هذا الكركم. ثم نثرت البهار الأصفر على الدجاج المقلي بسخاء.

- «لا شك عندي أن هذه الأكلة ستكون مختلفة عن أي طعام ذقته من قبل».

- «والآن نغرق الدجاج والبصل بالماء».

- «نعم لقد دونت ذلك».

- «لا أراك تكتب شيئاً».

- «كل شيء هنا». وأشار إلى رأسه.

- «نترك الماء يغلي ثم بعد ذلك نقلل من النار حتى يمكن للدجاج أممم... ماذا تسمون ذلك؟ يُطبخ... بلطف؟».

- «يُطبخ على نار هادئة؟».

- «نعم. هذا هو».

رأتها عبارة كبيرة ليس لطولها وإنما لأنها كانت من نوع العبارات التي تجعلها تشعر وكأنها من الناطقين المحليين، ثم أي امرأة إيرانية

تقضي ما يقل عن عامين في هذا البلد ثم تتجول وتقول: «يُطبخ على نار هادئة»؟ لقد كانت في طريقها لتصبح محترفة في هذه اللغة.

- «والآن بينما يطبخ الدجاج على نار هادئة - وحرصت على تصريف الفعل في الزمن الصحيح - سنقطع نحن الباذنجان ونشرحه، ثم نملحه فنشطفه ونجففه ونقليه. اتفقنا؟».

- «نعم بالتأكيد».

قشرا الباذنجان سوياً ثم أعطاها الحبات التي قشرها وأخذ يراقبها وهي تشرح كل حبة. تناول السكين بروية سائلاً بذلك إن كان له أن يشارك في التشريح فسمحت له وهي منبهرة. اشتغل بعناية متبعاً تعليماتها بحرصٍ كبير. أدركت رويا أن تمليح الباذنجان سيستغرق دهراً إن اتبعت في ذلك أسلوب ماما وكازب في مطبخهم في طهران، حيث تنتظران أن تذهب عنه المرارة. لذلك أخذت الشرائح من والتر ووضعتها في مقلاة أخرى كانت قد وضعت الزيت يغلي فيها. كانا يشتغلان في صمت وانسجام؛ والتر يقشر ويشرح ورويا تضع في المقلاة وتقلي، بينما الدجاج يطبخ على نار هادئة.

- «نضيف إلى الدجاج القرفة وحب الهال وماء الزعفران والبندورة المقطعة».

انطلقت إلى المضرم على يسار الموقد حارصة على ألا تحتك بوالتر، ولما رفعت غطاء القدر تصاعدت أمواج البخار وخضبت وجهها وعنقها فشعرت بالدفء والحرج، إذ تعلم أنه يشاهدها.

- «الزعفران الممزوج بالماء أشبه بالذهب السائل، أليس كذلك؟ نسميه الذهب السائل».

بدت عليه الحيرة.

- «ذلك أن الزعفران مكلف جداً، فهمت؟».

- «فهمت».

- «أما زال كل شيء هنا؟»، وأشارت ضاحكة إلى رأسها تماماً كما فعل هو من قبل.

- «نعم». كان يحدق فيها ثم وضع يده على صدره وأردف: «وهنا، كل شيء هنا».

تكثف البخار الذي صعد إليها من القدر واستحال قطرات مياه على وجهها، أحست بها تجري على وجهها وعنقها. قالت في نفسها إن هذا يجب أن يتوقف، لا يمكن لها أن تغرم برجل مرة أخرى، وإن كان والتر هذا مختلفاً جداً عن الفتى الذي خانها. خطفت حبة ليمون إيراني ووضعتها على الطاولة بحزم وضربتها بالسكين بقوة فاخترقت قشرته شقة مسننة.

تراجع والتر من الموقد ومنها مذهولاً: «واووو!».

ردت بحدة: «أحياناً يجب عليك أن تقطع بقوة لتخرج النكهة»، ثم ابتعدت عنه وأضافت: «والآن، دعنا نطهو الأرز».

نزل الليل فجلسا في غرفة الطعام. قالت له وهي تسكب له طبقاً من **الخورش** بالدجاج والباذنجان الذي تعاونا على إعداده: «تذوق من فضلك».

كانت أكلة تعلمت إعدادها بجانب والدتها في إيران. تحرص كازب دائماً على انتقاء الخضر الطازجة في السوق، وأحياناً تذبح الدجاج في فنائهم حيث يجفف الليمون تحت الشمس قرب مرشة السقي في الحديقة، وأمها جالسة على ركبتيها تخلط التوابل. وفي ليالي الشتاء يجلسون جميعاً، هي وبابا وماما وزاري، واضعين

أقدامهم تحت الكرسي[1] ويتشاركون أحداث يومهم وهم يأكلون.

رفع والتر ملعقة من **الخورش**، من ماضيها. وهذا **الخورش**، إن أُحسن طبخه، كان مزيجاً من الحلاوة والحموضة؛ تركيبة عطرة وشهية من النكهات.

انتظرته حتى يتذوقها.

- «رائع!»، قال، ثم أخذ لقمة أخرى مضيفاً: «رباه!».

وهناك في غرفة الطعام بمنزل السيدة كيشبو، كان لا يلقم لقمة إلا سقطت معها طبقة أخرى من ذلك الدرع المتين الذي وضعته رويا بينها وبين الرجال.

(1) أثاث إيراني وهو طاولة حانية مغطاة بالملاءات حيث تجتمع عليه الأسرة، في البرد غالباً، واضعين أقدامهم تحته - المترجم.

الفصل العشرون

1959-1957

قائمة المهام

باتت ليالي السبت لا تمر دون حضور والتر عند مائدة رويا في غرفة الطعام يتذوق ما تطبخه من أطباق. ولما سمعت زاري بذلك الطقس الأسبوعي، لطمت جانب فمها قائلة: «يا حلاوة! تطبخين له وهو يلتهم ما تطبخين!».

- «شيء من هذا»، همهمت رويا.

سكنت نفسها لذلك الفتى شبيه تان تان الذي دخل يمشي الهوينى إلى مقهى كاليفورنيا، والذي قال لها «خطة جيدة؟»، والذي تشابهت لها ذكرياته عن صيف الكركند وشتاء التزلج مع فيلم أمريكي في سينما متروبول. حتى توددهما ببعضهما لم يكن ينبغي حدوثه. لقد كانت علاقتهما مبنية على حسن النية والاطمئنان المتبادل. كان يفترض أن يكون درساً عن المطبخ الفارسي في مطبخ السيدة كيشبو. لم يكن يفترض بها أن تنجذب إلى رصانته.

بعد نحو عام من ذلك الدرس الأول، طلب يدها في إحدى ليالي السبت بعد وجبة من **التهديج**[1] و**القورمه سبزي** حينئذ عاودها

(1) الأرز المحترق أو الأرز المقرمش وهو من أشهر طرق عمل الأرز في إيران - المترجم.

ذلك الشعور بانسلاخ روحها عن جسدها كما لو أنها تحوم فوق المشهد، أو تشاهَد فتاة في أحد الأفلام تمثل دورها. وجدت صعوبة في التنفس، وتركت طلبه معلقاً في الهواء للحظة ورائحة الزبدة الذائبة والزعفران والأرز في أنفاسه.

كانت ترى أن كل ما حصل من غزل لطيف ومشاعر أحدهما للآخر المتزايدة والوعد بحياة جديدة في نيو إنجلاند، ترى كل ذلك كسيناريو كُتِب لشخص آخر. شخص آخر أفضل منها تأهيلاً للدخول في علاقة، وأقل منها انكساراً وغربة.

- «هل تقبلين الزواج مني، يا رويا جون؟».

كانت قد علمته كلمة التحبب بالفارسية، وقد نطقها بالشكل الصحيح وهما على المائدة في غرفة الطعام ذلك المساء.

اشتعلت وجنتاها وأذناها احمراراً، وصارت في حال إنذار بل في حال ذعر. فقد كانت تلك الكلمات تقال في الأفلام، وهي تشبه كلمات قيلت لها بلغة أخرى قبل حين من الدهر.

«فكري في الأمر: رويا. آرتشر». نطق والتر الاسمين ببطء وبصورة منهجية، وكأنه تدرب على نطقهما الواحد إثر الآخر. «يمكننا الانتقال إلى الشرق، لقد قُبل ترشحي في جامعة بوسطن! يمكنك العمل في مختبر بينما أتابع أنا الدراسة في كلية الحقوق. هناك مستشفيات وجامعات كثيرة، ويمكنك الحصول على الوظيفة التي تريدينها. رويا، أريد أن أقضي معك بقية حياتي. وإن احتجت الوقت... اسمعيني، قد أكون...».

- «نعم».

كانت كلمة خاطفة كلمح البصر.

أعادت ذلك المشهد في ذهنها فيما بعد: طلب يدها للزواج

فوافقت. تذكرت عندما لامت بهمان لأنه هرع إلى الحياة التي خطتها له أمه. ربما كان كلاهما يسلك قدره المدوّن على جبينه بالحبر الخفي.

عانقها فشعرت بدفء أنفاسه على عنقها، كانت أنفاساً والترية. كان مثاراً للغاية لما وافقت! كان مهتاجاً ومتورداً، حتى أنه كاد يتعثر عند الباب حين استدار ليضمها مرة أخرى.

لبثت، بعد رحيله تلك الليلة، جامدة في غرفة جلوس السيدة كيشبو وسط الظلام. كان باقي النازلات، ومن جملتهن زاري، لا يزلن في مواعيد ليلة السبت، والسيدة كيشبو لم تكن قد عادت بعد من زيارة ابنتها وأحفادها.

- «ما أجمل القمر في الخارج!»، قالت زاري إذ عادت أخيراً إلى البيت. دخلت إلى غرفة الجلوس وقد كان صوتها دائخاً من موعدها مع جاك. وكانت رويا دائماً تستطيع استشعار الهالة التي تلتصق بأختها بعد لقاء جاك.

قالت زاري: «لو سمعت جاك هذه الليلة يا أختي!». لمع أحمر شفاهها الياقوتي تحت خيط رقيق من نور القمر تسلل عبر النافذة. «ما يجلسك هنا في الظلام؟ ما أطيب الرائحة في هذا المنزل! هل أعددت القورمه سبزي؟».

أومأت رويا لكنها لم تدر إن كانت أختها قد رأت ذلك. ثم سمعت زاري تقول وهي ترمي حذاءها الفردة تلو الأخرى: «هذا الحذاء يؤلمني. أخبرك بشيء؟ لقد كتب جاك قصيدة تبدأ كل أبياتها بالحرف «P» باستثناء البيت الثالث قبل الأخير الذي جعله يبدأ بـ«Z». أليس هذا ذكاء؟».

- «عبقرية».

- «وأنت كيف كانت ليلتك مع والتر؟ هل علمته طبخ **القورمه سبزي**؟».

- «سأتزوجه».

وقفت زاري جامدة: «ماذا قلت؟».

- «سمعت جيداً».

- «ومتى ذلك؟».

هزت رويا كتفيها.

وثبت زاري إلى أختها تعانقها فشمت فيها الأخيرة عطر جاك. بالطبع زاري كانت تريد التفاصيل. كانت تريد أن تقضيا الليل تحللان كل لحظة من لحظات ذلك المساء: كيف طلب يدها؛ وماذا قال. أرادت أن تستقرأ لها كل شيء كلمة كلمة. ولكن لم يكن هناك ما تخبرها. طلب منها الزواج فقبلت. هذا كل ما في الأمر.

ربتت رويا على ظهر زاري قائلة: «تصبحين على خير يا زاري». ذلك أنها لم تكن مستعدة لثرثرتها؛ لقد كانت مرهقة.

- «يا إلهي، أختي! متزوجة! من يصدق هذا؟ يجب أن نخبر ماما وبابا. هل أخبرتهما؟ هل استأذنتهما؟ هل سترجعين إلى إيران لإقامة عرس؟ كيف سيأتيان إلى هنا؟ ماذا سنفعل؟ متى سيكون العرس؟ يمكنني مساعدتك. هل تريدين إقامته هنا في كاليفورنيا؟ هل نخبر السيدة كيشبو؟ هل ستنتقلين معه إلى بوسطن بعد التخرج؟ ماذا سأفعل من غيرك يا أختي؟ سنفترق لأول مرة في حياتنا. تدرين أنني سأبقى هنا أليس كذلك؟ قالت لي السيدة كيشبو أن بوسعي البقاء هنا حتى بعد التخرج. أعني، لا أعرف كيف ستتطور الأمور مع جاك.

يريد كتابة الشعر ويقول إن العيش في سان فرانسيسكو مكلف جداً. ستحتاجين فستاناً يا أختي! سيتعين عليك أن تكلمي بابا. يا إلهي! والتر! زوج أمريكي! يجب أن تهيئي قائمة بالأشياء التي يجب عليك فعلها. ستحتاجين قائمة. لا بأس، سأعدها عنك».

- «رويدك، رويدك».

أحست رويا بدوران رأسها. كانت زاري تتكلم من دون توقف. كان كل شيء يحدث بسرعة كبيرة. فاحت من أنفاس والتر رائحة الزعفران والزبدة. وكان **التهديج** ذهبي اللون ومقرمشاً، وكان مكملاً مثالياً **للقورمه سبزي**. كانت قلقة من أن يحترق ويلتصق بقعر قدر السيدة كيشبو القديم ولكنه انزلق منه بسهولة فتفاجأت من ذلك. لم تفكر في أمر الفستان، ولا في أمر قائمة الطعام. أرادت أن تسند رأسها على كرسي السيدة كيشبو وتبكي. كانت مرهقة. سمعت زاري تقول شيئاً عن حفل خطبة، وإن كانت ستقيم حفلاً أم لا. وإن أقامته، فربما تدعوان أصدقاءهما من قسم الكيمياء، وهلم جرا. لم تكن رويا في حاجة إلى حفل خطبة. تسلل حزام رقيق من نور القمر من النافذة بينما ظل باقي الغرفة في الظلام.

- «نامي يا أختي فقد تأخر الوقت. سنتدبر الأمر لاحقاً»، قالت رويا.

ثرثرت زاري أموراً أخرى عن الورد ومكالمات هاتفية والتنانير وجاك ثم نهضت ومشت إلى الباب في الظلام فتحسست فردتي حذائها فعلقتهما في أصابعها وهي خارجة. وقبل أن تخرج من الغرفة، قالت: «أتدرين معنى هذا؟ يعني أننا تخلصنا من ذلك الفتى نهائياً!».

غادرت زاري فتراقصت الظلال كالدانتيل على بلاط غرفة

الجلوس. لم تستطع رويا طرد مسألة قائمة المهام من فكرها. كم من الطرود ستحتاج لحزم أمتعتها للسفر إلى نيو إنجلاند؟ ستحتاج إلى شراء معطف سميك بالطبع. وسيتعين عليها الاتصال بوالديها وإخبارهما. سيرغب بابا في لقاء والتر. كان ينبغي أن يعطي موافقته أولاً؛ لقد أخطأت في تصرفها هذا. لقد وافقت قبل أن يوافق والدها. ولكن هذه البلاد كل شيء فيها ملخبط ثم إن بُعد المسافة عن إيران لم يبق لها خيار. ومن يدري، قد يفرحان إن علما أنها خطبت، فكانا قلقين من أنها لن تتزوج بعد انفصالها عن بهمان.

لم تتضرر الضرر الذي كانت لتلقاه لو كانت مطلقة، لا قدّر الله، ومع ذلك، فقد شطبا على خيار الزواج، أو هي فعلت. نُظر إلى خطبتها المفسوخة في العلن ولفت ألسن دوائرهم الاجتماعية لمدة من الزمن. بيد أن والتر أمريكي، ويعيش هنا في هذه البلاد. والأمور مختلفة هنا. لعل كل ذلك كان مقيداً في النص؛ في القدر المدون على الجبين.

ستحتاج إلى فستان بالتأكيد. كانت زاري على حق. فأضافته إلى قائمة المهام.

والتر اللطيف والعزيز هذا كان طيباً جداً، أليس كذلك؟ وهو لن يخونها أبداً. وأمه، لقد أحبتها. كانت قد التقتها في إحدى عطل نهاية الأسبوع، فألفتها متحفظة ولكن مهذبة. ظلت تقول إن والد والتر كان ليود أن يكون معهم. أما أخته باتريسيا فأظهرت بروداً ولكن والتر هز كتفيه مغمغماً «إنها نيو إنجلاند»، مبرراً بذلك سلوك أخته. أرادت رويا ألا يركز ذهنها إلا على والتر وعلى قائمة المهام.

ولكن تلك الغصة بقيت في حلقها.

تخلصنا من ذلك الفتى نهائياً.

ستعتنق حياة والتر المليئة بلفافات الكركند.

تخلصنا من ذلك الفتى نهائياً.

بيدين تفوح منهما رائحة البصل، تشبثت رويا بكرسي السيدة كيشبو وانتظرت أن تختفي تلك الغصة من حلقها حتى يتسنى لها أن تبتلع متع الحياة. ولكنها ستختفي بمرور الوقت. إن هي إلا مسألة وقت.

الأزهار القشدية تغطي الدرابزينات والطاولات في أحد فنادق كيب كود. كان الصيف في منتصفه وسماء نيو إنجلاند زرقاء ساطعة. مشت رويا في الممر كمن يوشك على الإغماء؛ كانت زاري قد ساعدتها في انتقاء فستان بأحد المحلات في سان فرانسيسكو. فستان طويل تسفله تنورة كبيرة ومنتفخة بدت فيه كالدمية. كان جزؤه العلوي من الدانتيل بينما كان الجزء السفلي من الساتان في اللون القشدي. طار بابا وماما إلى أمريكا وفي حضنهما ألفت ملاذاً وذابت بين ذراعيهما في المطار. لقد اشتاقت لهما كثيراً طوال هذا الوقت الذي فارقتهما فيه. ذلك أن لا شيء يوازي أخذ والديها بين ذراعيها واستنشاق رائحة الليمون في أمها: لا رسائلهما من إيران بالبريد الجوي، ولا صيحاتهما من وراء أثير الهاتف البعيد، ولا طلبهما أن تعدهما بأن تعتني هي وزاري كل منهما بالأخرى. كان جل شعر بابا قد تساقط وقد غدا أضأل حجماً ومنحنياً. وكانت ماما لا تزال تحتفظ باستقامة قامتها بيد أن رأسها كان قد اشتعل شيباً أكثر مما تتذكر رويا. في الفندق الأمريكي الكبير، كان والداها ضئيلين ومحتشمين. كانا يومئان ويتبسمان لوالدة والتر ويتصافحان مع أقاربه

الشقر والطول والضخام. كانا يبدوان تائهين قليلاً ودائماً في حاجة إلى الترجمة والتفسير.

- «ابتسمي يا أختي، ابتسمي!».

كانت هذه زاري تطوف حول القاعة مرتدية فستاناً من الأورجانزا الوردي الفاتح محزوم في وسطه فأظهر قوامها. كانت تضبط الديكور وتصقل مفارش الموائد، ترقص الفالس وتطوف وتتفقد الصحون. وطوال الليل كانت تجر أختها إلى حلبة الرقص وتحرص على تعديل ربطة عنق والتر.

- «تبدين جميلة يا عزيزتي. ما أجملك. آه يا والتر كم أتمنى لو كان والدك حياً»، قالت أليس، أم والتر.

قبّلت رويا والتر خلال العرس كما كان منتظراً، ولوحت بيدها للحاضرين المصفقين. ولما سئلت إن كانت تلك أسعد لحظة في حياتها، أومأت إيجاباً ووقفت ثابتة لالتقاط الصور.

تخرّج كلاهما. رويا من كلية ميلز، ووالتر من جامعة كاليفورنيا ببيركلي. كان يفترض بها أن تعود إلى إيران. فقبل التخرج بسنوات، كانوا يتناولون فطوراً من خبز البربري وجبن الفيتا ومربى الكرز الحامض، إذ قال لها بابا إنها ستصير مدام كوري أو هيلن كيلر المقبلة. لعلها تصير اليوم «سيدة عالمة» في نيو إنجلاند، عالمة ترفع الدوارق إلى ضوء المصباح وتحل المسائل وتكتشف أموراً علمية تقلب حسابات المعرفة.

اشتريا منزلاً أبيض صغيراً على طراز العمارة الاستعمارية في ضواحي بوسطن، له نوافذ ذات مصارع خضراء داكنة. كان والتر لا

يزال طالباً في كلية الحقوق ولكن والدته ساعدته في تسديد الدفعة الأولى. كان والتر يذهب أيام الأسبوع إلى جامعة بوسطن، وفي عطلة نهاية الأسبوع يخرج رويا ويجول بها في مدينتها الجديدة. كان منزلهما يبعد بنحو كيلومتر ونصف الكيلومتر عن المكان الذي بدأت فيه الثورة الأمريكية، حيث قضى المينيتمان[1] في صبيحة التاسع عشر من أبريل عام 1775، وحيث دفع الجنود الإنجليز السكان إلى الثورة. حكى والتر كل ذلك بكثير من الفخر. أخذها إلى مكان معركة كونكورد وأشار إلى نصب تذكارية حجرية تخلد ذكرى الموتى. وقفت رويا في تلك المساحة الخضراء وأخذت تتساءل إن كان سيأتي يوم تخلَّد فيه ذكرى أولئك الذين اغتيلوا في ميدان طهران في ذلك اليوم الحار من أغسطس 1953. على الأغلب لا. وهناك، فوق المساحة الخضراء ذاتها التي ولدت فيها بلادها الجديدة، فرشت رويا لحاف تنزه وأكلت لفائف الكركند واحتست جعة الزنجبيل صحبة زوجها الجديد. لسعها طعم الزنجبيل في حنجرتها. كانت تفضل الماء بدل الجعة لكن والتر قال لها إنها ستعتاد عليها فأومأت إيجاباً. نعم ستعتاد.

بطبيعة الحال، عاد والداها إلى إيران بعد العرس، فلم يسعها بذلك أن تحدث ماما وتسألها كم حبة بندورة تضيف إلى اللوبيا بولو التي كانت تعدها. لن تستطيع أن تمر بأمها وتصحبها معها في زيارة سريعة إلى السوق. لن تستطيع أن تقرأ عناوين الصحف لأبيها أو أن

---

(1) Minutemen: فرق مقاتلة عرفت بقوتها وسرعتها في النهوض للقتال في زمن قياسي ومعنى اسمهم الحرفي رجال الدقيقة. كانوا أول الفرق تصدياً للجنود الإنجليز وبهم اشتعلت الثورة الأمريكية. والاسم اليوم يطلق على عدد من الأسلحة أو الفرق المقاتلة في الجيش الأمريكي - المترجم.

تجلس معه فيضحكان من طرائف الفكاهية لوسيل بول وهي تحشي فمها بالشكولاتة. ودت أن تري والديها جهاز التلفاز الذي اشتراه والتر. ودت لو أمكنها السير إلى آخر الشارع حيث منزل ماما فتلمس خدّها وتقول لها: «انتعلي حذاءك، وهيا بنا نتمشى».

عندما تزوجت زاري من جاك، لم يأت بابا وماما من إيران لحضور العرس. ذلك أن زاري كانت قد وضعت كل الترتيبات في ثلاثة أسابيع سريعة ولم تُعلِم الضيوف إلا قبل أجل قصير. ثم إن الرحلة لحضور عرس رويا كانت مكلفة جداً عليهما ولم يكن في وسعهما الإنفاق على رحلة أخرى بعد فترة وجيزة. في حرم بيركلي وتحت أشجار الخشب الأحمر، أصر جاك على قراءة القصائد التي كان قد كتبها ثملاً. كانت رويا قد سافرت إليهما فتفرجت على المشهد وعانقت أختها وتمنت لهما ألا يقضيا جوعاً.

- «هل هو جاد بخصوص مسألة الشاعر هذه؟ إنها ليست عملاً موثوقاً».

- «ما أغلظك!»، ردت زاري ثم قالت موشوشة: «لا تقلقي يا أختي، فقد قررت أن أدخل جاك إلى عالم الإعلانات. أعتقد أنه سيحب الأمر كثيراً. إنه مبدع ويمكن له أن يسخر تلك القصائد في الدعاية».

قالت رويا وكانت لا تزال قلقة: «أتمنى ذلك!».

واستهلت كل منهما حياتها الزوجية في ساحل، فتبادلتا الرسائل وتهاتفتا أحياناً لتبادل ما جد من الأخبار. استقرت رويا واعتنقت حياتها في أقصى الشمال الشرقي، بينما طافت زاري عبر أرض كاليفورنيا مع جاك، وكانا في البداية يخرجان صحبة بعض أصدقائه للتخييم في وجهات مختلفة. بعد ذلك جاءت الأخبار إلى رويا في

رسالة: **لقد وافق جاك على قص شعره، ووافق على التقدم لوظيفة في إحدى شركات الإعلانات. يجب عليه أن يبدأ من الصفر ولكن عبقرياً مبدعاً مثله لن يلبث كثيراً في مرحلة الصفر، أليس كذلك؟**

تشوق الجميع إلى انتفاخ بطن رويا؛ تشوقوا إلى ولادة طفل. كانت أليس تتبسم بسحنة ملؤها الأمل وهي تنظر إلى خصر رويا كأنها تريده أن يملأ بالحياة. ولقد ساءها أن تخيب أملهم جميعاً.

ذات ليلة، زارتهما أخت والتر من شقتها في وسط بوسطن. طبخت رويا للعشاء رغيف اللحم وجزراً مسلوقاً، فلم ترد أن تزعج باتريسيا بالطبخ الفارسي. فعندما طبخت في المرة الماضية **خورش** الدجاج بالبرقوق، حركت باتريسيا الطعام جيئة وذهاباً في صحنها ثم تنهدت. كرهت رويا أن ينتهي المطاف بذلك الطعام في القمامة. يا للخسارة. من الواضح أن باتريسيا لم تحب طعامها، وما في ذلك بأس، ولكن ما ضارها أكثر أن أخت والتر الكبرى لم تحبها بالتأكيد.

سألت باتريسيا في تردد بعدما شمت رغيف اللحم في طبقها: «ما الجديد في حياة الزوجين الرائعين: والتر ورويا؟».

- «والتر يدرس بجد هذه الأيام. وفي الليل أيضاً».

- «إنها كلية الحقوق، فمن الطبيعي أن يفعل ذلك. لا تأخذي الأمر على محمل شخصي يا رويا. يجب عليه أن يدرس بجد. هكذا هي الأمور هنا».

- «ما قصدته هو...».

قاطعتها باتريسيا: «والتر، هل تنام جيداً؟ تأكل جيداً؟ إن شئت أحضرت لك الشواء. قد تكون استراحة جيدة من... تلك الأشياء».

- «رويا توفر لي كل ما أحتاج إليه، لا ينقصني شيء. ولكن شكراً لك على كل حال يا باتريسيا».

تبسمت ابتسامة مشدودة قائلة: «طيب، اعذرني».

استمروا في الأكل بصمت، وبعد أن مرت بضع دقائق، رفعت باتريسيا شوكتها قائلة: «إذاً؟».

- «إذاً ماذا؟»، رد والتر بضجر.

- «هل أكتبها لكما!؟ هل سأصبح عمة عما قريب؟».

أحست رويا بتثاقل جسدها.

- «في الحقيقة يا باتريسيا، ما أريدك أن تفهميه هو أن رويا امرأة عصرية. هذه 1959 بحق الرب!». تناول جرعة من شراب الجين والتونيك ثم استرسل: «رويا تريد أن تعمل في مجال العلوم، وهي تملك من المؤهلات ما يلزم كما تعلمين. إنها تقدم على الوظائف وتبحث عن عمل منذ رجعنا إلى الشرق».

لبثت شوكة باتريسيا معلقة في الهواء، ثم وضعتها على المائدة وقالت: «لا تحاضرني يا والتر، أعرف هذه الأمور فأنا أعمل أيضاً! ولكنك متزوج، فمن الطبيعي أن يكون لك أولاد، هذا كل شيء».

لم تتزوج باتريسيا قط. كانت تكبر والتر بخمسة أعوام وكانت تعمل بأحد المصارف في الحي المالي، وكان معروف عنها براعتها في الأرقام، ولكنها كانت مستاءة من أعمال السكرتارية التي اختصرت بها وظيفتها.

قال والتر: «هل أتيك بشراب آخر، يا باتريسيا؟».

بحلقت باتريسيا وتمتمت شيئاً غير مفهوم أوله والتر أنه نعم فانطلق إلى المطبخ.

- «أريد أن أعمل لعام أو عامين فقط»، قالت رويا بنبرة خنوع

عندما تركهما والتر وجهاً لوجه. لقد أثارت الأشياء التي قالتها باتريسيا أعصابها. العرس والزوج والمنزل في ضواحي المدينة هي أمور كان تحقيقها سهلاً، وقد شطبتهم من اللائحة. وأما الأولاد فقد كانوا مصدر فزع بالنسبة إليها. لم تكن مستعدة لدور الأم بعد.

قضمت باتريسيا من رغيف اللحم، مضغت وبلعت، ثم مسحت ركني فمها بمنديلها قائلة: «لا يمكن أن يسير العالم على هواك فقط لأنك في أمريكا الآن. ما هكذا تسير الأمور».

- «أدري، **بالتأكيد** أدري».

لم تقو على مقاومة قول ما قالت على الطريقة الأمريكية المتسمة بالمبالغة.

تفرست فيها باتريسيا لبضع ثوانٍ ثم غمغمت: «مسكين والتر».

كانت باتريسيا دائماً تؤكد أن أخاها أخطأ إذ فضل عروساً فارسية على الفتيات ذوات الأصول الإنجليزية البروتستانتية اللواتي في دوائرهم الاجتماعية. ولكن إصرار هذه البنت الإيرانية **على العمل**، دون سبب معقول، هو ما أجج امتعاضها.

- «لا يمكنك السيطرة على هذه الأمور. ثم إنك ينبغي لك التفكير في والتر».

عاد والتر من المطبخ وفي يده شراب مارتيني طازج قائلاً: «تفضلي يا بات!»، ولما رأى سحنة رويا، انقشعت تلك التعابير المرحة المصطنعة، فسأل: «هل فاتني شيء؟».

أخذت منه الشراب وقالت: «لا شيء يا عزيزي والتر. بعض الناس يحسبون أنهم يستطيعون تغيير أقدارهم، هذا كل ما في الأمر. يا للسذاجة والحمق».

بعد ذلك ببضعة أسابيع، عاد والتر من كلية الحقوق فقبّلها وهي تقف أمام الموقد تعد الطعام ثم قال: «أتعلمين أن أحد زملائي له أخت تعمل في كلية إدارة الأعمال وستترك الوظيفة لوضع طفلها؟».

- «هنيئاً لها».

كانت، بعد ذلك الحوار الرهيب على طاولة العشاء مع باتريسيا، قد كررت لوالتر، إذ اختليا ببعضهما، أنها لم تكن مستعدة لإنجاب الأطفال. فقال إنه يعلم ذلك وإنهما ليسا في عجلة وإنها يجب ألا تكترث لأخته.

فلماذا يذكر والتر طفل أحدهم الآن؟

- «وهذا الزميل أخبرني أن وظيفة أخته ستصبح شاغرة».

توقفت رويا عن تحريك الصلصة على الموقد.

- «اسمعيني، أعلم أنها وظيفة في كلية الأعمال وليس ذلك ما تريدين، ولكنها في النهاية وظيفة يا رويا. قلت في نفسي ربما ترين أن تقدمي لها قبل أن يسبقك آخرون، فما هي إلّا أيام حتى يُعلَن عنها رسمياً وعندها سيستقبلون آلاف الطلبات».

- «لا أريد أن أكون سكرتيرة».

تخيلت في ذهنها صورة لباتريسيا في تنورة مستقيمة وكنزة ضيقة ترقن أشياء للموظفين الرجال في البنك وهي تغلي غيظاً على طموحها المكبوح.

- «أعلم أنها ليست وظيفة في مختبر ولكنها وظيفة جيدة يا رويا».

اتضح لها جلياً أن العثور على وظيفة في مختبر أصعب بكثير مما تصورت. كانت مناصب النساء قليلة. كانت على استعداد للبداية من الصفر ولو حتى كمساعدة. ولكن لم تكن المختبرات تريدها.

عرض عليها أحد المختبرات أن تشتغل منظفة قوارير. «الدوارق وأنابيب الاختبار يجب أن تنظف يدوياً وبدقة»، قال لها الموظف الذي استجوبها. أظهرت لهم علامتها القريبة من الكمال وشهادة البكالوريوس في العلوم قسم الكيمياء. كان عام 1960 يقترب ولكنها لمست جلياً أن طلبات الرجال هي الأوفر حظاً حيثما ولت. ثم إنها رغم كل شيء، كانت وستظل الأجنبية، وكانت ضمن أقلية النساء اللواتي يرغبن في العمل، بينما كان معظم أترابها في ضواحي بوسطن سعيدات بالبقاء في المنزل والقيام بأعمال البيت والاعتناء بأزواجهن. مكتبة سُر مَن قرأ

ولما علمت باتريسيا أنها نالت وظيفة السكرتارية في كلية الأعمال قالت: «طيب، مبروك، والآن من ذا الذي سيطبخ لوالتر المسكين ويعتني به؟».

- «سأستمر في الطبخ له كما العادة يا باتريسيا، لا تقلقي».

فرمت البقدونس والكزبرة والسبانخ والنعناع فطبخت أكثف حساء آش فجلسا هي ووالتر ورفعا كأسيهما في احتفال.

ورغم استياء باتريسيا ونظرات الحزن في وجه أليس، ثبت والتر على أمره في وجه أخته وأمه واحترم رغبة رويا في الانتظار قبل دخول تجربة الإنجاب.

وخلا العام الموالي، لم يفتأ والتر يسألها بلطف من حين إلى آخر إن كانت غيرت رأيها. وهي لم تستطع إخباره أنها كانت خائفة من خلق حياة جديدة فتتعلق بها. ثم إنها لم تستطع التخلص من ذلك السؤال المشؤوم الذي يراودها: **ماذا لو حدث شيء للطفل؟**

ظلت تلك اللازمة التي سمعتها من السيدة أصلان قبل سنين ترن في ذاكرتها أحياناً وفي أغرب اللحظات: **الأطفال الرضَّع**

يموتون. فقالت في نفسها أي زوجة مجنونة هي؟ لقد أصابت باتريسيا في قولها؛ والتر مسكين فعلاً!

ظلت لسنوات تحسب أن أفدح خسارة لها هي حبها الأول. أو الكتبي الذي مات عند قدميها. لم تكن تعلم أن المستقبل يخبئ لها خسارة أكبر بكثير: خسارة ستجعل أحداث صيف 1953 تبدو وكأنها لعب أطفال.

القسم الرابع

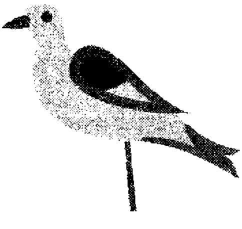

الفصل الحادي والعشرون

1958

الأطفال الرضَّع يموتون

لم أكن أتوقع أن أُرزق بولد وبنت مرة واحدة! إنه إحساس فريد بالفرحة الممزوجة بالإرهاق: إحساس بارتباط عاطفي مستبد. لقد أنهكانا. لقد باركا حياتنا وألقيا فيها الرهبة. أسأل الله أن يحفظهما ويرعاهما.

في إحدى الليالي الماضية، عدت من العمل إلى البيت فوجدت الطباخة قد أعدت طبق البيض بالثوم المشهور في قريتها في الشمال، وراح الطفلان يبكيان معاً، ولولا وجود الخدم والمربية لوقعت شهلا في حيرة لا تدري ما تفعل. جاءت أمي لزيارتنا فجلست صامتة ثم انتبذت ركناً لها.

لم أنس قط ولو كلمة من الكلمات القاسية التي كانت تخاطبك بها. كنت أشعر بالخجل من جلافتها تجاهك ومن كلماتها العنيفة والقاطعة التي كانت ترميك بها. لم أنس يوم كنت في بيتنا وأخذتت أمي تقول أشياء لتجرحك، وتكسر همتك وتلقي الرهبة في قلبك؛ يومئذٍ تيقنتُ أنها قصدت أن

تعاملك بقسوة. وأنا أتفهّم أحياناً، في أزهى أيامي، لماذا قد أنفرتك سلوكاتها.

ولكن هذا هو التاريخ الذي تجهلينه:

أنا لست بكر والدَي، ولا حتى ثاني ذريتهما ولا ثالثها ولا حتى رابعها. أنا خامس ولد أنجبته أمي، والأربعة الذين جاءوا من قبلي كلهم ماتوا. اثنان منهم ماتا أول ولادتهما بينما مات آخر في أحشائها في الشهر الثامن، أما الرابع فقد مات في عامه الأول. كان استمرار والدَي في المحاولة دليلاً على حرصهما على الإنجاب. لا أدري إن كانا قد أنجبا أولاداً آخرين من بعدي، ربما كنت صغيراً جداً فلا أذكر إن كان قد مات طفل آخر. أخبرتني أمي عن هؤلاء الأطفال الذين ماتوا في لحظة عصيبة، في يوم وددت لو محي من ذاكرتي؛ فقد كان اليوم الذي غير كل شيء في حياتنا، أنا وأنت، إن صح تعبيري.

بطبيعة الحال، لم تكن أمي المرأة الوحيدة التي فقدت أطفالها في تلك الأيام، لكن يبدو أن الأخريات تحملن الوضع على نحوٍ أفضل، أو ربما أنها فقدت الكثير من الأطفال الواحد إثر الآخر.

إن فقدان أطفالها هو ما سبّب حزنها واكتئابها وتقلبات مزاجها وعدم اتزان نفسيتها - كل هذه سبّبها فقدان أولادها.

ما كان ليدريني أنهما عاشا نوائب من قبل، وكانت تبعاتها لا تزال تحوم فوق رأسيهما؟

على كل حال، أتمنى أن تكوني على خير ما يرام هناك في أمريكا. اعتني بنفسك وحافظِ عليها. عسى أن تكوني في صحة جيدة وأن تكوني سعيدة. أما أنا، فأولادي هم من يجعلونني أمضي قدماً. هل تعلمين عمّا أتحدث؟

الفصل الثاني والعشرون

1963-1962

ماريغولد

أختي، أنا وجاك ننتظر مولودنا الأول. وتعلمت كيف أعمل خورش الباذنجان دون الباذنجان!

قرأت رويا رسالة زاري ووضعتها على مكتبها بعناية مع حزمة المهام التي ستعملها لاحقاً. ثم كتبت جواباً بالفارسية ختمته بكلمة «مبروك» باللغة الإنجليزية دبجته بالحروف الكبيرة أدنى الورقة. وهي تلصق الظرف بلعابها تبادرت إلى ذهنها أهدافها التي تبغي تحقيقها. كانت آنئذ تشغل وظيفة مساعدة مكتب في كلية إدارة الأعمال في هارفارد وقد زادت مهارتها في الترقين. لم تكن تلك الوظيفة التي أرادتها، لكن حياتها الراشدة فرضت عليها إقامة التنازلات، ذلك أنها لم تستطع تأمين وظيفة محترمة (أو أية وظيفة) في مجال العلوم رغم بحثها الحثيث. فهكذا كانت حال النساء. ثم إن مجرد إصرارها على العمل كان محاولة منها لكسر القيود، أما العمل في مجال العلوم فأمر يعني أن تأخذ وظيفة رجل ذي كفاءة. ألم يكن من المفترض أن تكون - كأجنبية - ممتنة لمجرّد إقامتها في هذا البلد؟

كانت هذه الرسالة المبهمة التي يلمح لها بها أصدقاؤها وجيرانها حسنو النية، حتى انتهى بها الأمر إلى الخفض من مستوى طموحها.

كانت هناك مسألة تؤرق ذهنها. كانت باتريسيا محقّة: يجب عليها أن تنجب ولداً. ثم ما الذي يوجس فيها الخوف؟ ما الذي يجعلها تفكر أن شراً قد يحل؟ ذهبت إلى مكتب البريد وأرسلت رسالة إلى زاري. سيفي هذا بالغرض في انتظار أن تهاتفها في وقت لاحق من الأسبوع وترسل لها هدية طبعاً. عادت إلى البيت مسرعة وهي تتذكر الأشياء التي يجب عليها فعلها، والسعادة تغمرها على ما جاء زاري وجاك.

لكنها كانت مشغولة جداً. لا تكاد تجد الوقت لتحك رأسها.

كان بهمان يزورها أحياناً في أحلامها. كان يأتيها باسماً يتضوع المسك منه وترى عينيه المليئتين بالأمل وتشعر بلمسته وترى المشهد حيث انحنى نحوها في مكتبة السيد فخري وتتذكر طعم أول قهوة إسبريسو وطعم الحلوى وإمالة ظهره بجانب ظهرها... كانت تتمنى أن ينمحي كل هذا من ذاكرتها عندما تستيقظ، فلا يجب أن تسمح لذلك الماضي أن يتطفل على نص حاضرها. في تلك الأحلام، كان دائماً يأتيها شاباً، وتبدو السعادة على محياه أحياناً.

هاتفها جهانگير في فاتح السنة الفارسية وأخبرها أن بهمان وشهلا كانا مشغولين مع طفليهما. كان لهما توأم. توأم! كانت تلك المكالمات التي تجريها مع جهانگير مرة كل عام هي بوابتها على أخبار بهمان، فماما وبابا لم يتكلما عنه قط بطبيعة الحال. خلال أول سنتين قضتهما في الولايات المتحدة، كانت رويا تتراسل مع بعض زميلاتها في المدرسة في إيران إضافة إلى اثنين من قريباتها، ولكن مع توالي الشهور توقفن عن الكتابة، فالبعد والزمن فعلا

فعلهما، ولم تعد لها صلة إلا بوالديها في طهران وزاري في كاليفورنيا. وظلت مكالمات جهانگير السنوية تصلها برحم الماضي الذي لم تستطع حمل نفسها على نسيانه، رغم ما جرعها من مرارة وألم.

تفانى والتر في دراسته وكانت رويا سعيدة - طيب، فلنقل راضية - طيب، مستقرة في وظيفتها في كلية هارفارد لإدارة الأعمال، أو إيتش بي إس (HBS) كما يسمّونها هنا في أمريكا. يا للأمريكيين كم يحبون الاختصارات. كان زملاؤها في العمل أكفاء ولطفاء أحياناً، وكانت تحب ذلك الشعور بالرضا وهي تضع الورق في الآلة الكاتبة كل صباح وترقن الرسائل لعميد الكلية والأساتذة الآخرين وتدون الملاحظات وتعد الملفات وتضع الأشياء وفق نظامها. كانت تحب أن تسهر على تنظيم الأشياء فيكون كل شيء مكانه: الملفات، الرسائل، أقلام الرصاص، مجلدات المانيلا؛ كانت تسيطر على عالمها بدقة وعناية.

- «إذاً! كيف تسير الأمور معكما؟ أي خبر سعيد يلوح في الأفق؟».

كانت هذه باتريسيا في إحدى زياراتها لهما خلال وجبة عشاء أخرى.

رد عليها والتر وهو يكزّ أسنانه: «هل أحضر لك شراباً، يا باتريسيا؟».

ردت باسمة: «في يدي كأس، لكن شكراً لك. قل لي يا والتر، أتذكر ريتشارد الذي كان يسكن في بيت صغير في كيب كود عندما كنا صغاراً؟ كانت أسرته مقربة من أسرتنا كثيراً. (نطقت باتريسيا الجزء الأخير من كلامها في نبرة تفسيرية لرويا كما لو كانت تخبرها

بما لا تعلمه، مع أنها كانت تعرف ريتشارد ذاك فقد كانت ووالتر يتناولان العشاء معه وزوجته بانتظام.) حسنٌ، ريتشارد وزوجته الرائعة - ما أحلاها، كم أحب سوزان تلك! يا لأناقتها! - ينتظران مولودهما الثالث! الثالث!». أنهت كلامها وارتشفت رشفة من كأسها.

ذهبت رويا إلى المطبخ وقلت قليلاً من البصل دون سبب يذكر، ورشت عليه النعناع وأكلته من المقلاة مباشرة وجسدها يرتعش. كانا، هي ووالتر، في منتصف العشرينات الآن، وكان معظم أصدقائهما ومعارفهما أباء لطفل واحد على الأقل، لكن لم يكن الأوان قد فات عليهما. كانت باتريسيا فظة في كلامها. كانت صريحة ومتطفلة؛ فلم يكن الأمر من شأنها هي ولا يخصها. إنه شأنهما، فقد استطاعا الانتظار وسينتظران.

جاءت في توقيتها الخاص. رأت النور في مستشفى ماونت أوبرن في الحادي عشر من يناير عام 1962. لما حملتها رويا ونظرت في عينيها اللتين كانتا يقظتين على نحوٍ غريب، لما وضعت جسدها الصغير الرهيف والهش على جسدها، شعرت بالرعب ولكنها شعرت أيضاً بأنها قد حيت من جديد. لم تكن ممثلة في فيلم أمريكي. كانت مضطربة ودائخة - نعم - ولكنها في الآن نفسه كانت متصلة بالواقع على نحوٍ عجيب. وأحست لأول مرة منذ زمن بعيد أنها على طبيعتها الحقيقة من جديد.

عندما غادرت المستشفى، عملت أليس على الاعتناء بهم هم الثلاثة. كانت حماتها التي تفوح منها رائحة سلطة البطاطس

والغسول نصوحة معها ومفتونة بحفيدتها. افتقدت رويا أمها كثيراً لكنها بالمقابل كانت ممتنة لأليس التي كانت تغلي كل شيء من أجل تعقيم بيئة الطفلة، وتملأ البيت بهجة وتطبخ كميات هائلة من البطاطا المشوية مع الكريمة الحامضة.

اكفهر وجه أليس بعد ذلك بعام عندما توقفت طفلتهم عن التنفس؛ كانت الجدة تذرف الدموع وهم في السيارة يهطعون إلى المستشفى في رعب شديد.

لهثت ماريغولد بحثاً عن الهواء؛ هذا هو اسمها: ماريغولد. لقد نزلت هذه الطفلة بحياتهم وعاشت معهم اثني عشر شهراً تخلصت فيها رويا من انغلاقها وتكتمها. لم تفصح لوالتر عن كل مكنونات صدرها وظلت دائماً تبطن عنه قسماً من حياتها، لكنه تقبل الأمر (لقد كان والترياً!)، وظل شاكراً لله لمجرد وجودها معه، ولمجرد رؤيته لها كل صباح. أما ماريغولد، بشعرها البني الفاتح وعينيها الرماديتين وتنهداتها وهي ترضع من نهد أمها، فحطمت كل الجدران الجليدية التي شيدتها رويا وأذابتها بابتسامتها الدردية. قضت رويا، المنهكة والمنتشية، تلك الأشهر الاثني عشر على طبيعتها البحتة، فحتى تلك القصة الغرامية التي عاشتها في طهران تلاشت أمام ماريغولد هذه، ولم يكن في الدنيا شيء أقرب إلى قلبها من هذه الطفلة.

في طريقهم إلى المستشفى، كان والتر يمسك المقود صامتاً. كان الثلج يتساقط بلا هوادة في الخارج فيتراكم على ضفتي الطريق ويتصلب ويستحيل رمادي اللون. كان صوت أليس يملأ السيارة وهي تتضرع وتتبتل، وتتلو شيئاً من الإنجيل وتتوسل إلى الرب.

كانت أليس قد سافرت إليهم من كيب كود وكانوا على مائدة

العشاء يوم الأحد عندما اجتاحت موجة شديدة من السعال ماريغولد دون توقف، واشتدت الحمى التي زارتها منذ أيام وازدادت حدتها فجعلت الطفلة تصدر صريراً وتلهث بحثاً عن الهواء. جلست رويا في المقعد الخلفي تحمل ابنتها في ذراعيها إذ شعرت كما لو أنها على وشك الانشرام والانشطار إلى أرتال.

أرجوك أنقذ ابنتي، اجعل الأطباء يخفضون حرارتها، ستكون بخير. بالتأكيد. يجب أن تكون بخير.

كانت رئتا ماريغولد الصغيرتان تصدران صريراً، ولما استيأست رويا طفقت تنشد لها أغنية فارسية قديمة. سكتت أليس عن الدعاء وأنصتت فيما واصل والتر طي المسافات بأقصى ما سمحت به الطريق الثلجية من سرعة.

لما وصلوا إلى المستشفى، جاءت ممرضة تضع قبعة تمريض بيضاء فوق شعر أشقر في تسريحة قفير النحل وأخذت ماريغولد من ذراعي رويا. كانت أنفاس الممرضة تعبق برائحة السجائر. لم ترغب رويا في إعطاء ابنتها لهذه المرأة، أرادت أن تبقيها بقربها. ثم وصل طبيب وكان له بثرة فوق شفته العليا. بعد سنين، وهي تتمشى جوار منزلها، ظلت رويا تتذكر في غيض بثرة الطبيب ورائحة سجائر الممرضة - ذينك اللذين حالا بينها وبين ابنتها، وحشرا نفسيهما في مأساة حياتها وسيطاردان ذاكرتها إلى الأبد.

جاء خبر وفاة ماريغولد بعد ثلاث وأربعين دقيقة من وصولهم إلى المستشفى.

تخدرت قدما رويا بين مشمع الأرضية والأنوار المتلألئة. كان صوت الطبيب مشوهاً وكأنه يتكلم في بركة وحل. ومثلما وقع معها أول ما وصلت إلى أمريكا، وجدت إنجليزيته غير مفهومة بتاتاً.

بجانبها وقف والتر بقامته الطويلة، يحوم حولها ساكتاً لا يفه ببنت شفة، نظرت إليه نظرة محيطية فرأت يديه الضخمتين ترتعشان. أما أليس فوقفت مائلة قبالة رويا، وكانت جامدة راكدة لا حراك فيها إلا من الدموع التي سالت من عينيها.

عاد الثلاثة إلى البيت فجراً. لم يكن لهم خيار آخر سوى العودة، رغم أن رويا فكرت في البقاء في المستشفى وعدم المغادرة حتى تقضي جوعاً فوق مشمع أرضيته. لبثوا ساعات في هذا المبنى حيث صوت الأجهزة الطبية وملايين من الحالات الحرجة التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون بأهمية حياة ماريغولد، في ذلك المكان الذي تفوح منه رائحة الموت؛ بعدها وقّع والتر على بعض الأوراق ثم طُلِب منهم الرحيل. وفي طريق عودتهم، كانت الثلوج تكسي الطريق من الجانبين، ورويا لم تكن تشعر بقدميها ولا ذراعيها ولا أصابعها. كانت تعلم أن شخصاً آخر غيرها هو من يجلس في السيارة. كانت تشعر بالحنين إلى لمسة وجه ماريغولد على وجهها أكثر من حنينها إلى أي شيء آخر. وكانت تعلم علم اليقين أن حزنها لن تسعه الأرض بما رحبت.

بعد ذلك، كان والتر هو من يتكلف بإعداد الشاي لها وهو من ينهض من السرير أولاً كل صباح ويسلق البيض، ولم تعد رويا تسمع صفيره بعد ذلك، فبعد رحيل ماريغولد أصبح الهواء من حولها مثقلاً بالمرارة وعفن الفراغ الذي تركته طفلتهما.

- «ما كان عليك تكلُّف عناء المجيء»، قالت رويا لزاري لما رأتها - بعد مصابهما بأسابيع - حاملة حقيبتها ومعها طفلان. وقفت

رويا في مدخل البيت الداخلي وقد أعطت ظهرها للصحون المتسخة في حوض المطبخ، وأكوام الثياب الملوَّثة، والهواء العفن من حولها.

- «ولكنني جئت يا أختي».

كان داريوس، ابن زاري، في عمر الرابعة وأخته ليلى، التي كانت تتلوى بين ذراعي أمها، في الثانية من عمرها. لقد عاشت ليلى اثني عشر شهراً لن تعيشها ماريغولد أبداً. كل شيء كان يذكّر رويا بماريغولد: كل كلمة وكل ثانية وكل شخص. إلا أن كلمة **يذكّر** لم تكن الكلمة الصائبة في هذا السياق. فالمرء منا إن أراد أن يتذكر شيئاً فعليه أن ينساه أولاً حتى يتذكره من جديد. أما رويا فلم تنس قط ابنتها، فكل شيء كان مرتبطاً بماريغولد؛ ولا شيء يمكن بأي حال من الأحوال أن ينفصل عنها، ولا حتى كلمات قالتها امرأة مجنونة في طهران قبل حين من الدهر: **الأطفال الرضَّع يموتون.**

ها هي ذي ليلى في ذراعي زاري. ها هي ذي ابنة اختها بجسمها الصغير المكتنز، سعيدة، تتنفس، حية ترزق، وعلى رأسها قلنسوة زهرية محبوكة. هي قلنسوة كانت زاري لتطويها وترسلها إلى رويا مع رسالة تقول فيها: **هذه قلنسوة حاكتها ماما جون وأرسلتها إلي. لكن ليلى قد كبرت عليها الآن، ألبسيها لماريغولد.**

ألبسيها لماريغولد.

ذلك لو. . .

صرخ داريوس وانطلق جارياً إلى المطبخ فيما خلعت زاري حذاءها وصرخت في وولدها ألا يجري بجمزمته المبللة في أركان البيت. ظلت رويا تحدق في الثلج الذي يملأ المكان في الخارج

بينما أسرعت أختها وطفلاها إلى الداخل؛ لقد استمر العالم، رغماً عنها، يجري في مساره في مرح لاذع وبارد.

عملت زاري بجهد جهيد كي تغير جاك، وكلل مجهودها في ذلك بالنجاح، عندما جعلته بفضل إدارتها الخبيرة يتحول من شاعر إلى آلة رأسمالية، فأصبح يكتب القوافي للحملات الإعلانية. بدأ مع الإعلام المكتوب ثم انتقل إلى المرئي. لم يكن الشاعر المثالي يبدي حزناً يذكر جراء هذا التحول الذي طرأ عليه. فكلما نظرت إليه رويا، رأته متهللاً وطفلاه يتدليان منه كقردة في حديقة الحيوانات. حلق شعره الطويل وكان يبدو ببدلته وربطة العنق الرقيقة كنموذج لموظف إعلانات في الستينيات. كيف استطاعت زاري تحويل زوجها إلى هذا الشيء؟ ما العقار العجيب الذي ناولته إياه؟ ما الذي رسم تلك الابتسامة السرمدية على محياه؟ **يا أختي، كلنا نعلم أن الأمور تُبَتُّ في السرير، أليس كذلك؟ هكذا نحقق مرامينا، تلك هي الحقيقة! أنا لست حمقاء وأدري ما أفعل وكيف أفعله.**

أما رويا فقد أحست بالخدر لدى ذكر أمور السرير والشراشف والجنس.

نظفت زاري المنزل شبراً شبراً، ذلك النوع من التنظيف الذي يقام عادة استعداداً لاستقبال السنة الفارسية الجديدة، أول أيام فصل الربيع. غير أن الفصل لم يكن ربيعاً. كان الشتاء لا يزال يبسط رداءه على الأرض، وكان الجليد والثلج يكسيان كل مكان. لكن زاري لم تعبأ بالأمر، نظفت فقط. تذكرت رويا كل الطقوس التي تربيا عليها للاحتفال بأول أيام الربيع - كلها عديمة الفائدة الآن. ذلك أنها لن

تجد بعد ذلك الشغف لتهيئة سفرة **الهفت سين** احتفالاً بالسنة الفارسية الجديدة. لن تجد الشغف لوضع أشياء يبدأ اسمها بحرف السين، ترمز إلى إعادة الإحياء والتجديد. كلا. لن تجد الشغف لنقع حبات العدس في الماء لتنمو فيها براعم خضراء، ولن تلوّن البيض احتفالاً بالخصوبة - أبداً. السنة الفارسية الجديدة، أول أيام الربيع، **النوروز**، كل ذلك أصبح بلا معنى الآن، كل شيء. ووالتر ورويا لن يحتفلا بها، كما لن يحتفلا بعيد الميلاد ولا عيد الشكر. ولم عساهما يحتفلان؟

نظفت زاري النوافذ (في فبراير! وفي نيو إنجلاند! ولماذا تكلف نفسها العناء؟ سيغطيها الثلج والصقيع من جديد على كل حال)، وغسلت كل الثياب أيضاً. ثم انطلقت إلى المتجر وتبضعت بقالة طازجة وطبخت وحمرت وقلت وملأت براد أختها بأنواع **الخورش** والأطعمة المصنوعة من الأرز وحشت من دولمة ورق العنب الكثير ومن الكوتليت وكيش البطاطس الكثير. فتحت النوافذ ليهب الهواء النقي في المنزل (أو الهواء البارد بالأحرى). ثم إنها أصرت على إذابة السكر في قدر صغير وإضافة بضع قطرات من الليمون والماء الساخن لصنع مزيل شعر منزلي من أجل إزالة الشعر من ساقَي رويا.

- «صدقاً، أتحسبينني أهتم بذلك الآن؟».

- «هذا ليس من أجلك».

- «أؤكد لك أن والتر أيضاً لا يهتم بالأمر. وأؤكد لك أن ما من سبب يجعله يعلم حتى بوجود شعر على ساقاي».

- «كفاك، في لحظة ما يجب عليك أن...».

اجتاح ذلك الحزن المألوف جسد رويا فودت لو تتوارى عن

الأنظار. لم يغيّر ما تتحدث عنه زاري شيئاً في نفسها، ولا يستطيع أحد تغيير ما في نفسها.

خلال زيارة زاري لها التي دامت أسبوعين، جلست رويا ذات مرة على الأرض وأخذت تلعب مع ولدَي أختها. كانت تنصت لقهقهاتهما وضحكاتهما، ثم وقفت وصعدت إلى سريرها وبقيت هناك طوال المساء.

لما جاءت زاري حاملة صينية العشاء، جلست على طرف السرير قائلة: «لم يكن أمامي خيار آخر يا رويا، اضطررت لاصطحابهما معي. لم أجد من يعتني بهما في غيابي، فجاك يشتغل حتى الظلام ولا يستطيع المساعدة».

هذا ما أصبحت عليه حياتها الآن. سيعتذر لها الناس عن حضور أطفالهم، وسيوارون عنها سعادتهم، وسيخجلون من فرحهم في حضرتها. هذا هو المصير الذي آلت إليه.

لم تكتف زاري خلال تينك الأسبوعين بتنظيف المنزل وتكديس البراد بالأطعمة فحسب، بل طلبت إذن الدخول إلى غرفة الأطفال، ورويا بالكاد استطاعت هز كتفيها قبولاً. دخلت الغرفة، وبكل جرأة، جمعت ثياب ماريغولد في علب ووضعت ألعابها في أكياس، وانطلقت إلى الكنيسة فتبرعت لها بتلك الأشياء. ثم، وبكل جرأة، أخبرت رويا أنها أبقت لها بعضاً من الملابس لتنظر إليها لاحقاً، عندما تكون مستعدة. لن تكون مستعدة أبداً.

- «شكراً لك يا زاري، شكراً لك». كان والتر يردد امتنانه لزاري مرتين وثلاث. «يا للطفك وكرمك، لكم نقدر لك صنيعك معنا».

والتر ولباقته الخارقة ونبرته المتواضعة. فليذهبا إلى الجحيم

معاً. فليذب كل شيء إلى الجحيم؛ لباقة والتر وحذاقة زاري وهمتها. ما نفع فرز ملابس ابنتها وتنظيف النوافذ اللعينة؟ بقيت رويا في سريرها تتفرس في اللاشيء، بينما جلس والتر على الكرسي الهزاز الذي كانت ترضع فيه ماريغولد وفي يده شرابه اللعين وأخذ يهتز في صمت.

لم تبك رويا عندما جاء موعد طائرة عودة زاري إلى كاليفورنيا. أو لعلها فعلت. كانت قد بكت بسخاء تلك الأيام، حتى لقد أصبحت دموعها خفية فلا تدري أحياناً إن كانت باكية أم لا. وكلما حسبت أن مجاري دموعها قد نضبت، كان هنالك المزيد.

- «وداعاً».

هكذا ودعت أختها. وداع نظيف وأمريكي. !!Bye و See ya!... لعل هذه الأمريكيات فيها بعض الأمور الجيدة، فهي عبارات مرحة وودية، تجعل كل شيء يبدو كمخفوق الحليب بنكهة الفراولة وكلحظات سعيدة آتية.

عانقت زاري رويا وهمست لها بالفارسية وهي تذرف الدموع على عنقها: «سأشتاق إليك يا أختي، سأشتاق إليك كثيراً. يمكنك مراسلتي ما شئت. سأهاتفك. وعندما أجد الفرصة للمجيء في المرة القادمة سأ...».

- «وداعاً! شكراً لك!»، قالت رويا مجدداً. لم تكن تعلم إن أبقت النوائب فيها شيئاً من الامتنان أو اللطف، وتمنت حينها لو تحرر قلبها من البرودة التي تلفه.

همست زاري: «كم أنا آسفة». شمت فيها رويا تلك الرائحة المألوفة التي كانت فيها عندما كانتا طفلتين تتشاركان غرفة نوم في طهران، رائحة أشبه بالشاي وبالوطن. «يمكنك دائماً أن...».

قاطعتها رويا قائلة: «اذهبي قبل أن تتأخري عن موعد رحلتك».

أثارت ليلى الصغيرة ضجة ولم ترد الرحيل بينما اختبأ داريوس وراء الأريكة في لعبة الاختباء التي لم يكن أحد يشاركه فيها. لاطفت زاري طفليها ثم صاحت فيهما ثم جمعتهما وساقتهما إلى سيارة الأجرة التي تنتظرهم في الخارج. كان والتر قد ودع زاري في وقت سابق من ذلك الصباح وأجزل لها الشكر والامتنان والاعتذار عن عدم قدرته على توصيلها إلى مطار لوغان لأنه كان مشغولاً بإعداد مذكرة قضية كان القاضي متصلب الرأي فيها.

وقفت رويا عند الباب تتفرس في الثلوج بعدما أخذت سيارة الأجرة أختها وطفليها بعيداً، ووراءها منزل نظيف وأثاث مرتب وبراد مليء بالطعام، وأمامها الخواء.

لم يبق لها إلا العودة إلى العمل. ففي الأخير، أزالت شعر ساقيها. **أترين يا أختي، لم أبق ولو شعرة واحدة قد تضايق والتر.** استطاع الزوجان الوصول إلى توازن جديد رويداً رويداً، وسط أتون حزنهما. في البداية، كانا يتلامسان بحذر، ثم استيقظت تلك العفوية بينهما فالحياة، كما يقال، تستمر على كل حال.

ذابت الثلوج وجاء الربيع. لم تستطع رويا حمل نفسها على الاحتفال بالسنة الفارسية الجديدة في أول أيام الربيع. لا **نوروز**. لم يكن لها ما يتجدد ولم يكن لها ما تحتفل به، فالمواسم باتت سيان بعد ماريغولد. لقد شوه أحدهم النص وبتر بعض صفحاته وألقاها في النار ودمر كل مظاهر المعنى والنظام في حياتها. ربيعاً سعيداً!

في أول أيام الربيع، عادت من العمل قبل المعتاد بقليل وأعدت

الشاي. كان والتر أيامئذ يعمل حتى وقت متأخر وكانت رويا تحاول جاهدة تجاهل السنة الفارسية الجديدة. رن الجرس فتوقعت أن تجد عند الباب السيدة مايكل التي تسكنن في المنزل المقابل (ذلك أنها كانت تأتي في بعض الأحيان حاملة الكوكيز والفطائر - وكذلك كان دأبها خلال الأشهر القليلة الماضية منذ وفاة ماريغولد) لكنها فتحت الباب فتفاجأت لما لم تجد السيدة مايكل وإنما وجدت باتريسيا في معطف أزرق داكن فيه أزرار على شكل سداسي، تحمل كيس بقالة وقد بدا حذاؤها الجلدي الأزرق ثميناً.

- «هل لي بالدخول؟».

- «نعم بالتأكيد، تفضلي».

فسحت رويا الطريق أمام باتريسيا إلى الردهة، وبحكمة بالغة لم تطلب من نسيبتها خلع حذائها، فقد كان رد فعل باتريسيا لما أخبرها والتر أول مرة أن رويا تفضل ألا يدخل الناس بأحذيتهم، أن أبدت سحنة معكرة وقالت: «أنا لا أنفق نصف راتبي على الأحذية لأتمشى بجواربي».

أخذت معطف باتريسيا وعلقته في خزانة الردهة وقادتها إلى المطبخ ثم سألتها على نحوٍ آلي: «هل ترغبين ببعض الشاي؟».

- «سيكون ذلك رائعاً، شكراً لك»، ردت باتريسيا ثم وضعت كيس البقالة على الطاولة وبلعت ريقها وأردفت: «ذهبت إلى ماونت أوبرن بعد العمل».

تصلّبت رويا عند سماع تلك الكلمات، فقد كانت ماريغولد ترقد في مقبرة ماونت أوبرن. «في شارع ماونت أوبرن»، استرسلت باتريسيا، «تبضعت لك بعض الأشياء».

شاهدت رويا باتريسيا وهي تخرج الأغراض من الكيس وتضعها بروية على منضدة المطبخ. كان ثمة إناء صغير فيه الياقوتية مغلفة في السيلوفان وكيس من التفاح وقروش الشوكولا المغلفة في ورق ذهبي وعلبة من بهار السماق وقارورة خل وبضعة فصص ثوم، وحتى أنه كان ثمة كيس من السنجد، وهو ثمر شجرة اللوتوس المجففة.

كانت هذه كلها أغراض تبدأ بحرف السين في اللغة الفارسية، وهي العناصر التقليدية التي توضع على سفرة السينات السبعة بمناسبة السنة الفارسية الجديدة، تلك العناصر الرمزية التي دأبت رويا على ترتيبها بعناية فوق المائدة كل سنة عندما كانت فتاة تترعرع وزاري في كنف ماما وبابا. كان ذلك التقليد الذي تمنت أن تشاركه مع ماريغولد يوماً، وهو التقليد الذي لم تتوقع قط أن تساعدها باتريسيا في الاحتفال به.

قالت لها باتريسيا بلطف: «أتمنى لك عاماً سعيداً يا رويا».

شعرت رويا بورم بحجم نيو إنجلاند يتكوّن في حلقها. غطّى عرق متلألئ بشرتها، وشعرت بموجة امتنان عظيمة تجتاحها فأرادت أن تنكمش على نفسها وتبكي. «شكراً لك يا باتريسيا»، همست. التفتت الأخيرة لتقوّم سنابل الياقوتية وتنقل بهار السماق إلى اليسار قليلاً. لم تكن باتريسيا ممن يفصحون عن خوالجهم بسهولة - وهذا ما علمته رويا - لكن لما التفتت رويا رأت أن عينيها قد اغرورقتا بالدموع، ثم قالت: «أنا آسفة جداً» فلم تستطع رويا تبين خلفية مقالها؛ لم تدر إن كانت تقدم تعازيها بشأن موت ماريغولد مرة أخرى (فالكثير من الناس كانوا يخبرونها بأسفهم كلما قابلوها هذه الأيام، وكان أسف الناس أكثر الكلمات التي سمعتها)، أم تراها كانت تعتذر على أمر ما قالته في الماضي.

اكتفت رويا بهز رأسها.

أخذت باتريسيا الكيس الورقي وأخرجت منه كيساً شفافاً صغيراً بداخله خيوط قرمزية رقيقة كانت رويا تعرفها جيداً، فشهقت سائلة:

- «أين وجدت الزعفران؟».

- «بحثت عنه. لدي وسائلي»، قالت باتريسيا ثم دنت منها ووضعت كيس الزعفران في يديها وظلت تمسك يديها لنحو دقيقة ثم انتصبت في وقفتها سريعاً وقالت في نبرة عالية وحازمة: «والآن! أين هو الشاي الذي وعدتني به؟».

جلستا معاً ذلك المساء واحتسيتا الشاي. كانت دردشتهما في البداية مترددة لكن بدأتا رويداً رويداً بالانفتاح إحداهما للأخرى. ولأول مرة منذ زواج رويا من والتر، تقاسمت مع باتريسيا إشفاقها من هوس والتر بفريق الريد سوكس.

- «شكراً لك يا باتريسيا، لا تعلمين كم أنا ممتنة لما فعلت»، قالت لها رويا لما وقفت وهمت بالمغادرة.

- «لا داعي لتشكريني»، ردت باتريسيا وانطلقت إلى الردهة فتناولت معطفها. ولما بلغت الباب ترددت وقالت: «ربما كنت قاسية معك خلال السنوات القليلة الماضية، ربما، ولكن يجب أن تفهمي أن والتر شقيقي الوحيد وأنا أحبه كثيراً. قد تقولين إنني أحبه أكثر من اللازم. أمي تقول إنني أدلّله وأرى أن لا أحد يستطيع أن يكون كفؤاً لأخي الصغير، ولكن...». داعبت باتريسيا أزرار معطفها في لفتة توتر ثم رفعت عينيها واسترسلت: «في الواقع يا رويا، لقد فقدنا ماريغولد ولكننا ممتنون جداً لوجودك بيننا». ثم خرجت مسرعة ونزلت الدرجات الأمامية وركبت سيارتها.

وقفت رويا عند الباب كالمعتاد، لكنها انفجرت باكية هذه المرة.

لقد أضحيا الآن الزوجين اللذين يلتفت إليهما الناس ويتبسمون لهما ابتسامة حزينة؛ الزوجين اللذين تقام لهما الصلوات في الكنيسة التي ترتادها أليس؛ الزوجين اللذين تصلهما رسائل التعزية المكتوبة بأقلام المداد. ظلّت رويا تعمل في كلية هارفارد لإدارة الأعمال وكانت تشعر بلحمة غريبة تربطها بوالتر، ذلك أنهما كانا شريكين في الألم. ظل والتر يقضي الليالي في الشرب على الكرسي الهزاز قبالة السرير، بينما دخلت هي قوقعتها، فالجليد المتجمد فوق طبقة ذائبة يصعب كسره أكثر من غيره.

عادا إلى روتين العمل والأنشطة الاجتماعية مع ثلة من الأصدقاء، وبعناء كبير استأنفا الحياة. أو ما يشبه ذلك. ثم إنهما أصبحا يقبلان دعوات جيرانهم لتناول العشاء، حتى أنها أخرجت القدور والمقالي وطبخت، من أجل والتر. أرغمت نفسها على الخروج وشراء الأرز ونقعه في الماء الدافئ وسلقه فلما عاد من المكتب ذات مساء (كان يعمل في مكتب محاماة مرموق قرب مركز برودنشال في بوسطن، حيث يعتبره الجميع ناجحاً جداً وذا كفاءة عالية) شم رائحة الزعفران القوية من جديد - بفضل باتريسيا - فأخذها بين ذراعيه واستنشق ريح شعرها، فسرت أنه لم يقل شيئاً فظيعاً مثل: «ها قد عدتِ».

ولما جاءت الذكرى السنوية لزواجهما بعد ذلك بشهور، خرجا

إلى مطعم، لأول مرة منذ الفاجعة. ولما جلسا، أمسك والتر بيدها وقال:

- «رويا جون، يجب أن نحاول من جديد».

اسود وجهها من كلماته، فاستطرد قائلاً:

- «إلا إذا كنت غير مستعدة. لكن... لا أدري. إننا في ريعان الشباب يا رويا جون، أليس كذلك؟ أنا لا أقول لك أن نفعل ذلك الآن، بل عندما تكونين مستعدة».

هي لن تكون مستعدة أبداً. ولن ترغب أبداً أن يملأ أحد مكان ماريغولد. ثم ما الذي جعلها تخرج مع والتر؟ فهي لم تكن مستعدة للخروج إلى مكان عام حيث الجميع من حولها مستمتع... لم تكن تريد شيئاً غير ابنتها. كانت تريد أن تشعر بلمسة ابنتها على خدّها... كانت تريد أن تحملها وتستمع إلى ضحكاتها... كانت تريد ماريغولد.

تحت ضوء المطعم الخافت، بدت لها تعابير التوسل تعلو وجه والتر ولم تكن المرة الأولى التي بدا لها فيها أنه قد كبر، فقد مضت سبع سنوات على حدث دلق القهوة في مقهى بيركلي ومضت خمس منها على زواجهما. إنهما في العام 1963 الآن وكان كلاهما في السابعة والعشرين، بيد أن ما أصابهما قد أبعدهما عن النظام الطبيعي للأشياء، فغديا جزءاً من نادٍ نخبوي عاش الانقلاب على النظام الطبيعي للحياة. ماريغولد نزلت بهما في العام الرابع من زواجهما دون علم ولا إخطار ولكنها حلت أهلاً ونزلت سهلاً، لترحل بعد ذلك وتثبت أن أسوأ مخاوف رويا كانت مبرَّرة.

- «حبيبتي».

كانت تكره منه أن يناديها بحبيبتي إذ لا يناديها بذلك إلا عندما يعظها. رويا جون، هكذا يناديها عندما يظهر الحنان والعاطفة، أما حبيبتي فتوحي قوله: **أنا أعلم ما لا تعلمين**. حبيبتي توحي قوله: **أنت لا تفكرين بصفاء، بالتأكيد سننجب ولداً آخر**. حبيبتي تعني أنه لا علم لديه أن السبب الوحيد الذي منعها من ترك الدنيا وما فيها هو التزامها تجاهه.

- «لا، لا أستطيع»، قالت.

وقف من مكانه فظننت أنه سيذهب إلى المرحاض، أو ربما كان سيغادر المطعم، وله الحق، كل الحق، في أن يبتعد عنها. ذلك أنها أصبحت منذ وفاة ماريغولد امرأة لا تطاق: أنانية، سكوت، ومنعزلة. ربما يذهب إلى المرحاض ليلملم شتات نفسه على طريقته الوالتارية الخاصة ويرجع مبتهج الأسارير، ما وسعه ذلك أمام الناس، ثم يعودان إلى أكل الستروغونوف بالعجل وسط ضجيج المطعم، ويتظاهران أنهما زوج ككل الأزواج من حولهما.

ولكنه لم يغادر، وإنما جاء إلى حيث تجلس وركع أمامها ثم أخذ رأسها بين كفيه بلطف ونظر إليها فرأت في عينيه الزرقاوين حزناً خاصاً بهما.

- «ماريغولد ستظل دائماً هنا»، قال والتر ولمس صدره، تماماً كما فعل يوم طبخت له أول مرة في إقامة السيدة كيشبو قبل كل تلك السنين، ثم أراح جبينه على جبينها.

راح النُّدُل وجاؤوا وطقطق الجالسون الأواني ودردشوا وضحكوا بين الحين والآخر، وبقي والتر ورويا على شأنهما الجبين لصق الجبين. ما كان لديها لحظتها مثقال ذرة شك في حبه لها، فقد شاركها كل أحزانها. حزن لحزنها وتألم لألمها، ولما استمر دولاب

المياه في الدوران، ظل إلى جانبها. والتر كان دائماً معها، صادقاً، جديراً بالثقة، وثابتاً على عهده. لقد كان الحب الذي جمعها بوالتر شريان حياة لم ترغب قط في الاستغناء عنه.

وفي نهاية عطلة عيد الميلاد، وكان قد مضى على وفاة ماريغولد نحو عام، جرّت الكرسي الهزاز عبر السلالم وأخذته إلى الرصيف جنب المنزل. كانت تعلم أن السيدة مايكل كانت تراقبها من نافذتها في المنزل المقابل. وفي هذه المدينة الصغيرة التي نبتت فيها بتلة دولة أمريكا، تخلصت رويا من الكرسي الهزاز على الرصيف وتركته ليلتقطه أحدهم فيأخذه إلى منزله ويهتز عليه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

القسم الخامس

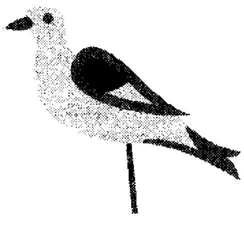

الفصل الثالث والعشرون

2013

أصدقاء الفيسبوك

إن كان في العالم شيء قد ترغب كلير في حظره فهو الفواصل الإعلانية على التلفاز، وإن كان في العالم شيء لن تستطيع كلير التوقف عن مشاهدته فهو تلك الفواصل الإعلانية على التلفاز. اقترح عليها أصدقاؤها على الفيسبوك أن تسجل برامجها المفضلة ثم كلما أتى فاصل إعلاني سرّعت الشريط حتى تمر تلك الفواصل، أو أن تنزل تلك البرامج من مواقع على الإنترنت، إلّا أنها لم تستطع التخلي عن عادتها في مشاهدة كل برنامج في وقت عرضه على التلفاز وبفواصله الإعلانية - فيما يكاد يشبه مشهداً ماسوشياً - كمثل من يعقر جرحاً أو كمن يحك قشرة جرح ليشعر بوخز الألم.

في كل ليلة تعود كلير إلى شقتها الصغيرة في واترتاون فتعد عشاء من الخبز العربي والديك الرومي والطماطم أو كوب من المعكرونة الفورية أو تكتفي بتسخين الأرز المعلب مع بيضة مقلية، ثم تشغّل التلفاز وتستعد لتلقي الوخز. لم تكن تشاهد ما يشاهده أصدقاؤها الفيسبوكيون - تلك الأعمال الدرامية التي تبث على القنوات الكابلية والتي ربحت كل الجوائز. أعمال مثيرة ذات حبك متقنة، ومسلسلات

جريئة تملأ الصفحات الشخصية على الفيسبوك، وتمثل مادة للمراجعات المرفقة بتحذيرات من إفشاء تفاصيل الأحداث، وتغذي الدردشات بين الزملاء والأصدقاء، بل تشاهد - في رعب تقريباً - برامج تلفزيون الواقع التي تصور ربات بيت من زبونات الجراحات التجميلية وهن يتلاسنَّ في مطاعم باذخة، أو أسر من عشرين طفلاً سعيداً يعيشون فوضى تمثيلية. ثم إذا جاء موعد الفواصل الإعلانية، تستلقي وتتغطى بالبطانية البنية بينما تبث الإعلانات أصدقاء يتناولون الوجبات السريعة، وأباء مع أطفالهم مسرورين بتطبيقات الهواتف الذكية، وأطفال صغار لطفاء يجرون في أرجاء البيت بحفاضاتهم، وأباء يشاهدون بعيون دامعة فيديوهات مركبة تصور بناتهم وهن يكبرن من أطفال صغار في الكراسي الخلفية للسيارات إلى شابات يجلسن وراء المقود. تزدري كلير هذه النفحات العاطفية أمام الشاشة ثم ما تلبث أن تحسد أولئك الناس.

قبل سنوات مضت، كانت طالبة في قسم الأدب الإنجليزي في الجامعة وكلها قناعة أنها ستصبح أستاذة جامعية ناجحة وراضية. ثم جاء اليوم الذي هاتفتها فيه أمها باكية وقالت لها: «العينة إيجابية». إنه ذلك الورم الصغير في ثدي أمها. لم تنفع معه جراحة الاستئصال فتابع رحلته الخبيثة غازياً كل جسدها، ففي الوقت الذي بلغت فيه كلير سنّ الرابعة والعشرين، كانت أمها ترقد في مقبرة في بيدفورد، في ولاية ماساتشوستس، على بعد ميل واحد من مركز التسوق المحلي هول فودز، فلبست كلير بعدئذ لباس الحزن المزمن.

كان أبوها قد قضى في حادث سيارة عندما كانت طفلة حديثة الولادة تلبس واحدة من تلك الحفاضات المصورة في الفواصل الإعلانية التي تشاهدها وحيدة في الليالي. لقد تجرعت كلير طعم

الوحدة في سن مبكرة جداً. كانت ترتبط بالرجال ثم تنفصل عنهم؛ لم يستمر في حياتها أحد منهم، رغم أنها اعتقدت أنها وقعت في الحب مرة. أو ربما مرتين.

وها هي الآن في الثلاثين من عمرها، وأصدقاؤها الذين شاركتهم مقاعد الدراسة كانوا إما متزوجين وإما في علاقات جدية. كانوا متفرقين في أرجاء البلاد، وبعضهم في أرجاء العالم، ولا صلة لها بهم إلا مواقع التواصل الاجتماعي، فلم يكونوا يصلون رحمهم من خلال المكالمات الهاتفية أو زيارة بعضهم البعض. كانت تتابع حيواتهم المشرقة والسعيدة على الفيسبوك، وتقرأ ما ينشرون على صفحاتهم الشخصية: «نعم، هذا صحيح، إننا ننتظر مولوداً!» ثم تضغط زر الإعجاب، رغم أنها كانت تحس بالغيرة أحياناً لخلو حياتها من هذه الأمور. ترى صور صديقاتها الحوامل وأذرعة أزواجهن تلفّ خصورهن على شواطئ البحور، ثم تضغط زر الإعجاب. تفتح حاسوبها لتشاهد صور الأطفال - صغار حديثو الولادة بأجسامهم الصغيرة المكومة وقلانسهم على رؤوسهم - وتقرأ التعليقات: «سررت من أجلك يا جينا!»، «ما أحلاه!» ثم تضغط زر الإعجاب وتضيف تعليقها هي: «مبروك!» ثم تمضي قدماً في تصفح صور سيلفي لزملائها السابقين في المدرسة الذين يقضون إجازاتهم مع أطفالهم في كوستا ريكا وهاواي فتختلط عليها موجة من الشعور بالغيرة والسعادة من أجلهم. ثم تشغّل التلفاز وتشاهد أسراً يحتسون مشروب الشوكولاطة الساخن ويتشاجرون ويتصالحون وآباء يسلمون مفاتيح السيارات لبناتهم اللاتي حصلن على رخصة السياقة لتوهن. تشاهد كل ذلك ولا شيء في فكرها إلا أمها وحنينها إليها.

كانت غرفتها مليئة بكتب الغورو ومدربي التنمية الذاتية الذين

ينصحون قراءهم بالبحث عما بداخلهم من قوة وأن يتأملوا وألا يجحدوا بكل النعم التي أسبغت عليهم وأن يكتبوا في يوميات الامتنان. كلير قرأت فأطاعت. ولكن ما إن فهمت أن شهادة الأدب الإنجليزي الذي حصلت عليها من كلية آداب ليبرالية صغيرة في ولاية كونيكتيكت تؤهلها فقط لشغل وظائف إدارية أو لطي الثياب في محلات الملابس، وأدركت أنها لا تملك من الشجاعة ما يكفي لمتابعة دراسات الدكتوراه فتصبح أستاذة جامعية، أخذت المال من شركة التأمين على الحياة المتوجب لها بعد وفاة أمها واستأجرت شقة في واترتاون، فتقاذفتها الوظائف الإدارية ووظائف محلات الملابس، حتى ألفت نفسها يوماً وهي في سن الثلاثين مساعدة إدارية في دار دوكستون لرعاية المسنين.

لقد أحبت تلك الوظيفة. أحبت قضاء أيامها رفقة أناس كانوا على شفة حفرة من اللحد، إن جاز التعبير، وكانت تقدر فيهم أنهم لا يظهرون تواضعاً مزيفاً ولا الحاجة إلى إثبات أنهم يعيشون حياة سعيدة جداً جداً جداً. كانت تحب الشيوخ المتأففين الذين يسعلون ويبصقون ويزمجرون ولا يتظاهرون أن حياتهم جيدة. كانت تلقى متعة في مساعدة العجائز على تلوين شفاههن بروج زهري فاتح دائبات في ذلك دأب الكتاب الموقوت، كما لو أن تفويت تلك العادة الواحدة تعني استسلاماً تاماً للهرم. كانت تساعد الآنسة إيميلي في رفع جوربيها النايلون فوق ساقيها ذاتَي العروق الزرقاء البارزة، وتزر أزرار كنزة السيد روزنبرغ بعناية. لقد استمرت كلير في رحلتها بفضل الرجال والنساء نزلاء دار دوكستون لرعاية المسنين، فهم كل ما تبقى لها بعدما صار أصدقاؤها من المدرسة الابتدائية والثانوية والجامعة مجرد «أصدقاء على الفيسبوك». فئة جديدة من

الأصدقاء اختزل وجودهم في صور رقمية ولم تقابلهم منذ سنوات (لم تحضر لقاءات لم الشمل)، أصدقاء يحيون حياة سعيدة، وإن تخللتها لحظات فوضوية، لكنها مفعمة بالبهجة. أما والدها فلم يجسد ولو جزءاً من ذاكرتها، ذلك أنه مات وهي في سن صغير فلم تعرفه إلا من صورة له ألصقتها والدتها على البراد بملصق مغنطيسي على شكل حبة باذنجان: رجل أشقر، طويل القامة، مبتسم، يقف حاملاً سلة التنزه بجانب أمها. لا صور من العرس فلم يكن هناك حفل أصلاً، كما أخبرتها أمها، إذ ذهبا إلى كاتب العدل ووثقا عقد الزواج وانتهى الأمر.

عاشت سنوات وأمها معها؛ أم حنون وطيبة كانت تروي لها قصصاً عن والدها وتشكي لها كونها وحيدة أبيها وأمها وأم لوحيدة أبيها وأمها، وتقول لها إنهما، رغم صغر عائلتهما، كانتا لبعضهما، وهذا كل ما كانتا تحتاجانه، وإن طفلتها كانت كل شيء في حياتها، طفلتها الجميلة التي أضفت المعنى على حياتها، طفلتها فاتنة، أليس كذلك؟ آسفة لإحراجك يا حبيبتي، تقول لها، ولكن هذه هي الحقيقة، أنت كل حياتي. أنا وأنت، يا طفلتي، سنتحدى هذا العالم أليس كذلك، يا كلير؟ ووالدك، كم كان ليحب رؤيتك الآن، يا حبيبتي. نستطيع فعل شيء في هذا الكوكب، يا طفلتي، يمكننا ذلك. إنك ذكية جداً وموهوبة جداً، وستحققين أشياء عظيمة يوماً ما، فأنت مصدر فخري وسعادتي.

ثم أتى السرطان وأخذ أمها من الدنيا فدخلت كلير في وحدة سرمدية ومؤلمة وغامضة ولا مخلص منها. لم يعد لها أم لتدخل عليها البيت بعد العودة من العمل، ولتهاتفها، ولتعد معها أكلتها المفضلة. لم يعد لها أم تطمئنها أن كل شيء سيكون على ما يرام.

ولكن الحقيقة الغريبة والمرعبة، تدرك كلير، هي أن لا شيء سيكون على ما يرام. أبداً. حتى لو كان أصدقاؤها الفيسبوكيون يتسلقون الجبال في آسيا ويربون أطفالاً رائعين ويحتفلون بأعياد زواج في أجواء رومانسية في أماكن بعيدة، لم يكن كل شيء على ما يرام بالنسبة إلى كلير. أدركت ذلك وهي في الثلاثين، فهمته واستوعبته جيداً، ولم تشعر أنها في حاجة إلى التظاهر بخلافه. الأزواج والأطفال والرومانسية وتدوينات الفيسبوك «أووه انظروا إلى حياتي الفوضوية ولكنها مفعمة بالأشياء الجميلة!»، كل ذلك لم يكن في مستقبلها. مستقبلها لم يكن فيه إلا ليالٍ تشاهد فيها برامج تلفزيون الواقع ونهارات تقضيها في واقع أناس على شفة حفرة من الموت.

لقد أحبت نزلاءها المسنين في الدار، ومنهم أولئك الذين كانوا على شفة حفرة من المقبرة، حتى إن سماعها تحيتهم تلقى عليها في الصباح بدت معجزة. كان السيد روزنبرغ يحكي لها قصصاً من حياته في كوينز بنيويورك «في تلك الأيام»، وكانت السيدة فينتورا «تقف على حافة الرحيل» كل أسبوع، أو كذلك قالت. وكان الأحب إليها رجل اسمه السيد بهمان أصلان، وكان هناك منذ عامين. كانت تناديه «السيد باتمان». كان دائماً لطيفاً معها وكانت تحب سماع قصصه عن الشباب الذي أبلاه في إيران، ومغامراته السياسية والسنوات التي قضاها إبان الحرب. وعن حبه العظيم. إن الناس أمثال السيد باتمان - بنكاته وتذمره وأحزانه وأمراضه وندمه وأفكاره وذكرياته - هم السبب الذي يجعل كلير تستيقظ كل صباح وتأكل لوح بروتين جافاً له طعم الفولاذ، وتقود سيارتها الهوندا ذات الأعوام السبعة من واترتاون إلى دوكستون. وكانت دار دوكستون هذه تجمع بين كونها دار رعاية ونادٍ للمسنين، فإليها يأتي المسنون إما للمشاركة

في بعض الأنشطة وإما لينزلوا هناك ويستفيدوا من نظام رعاية تقليدي. جعلت كلير هَمَّ نزلائها من همها، فكانت تحتفل بعيد الشكر معهم، وبعيد الميلاد معهم. أمضت حياتها معهم. أما خارج الدار فأمضتها مع أصدقاء الفيسبوك والبرامج التلفزيونية اللعينة والفواصل الإعلانية التي تتخللها.

بيد أن قصص نزلائها ستظل أبداً الأحب لها، ولا سيما ذكريات وحكايات السيد بهمان أصلان.

الفصل الرابع والعشرون

1981-1978

الأنباء

أغسطس 1978

التهمت النيران سينما ريكس في أحد الأيام الماضية فقضى أكثر من أربعمئة شخص. من الناس من حوصر وعلق، ومنهم من كان يجري باحثاً عن منفذ للنجاة فلا يجد لذلك سبيلاً. لم أستطع منع ذاكرتي من العودة بي إلى مواعيدنا في سينما متروبول. مرت اليوم خمس وعشرون سنة على الانقلاب، ولكن ما أشبه اليوم بالبارحة. ها هي المظاهرات تملأ الشوارع كل يوم وتقول هل من مزيد. يؤمن أبنائي أن لا حل سوى آية الله الخميني، رجل الدين المنفي الذي أصبح بين عشية وضحاها يتمتع بشعبية عارمة. أنا لا أفهم. إن شباب اليوم في هذه البلاد يحتاجون شيئاً يتمسكون به ويؤمنون به ولكن ذلك الشيء يجب ألا يكون الشاه.

التاريخ يكرر نفسه. كم يؤلمني أن أرى الطلبة يحجون إلى الشوارع كسَيْلٍ جارفٍ وكلهم إيمان أن مشاكلهم ستُحَل فور انزياح الشاه. لا أنكر أنه كان ضالعاً في الإطاحة

برئيس الوزراء مصدق وقد ساعده الغرب في ذلك. ولكن هؤلاء الشباب اليوم يعتقدون أن ما هي إلا أن ينزاح الشاه عن سدة الحكم حتى تُحَل كل مشاكلهم. يقلقني ما هو قادم. إننا نريد الديموقراطية ولكن يبدو أننا نلاحق سراباً. ثم ماذا لو كان المستقبل أسوأ مما نحن عليه الآن؟

كيف هي أمورك أنت في أمريكا؟ تصلني بعض أخبارك من جهانگير ولكم أنا ممتن لذلك. يسعدني أنكما ما زلتما على اتصال. عجيبة هي فكرة أن يستطيع المرء في هذا العالم العصري التواصل مع الناس من وراء المحيطات بمجرد رفع سماعة الهاتف! خبرني جهانگير أنك تعملين، وأنك تحظين بوظيفة في جامعة هارفارد، أليس كذلك؟ برافو، أحسنت صنعاً يا رويا جون. فلطالما كنت موعودة بمستقبل زاهر.

مارس 1979

ها قد رحل الشاه. ولا أرى إلا عودة الصدمة النفسية على وجوه أولئك الذين يذكرون عام 1953، كشأننا نحن، والذين يشعرون بخيبة الأمل الفظيعة تحت جلدهم من رؤية العالم ينهار في يوم واحد. لكن الشباب يحذوهم أمل كبير، يعتقدون أننا قطعنا رأس الأفعى هذه المرة. وهم سعداء برحيل الشاه. يحاول هذا الأخير الدخول إلى أمريكا لكن سمعت أن بلدك الجديد لن يسمح له بذلك. كيف لهم أن يمنعوه من الدخول بعد كل ما فعله من أجل الولايات المتحدة؟

قد نحظى هذه المرة بحكومة ديمقراطية حقة، لكني لن أصدق ذلك إلا إذا رأيته جهراً.

أتذكرين شفق ذلك المساء عندما طلبت يدك للزواج؟ أتذكرين السماء في ردائها الأرجواني؟ أتخالين أنني لم أرفع بصري إلى السماء مئات الليالي متذكراً قبلتك؟

أغسطس 1986

إن وطيس الحرب يحمى يوماً بعد يوم منذ هاجم صدام حسن إيران في سبتمبر الماضي. إننا نقضي الليل في ملاجئ في الأقبية، وأبنائي خائفون طوال الوقت. أجزاء كثيرة من البلاد لن تتعرفي عليها اليوم فقد دمرت البلاد. في الليل، نغطي النوافذ بورق الألومينيوم لكيلا ترى طائرات صدام مدينتنا من خلال النور في النوافذ. إننا نعيش في رعب دائم. إن أبنائي في مطلع عشريناتهم ولا أريد لهم أن يُجنَّدوا في الجيش فيأمروا بقتال وقتل العراقيين. ولماذا؟ كي تشعر هذه الحكومة الإسلامية الجديدة بنشوة القوة وتحشدنا حول العلم؟ أتدرين أن ابنتي مرغمة على ارتداء الحجاب كلما أرادت الخروج؟ أي مصير هذا أصبحنا عليه؟ أكاد لا أصدق أن هذه هي بلادي.

رويا جون، لقد التحق جهانگير بالطب العسكري. لقد قُتل في الجبهة يا عزيزتي رويا وقد ترك رحيله فراغاً كبيراً هنا.

الفصل الخامس والعشرون

2013

المحل الكبير

ظهر أنف زاري على شاشة الهاتف الخليوي متضخماً على نحو غريب. إن من الأشياء القليلة المتبقية التي كانت تعزي رويا في الحياة هي إمكانية مهاتفة الناس دون أن **يروها**، إلا أن زاري كانت تصمم على إجراء مكالمة فيديو معها كل أسبوع. قد تراها صاحبة عقلية قديمة، ولكنها لا تطيق أن يكون وجهها بادياً على شاشة الهاتف، فذلك أمر غير عقلاني. ومع هذا فهي لا تنكر أنها ترتاح لرؤية زاري، ولو على شاشة جهاز. أختها الصغرى التي أجرت عملية استبدال مفصل الورك قد أصبحت جدة اليوم، تجادل زوجة ابنها على نحوٍ شبه يومي.

- «إن والتر يحتاج مشابك ورق ومفرمة أوراق. ينبغي لي الذهاب يا زاري».

- «طيب يا أختي. تدرين، إنه أمر رائع: تتمتعين ببشرة فتاة يافعة وأنت في السابعة والسبعين! الحمد لله على جيناتنا!».

- «سلمي على جاك وداريوس وليلى والأحفاد كلهم».

- «سأفعل. آمل أن ألقاك في النوروز! قبلاتي الحارة لوالتر وكايل».

مرت السنين بكل جسارة. لقد انقضت اليوم عقود منذ أخذ الخناق حياة ماريغولد، وعقود منذ أطيح بمحمد مصدق في ذلك الانقلاب. لقد تغير العالم كلياً؛ فإيران شهدت ثورتها الإسلامية عام 1979، ولم تعد بلادها اليوم مملكة يحكمها الشاه، بل جمهورية تديرها حكومة من رجال الدين. تضاخمت النوائب وتعاظمت، ولم يكن لرويا وقت لتبكيها جميعاً. كان والتر يتابع نشرات الأخبار بانتباه، لكن كانت هي تتفضل أن تحشو رأسها في فرن المطبخ على مشاهدة تلك النفايات المتنكرة باسم «الأخبار» التي تذاع على التلفزيون هذه الأيام.

ولكن الأطفال الرضَّع لا يموتون. لا يمكنهم الاختفاء هكذا تاركين متعلقاتهم وراءهم. طفلتها لم تمت. في ذلك المستشفى، أرادوا إقناعها أن طفلة عمرها عام واحد قد تموت بعدما كانت تتنفس الحياة قبل دقائق بين ذراعيها. ماريغولد لم تكن معها في كل وقت وحين وحسب؛ بل كانت قطعة منها، كانت تحملها معها دائماً. إن الأطفال لا يتركونك هكذا.

ولكن يا أختي فكري في كايل! ماريغولد ماتت، ولكن الله رزقك بكايل!

في ربيعها الثاني والأربعين وبعد سنوات قضتها في وظيفتها الإدارية بكلية إدارة الأعمال في هارفارد، وكانت قد أعرضت عن فكرة الأمومة تماماً - فالواضح أنه لم يكن مقدراً لها أن تكون أماً -

وهبها الله كايل. إن ما كان محسوباً من المحال قد حدث من جديد. مفاجأة... حادثة... طفل... ومرة أخرى أحست ووالتر بنعومة لمسة وجه صغير على وجهيهما. ثم امتزج عليهما من جديد سيل من الأحاسيس بالفرح والرعب.

أصبح كايل محور كونها الجديد، فعلقت عليه كل أحلامها. لقد جعلها تضحك من قلبها من جديد وبعثها إلى الحياة من جديد. لقد كان مناها في الحياة ومن أجله كانت تحرص على ألا ينهار العالم.

كبر كايل (وصار طبيباً!) وظلّت رويا كل صباح تمارس رياضة المشي التي حفظت لها صحتها البدنية والعقلية، وساعدتها في تصفية ذهنها. لم تكن تمشي مع الأصدقاء، فهم كثيرو اللغو وتحتاج هي إلى الاختلاء بأفكارها. كانت نسوة في الجوار يجتمعن للمشي في مركز التسوق عندما يكون الطقس بارداً في الخارج، وكانت تصلها رسائل إلكترونية فيها دعوات للانضمام إلى المرح، رسائل يكون نصها على شكل: **موعدنا خارج سينامن ستايشن!** أمام كشك يبيع فطائر عجين دهنية مقلية ومنكهة. لا شكراً. لم ترغب رويا في المشي غدوة وروحة داخل مبنى مغلق وتستنشق هواء عفناً وتمر بمتاجر تبيع بضاعة غير ضرورية. كانت الخردوات التي تملأ المركز التجاري تستبد بها. لذلك آثرت صحبة الطبيعة لأطول مدة ممكنة، وطالما أنها لا تزال قادرة على الحراك.

ولم يكن لها مناص من الحراك. فبعض الأشياء لا تذر الإنسان وتظل تطارده. بعض الجمرات تعشش في جلده. والطلقات لا يمكن نسيانها. وكذلك شأن قوة الحب.

كانت أحياناً تشعر بأنفاسه في أذنها ليلاً. بالتأكيد لم يكن هو

ذلك الرجل الذي ظنت أنها لمحته هنا وهناك في نيو إنجلاند، أو حتى في كاليفورنيا خلال سنواتها الأولى، عندما كان يمر أمامها رجل مسرعاً فيجعل جسدها يهتز، وتلمحه بنظرة محيطية خاطفة فتعتقد جازمة أنه هو. ذات يوم، كانت في أحد فروع محلات فيلين في بوسطن لاقتناء قميص لوالتر، فرأت رجلاً في الجهة المقابلة من الرف يشبه بهمان. أحست بيقين جازم أنه بهمان. ولكن بالتأكيد لم يكن هو. يستحيل أن يكون هو. وذات مرة، في أحد المطارات، رأت شاباً يشبه بهمان في شكله ومشيته تماماً، فصعقت حتى أنها استندت إلى أحد الأعمدة كي تحافظ على توازنها من السقوط. كان الشاب عشرينياً، ولما التقطت أنفاسها تذكرت أنها كانت في عقدها الرابع وبذلك فإن بهمان في عقده الرابع أيضاً، ولا يمكن أن يكون هو ذلك الشاب الذي رأته. كانت دائماً تتخيله في صورته الشابة ويستحيل أن تتخيله مسناً. أيكون قد صلع؟ أيكون قد بدن؟ والتر لم يفقد شعره قط. لقد كان «حسن الطلة» كما تحب باتريسيا وصفه. لقد كان نسخة من جيمي ستيوارت. وماذا عن بهمان؟ أي نجم سينمائي كان يشبه؟ أين تكون قد رمته دروب الحياة؟ لم يعد ذلك من شأنها اليوم.

عندما جاء كايل، جلب معه نفحة من الهواء إلى قوقعة العزلة والألم الضيقة التي حبسا نفسيهما فيها، ثم ما لبثت تلك النفحة أن توسعت وأدخلت معها باقي معالم الحياة. فبفضل كايل، احتست رويا الشاي مع باقي الأمهات؛ وبفضله شاركت في اجتماعات مجالس الآباء والمعلمين؛ وقفزت فرحاً كلما ضرب كرة البيسبول في كل مباراة. لقد طرقت أبواب السعادة من جديد وعادت تمشي بارتياح، وتعد البيض المخفوق كل صباح، وتناقش نتائج مباريات

كرة القدم، وتنحني على الكتب المدرسية والتقارير التقييمية. فبفضل كايل تعلمت الحياة من جديد.

«ما الذي يحدث عندما تنضب العروق الدموية؟».

كانت أسئلة كايل لا تنتهي، وكان له فضول لا يشبع. كانت تأخذه إلى المكتبة وتضعه على حجرها وتقرأ له الكتاب تلو الكتاب. كان في سنواته الأولى يتكلم بلكنتها الفارسية، ذلك أنه كان يسمع صوتها هي أكثر من أي أحد آخر، ولكن ما إن التحق بمقاعد الدراسة حتى انقشعت تلك اللكنة عن لسانه. وحين كانت الأمهات يشكين عدم انتباه أبنائهن، كان كايل منصتاً يقظاً، وكانت شهيته لفهم العالم من حوله لا تشبع. لقد كان في صغره يؤلف مع أمه الفارسين الاثنين. أما الفارس الثالث - أخته الكبرى - فقد كانت حية دائماً في قلب رويا. ابنتها ماريغولد.

حمدت رويا الله أن دَخْلَ زوجها كان كافياً ليغنيها عن العمل في الكلية، فتركت وظيفتها وتفرغت لكايل، فقد أرادت أن تقضي معه معظم وقتها. ولكم ودت لو استطاعت أن تضع قلبه في قمقم وتحفظه حتى لا يفطره أحد، ولكم ودت لو استطاعت أن تضع عليه درعاً يقيه الخطر والفقدان والأحزان، لكنها كانت تدري أن قدره مدوّن على جبينه بحبر خفي، وأن لا حرص الأمومة ولا قلق الدنيا قد يمنعان عنه خطراً إذا كتب عليه.

أخذته لمشاهدة الضفادع في بركة ميريام هيل وتعلمت المسافة بين النجوم والقمر لتعلمه إياها، ورسمت له على ورقٍ شخصياتِ برامجه التلفزيونية المفضلة. وبفضل حضور والتر الثابت، مهدت لأسرتها حياة في نيو إنجلاند، وأمّنت لها كل ما يلزم في منزل على الطراز المعماري الاستعماري ذي مصاريع نوافذ خضراء.

وفي كل عام، حين كان كايل يطفئ شمعة فوق حلوى عيد ميلاده، كان ارتياح رويا الممزوج بقلقها ينبعث مع خصلات الدخان التي تصعد من الشمعة.

كان محل القرطاسية يبعد نحو أربعة كيلومترات عن منزلهم؛ عرفت الرقم لأنها كانت تحب أن تضبط عداد المسافات على الصفر فقط من باب اللهو. المحل جزء من سلسلة محلات وطنية، وكان واسعاً وساطع الإضاءة كأنه مستودع. ولجا المكان وثبتت رويا نفسها. كانت تفوح من الأروقة رائحة المواد الكماوية والسجاد الرخيص وشراهة الربح والضجر. صف بعد صف من المفكرات وأوراق الملاحظات القابلة للصق والمناديل المطهرة والعلب البلاستيكية وحافظات الأوراق والأظرفة وأقلام التلوين والفشار (فشار؟ ولم الفشار؟). كانت تحب هذه الأشياء؛ أدوات قرطاسية وبرايات وأقلام حبر وأقلام رصاص. أما اليوم فقد اختلف الوضع. لم تعجبها تلك الأشياء وهي معروضة على هذا الشكل، وهي متناثرة في هذا المكان الأشبه بكهف وليس فيه حتى قيّم يلبّي حاجات الزبائن. تجاهل أولاد مراهقون بوجوه منمشة يلبسون زياً موحداً عبارات «لو سمحت!» التي وزعتها عليهم رويا إلى أن صاح والتر «لو سمحتم!» كما لو أنه كان يوبخهم. عندئذ فقط جاءهما من أرشدهما إلى الرواق حيث مفارم الورق. (كان والتر مصراً على التخلص من كل الأوراق والملفات التي لم تعد لها حاجة، حتى إذا «جاء الوقت» لم يضطر كايل لفعل ذلك بنفسه. «الأفضل أن ننظم الأشياء ونتخلص من الأوراق التي كدسناها طوال السنين. يجب أن

نفعل ذلك الآن، ما دام لنا من العقل ما يلزم ونسهل الأمر على كايل عندما نرحل فنكفيه تعب ترتيب أشيائنا».)

بعد كثير من المقارنات والمفاضلات استقر والتر على مفرمة ثم ساق رويا عبر الأروقة المغطاة بالسجاد الذي تفوح منه رائحة الكيماويات إلى أن وصلا المكان المخصص لمشابك الورق، وإذ هي بمشابك كثيرة ومختلفة التغليفات. كل هذه الخيارات لمجرد مشابك ورق. وفي الأخير، انتقيا برطماناً مليئاً بمشابك في الأزرق الفاتح والأخضر العشبي والأصفر الفاقع والأحمر الداكن.

في طريقها إلى أحد طوابير الدفع (إنه واحد من ثمانية!) التقطت رويا من إحدى السلل مطهراً يدوياً وُضع في طرفه حلقة مطاطية حتى يمكن إلصاقه بحقيبة يدوية أو سلسلة مفاتيح أو أي شيء. هذا المطهر يمكنه درء نزلات البرد والزكام والالتهاب الرئوي وأحدث الأمراض انتشاراً. فألفت نفسها تتساءل: هل كان بإمكان هذه القارورة البلاستيكية الصغيرة المليئة بمادة هلامية مضادة للباكتيرية درء الخناق عن ماريغولد؟

جاء دورهما عند الصندوق فتذمرت رويا قائلة: «هذا المحل كبير جداً ولا أحد من هؤلاء المراهقين يعلم ما الذي يفعله».

عند نهاية الطابور جلست موظفة الصندوق؛ امرأة في أواخر الستينات، لا تصغر رويا كثيراً. كان لها عينان في زرقة داكنة وشعر رمادي متموج وناعم. رفعت رأسها عند كلمات رويا، فخافت الأخيرة أن تكون قد أساءت إلى زملائها لكن الموظفة تبسمت قائلة:

- «وأنا هكذا أقول. لكنهم غلمان طيبون. ثم إن المحل يستقبل الكثير من السلع الجديدة، لا يمكننا لومهم».

همهمت رويا: «بالتأكيد. كل ما في الأمر أنه... محل كبير جداً».

- «يراه البعض مكاناً رائعاً. ففيه كل شيء! والأمهات يحببن المجيء إليه كلما أردن التبضع للدخول المدرسي. ومع ذلك فأنا أحس بالدوخة عندما آتي إلى العمل هنا. دعيني أخبرك بسر» - ثم مالت حتى اقتربت من رويا وهمست لها - «أنا أيضاً من محبي محلات الأحياء الصغيرة. لكن لا تخبري رئيسي بذلك!».

أخرج والتر بطاقة ائتمان من محفظته ووضعها في ماكينة الصرف الآلي وانتظر إيصاله.

قالت رويا: «تلك أيام قد ولت، أين هي اليوم محلات الأحياء الصغيرة؟».

قالت الموظفة وهي تضع مشابك الورق والمطهر اليدوي في الكيس بينما أعاد والتر مفرمة الورق إلى عربة التسوق: «لا يزال هنالك بعض المحلات العائلية الصغيرة في بعض الأماكن. وأنا لا أعني المحلات متعددة المبيعات التي تخصص جناحاً لأدوات القرطاسية والتي لا تخرج عن دفاتر السلك الرخيصة وسواها، بل قرطاسية على الطراز القديم. محلات قرطاسية حقيقية، مثل التي في نيوتن بشارع والنوت، حيث يبيعون أرفع أنواع أقلام المداد والمحابر! لا أدري كم من الوقت سيصمدون أمام المنافسة القوية التي يلقونها من محلات كبيرة كمحلنا ومن مواقع البيع على الإنترنت، ولكنها حقاً بوابة زمنية، صدقيني!».

- «طيب، شكراً لك. والآن، يوماً سعيداً لك»، قال والتر ثم وقع الإيصال ودفع عربته بسرعة مبتعداً عن الموظفة التي لم يكن مهتما قط باقتراحاتها.

شعرت رويا بانجذاب فجائي تجاه هذه السيدة الطيبة: «شكراً جزيلاً لك».

- «والآن، يوماً سعيداً **لكما** أيضاً»، قالت الموظفة محاكية والتر وغامزة رويا.

ردت لها رويا الغمزة وتبعت زوجها إلى المرآب البارد.

علّق والتر وهو يضع المفرمة في صندوق السيارة: «سيدة غريبة الطباع».

- «ألفيتها خدومة!».

قال: «يا للعجوز الشمطاء الوحيدة» ثم استطرد سريعاً: «أمزح!».

عادا إلى المنزل قاطعين الشوارع المتجمدة وعلبة مشابك الورق والمطهر اليدوي في كيس بلاستيكي على حجر رويا.

وفي البيت، وجدا في جهاز الرد الآلي رسالة من عيادة علاج الأقدام.

- «اسمع هذا يا والتر، يقولون إنك بحاجة إلى قوالب جديدة لنعال أحذيتك المقومة للأقدام».

- «قوالب جديدة للنعال، يا لطرافتهم!».

- «فعلاً»، قالت رويا وهي تخرج أصابع السمك من البراد لتطبخها. ذلك أنها كانت من التعب ما يمنعها من طبخ الأكل الإيراني مؤخراً، فالإنسان في عمر السبعين يضطر للمضي مع السيل.

في الأسبوع التالي، انتظرت رويا رفقة والتر في عيادة علاج الأقدام. في العادة كانا يذهبان إلى عيادة في بيلمونت، بيد أن تلك

العيادة كانت تخضع للترميم فأرشدهم مساعد الطبيب إلى عيادة جديدة تقع قرب مشفى نيوتن ويليسلي. غيرت رويا وضعية جلوسها في غرفة الانتظار، فبدا لها أن كل رياضيي المدرسة الثانوية والأطفال البغيضين من الضواحي كان لهم موعد في العيادة يومها.

- «رويا، لست مضطرة للانتظار معي هنا، اخرجي واستنشقي هواء نقياً فقلما نحظى بطقس جميل كهذا».

- «إني منتظرة معك، لا بأس بذلك».

- «لست مضطرة لذلك، هيا تجولي بين المحلات، واحتسي كوب قهوة. أنا لدي مجلتي لتؤنسني». وربت على مجلة قانونية مردفاً: «فقد يطول انتظارنا».

ارتاحت عندما خرجت من غرفة الانتظار المكدسة بالأطفال المزعجين والمراهقين الملتصقين بهواتفهم. في الخارج، كان الهواء لطيفاً بعض الشيء. كان والتر على حق، فالطقس كان أدفأ طقس منذ شهور. يوم يندر وجوده في منتصف يناير! حتى إنها لم تستطع الخروج للمشي لأسابيع في ظل زمهرير الشتاء. **أنا لا أفهم ما الذي يمنعك من ترك تلك القارة القطبية والانتقال إلى كاليفورنيا، يا أختي!**

سارت خارج عيادة علاج الأقدام بخطوات متأنية، فآخر ما كانت بحاجة إليه هو أن ينقصهما هو أن تفقد توازنها وتسقط. حمدت الله أنها كانت تنتعل حذاءها المتين؛ حذاء رمادي بنعل سميك تعلوه عقد صغيرة. مشت بضعة أمتار فألفت نفسها في قلب الحي. هناك، مرت بمخبزة فنظرت إليها قطة كانت تربض بكسل وراء زجاج المحل، ثم مرت بإسكافي على الطراز القديم فرأت أحذية مصفوفة وقربها وُضعت صفوف من علب التلميع. أحبت هذا الحي من نيوتن، فالمحلات هنا ليست بفراهة مراكز التسوق كما أن

عبق الأصالة يتضوع منها. ثم إنك لن تجد هنا محلات كبيرة.

مرت قرب محل صغير لبيع البيتزا فأغرتها رائحة صلصة الطماطم الحلوة بالتوقف وشراء شريحة بيتزا. أخذت تنازع أمرها في الدخول والاستمتاع بالبيتزا فإذا بها تلمح يافطة على بعد أمتار. كانت اليافطة تتدلى من تعريشة في الطابق الثاني وبالرسم الزخرفي كتبت عليها كلمة باللون الذهبي على خلفية سوداء: **المكتبة.**

رنت في رأسها كلمات موظفة الصندوق في المحل الكبير: **يبيعون أرفع أنواع أقلام المداد والمحابر!** تساءلت إن كان هذا هو شارع والنوت. لا بدّ أنه هو. ثم حملتها قوة خفية لم تستطع تفسيرها ومشت بها إلى اليافطة.

فتحت الباب فسمعت رنين جرس مألوف. لم تدخل محلاً مجهزاً بهذا النوع من الأجراس منذ وقت طويل، ولكن تلك الأجراس القديمة لها الرنين نفسه.

استغرقت عيناها بضع طرفات كي تستأنسا بالمحل المظلم قليلاً والذي تملؤه رائحة معتقة، فلما صفت الصورة في عينيها رأت رفوفاً مصفوفة بالمجلات الملونة والدفاتر مختلف أحجامها وأشكالها. وعلى يسارها رأت طاولة تراكمت فوقها الهدايا وأنواع الأجهزة كساعات المنبه وأحاجي الصور المقطوعة وأقداح الشاي والصابون الفاخر. وفي وسط المحل، كانت علب الأقلام وأقلام الرصاص مختلف أنواعها تملأ الرفوف، ثم تجولت في رواق أدوات الكتابة حيث كان الزبائن يجربون الأقلام بشخبطات متعددة ككلمة مرحباً وخربشات تركت على جوانب العلب التي تحوي تلك الأقلام. كان هناك أيضاً برايات قديمة الطراز ومقالم جديدة وفاخرة معروضة في صفوف أنيقة.

مرّت بالرواق تلو الرواق وكأنها في حلم وعندما وصلت إلى المنضدة الرئيسية، تسمرت تنظر إلى خزانة زجاجية تحوي أقلام مداد ومحابر براقة؛ تماماً كما أخبرتها موظفة الصندوق. كانت مرتبة كما ترتب الحلي: كانت المحابر تلمع بألوان كالأزرق الياقوتي والأخضر الزمردي والأرجواني وكانت إحدى المحابر في لون الرمان. تملكتها رغبة في فتح أحد أقلام المداد وملء خزانه بالحبر بعناية ثم تمريره فوق ورقة جديدة ونظيفة. تذكر أنه كان لها نشافة خاصة لتلك الحروف التي خطتها قبل زمن طويل حتى لا يجري الحبر عن مكانه فلا تتلطخ كلماتها قبل أن تضعها في الظرف الذي ستخبئه في أحد دواوين الرومي.

- «هل وجدت ما تحبين؟».

التفت مشدوهة كمن ضُبط سارقاً فرأت رجلاً يقف خلفها عند الباب. كان له شعر رمادي وبشرة زيتونية.

- «آه نعم. . .».

لم تستطع إكمال كلامها وأحست بدوار فجائي ثم انقبض صدرها وأحست بالمكان يهتز من حولها.

سألها الرجل: «هل أنت على ما يرام؟».

صوته. وجدت في صوته نبرة مألوفة لدى مسمعها.

- «بالطبع»، قالت وهي تكاد تتداعى ثم استطردت: «هل لي بالجلوس من فضلك؟».

تقدّم منها وأخذها من ذراعها برقّة وساقها إلى كرسي مبطن بوسادة زهرية وراء المنضدة فاستراحت عليه وأسندت ظهرها ولم يزل جبينها يخفق.

- «أأحضر لك ماء يا سيدتي؟».

- «كلا، أحتاج فقط إلى التقاط أنفاسي».

- «بل سأحضر لك الماء».

ألفت فيه شيئاً مألوفاً؛ إصراره ولباقته وشيء من حركات جسده. عيناه السوداوان وبشرته الزيتونية ولكنته الخفيفة. ثم أدركت ما أرادت سؤاله: «هل أنت إيراني؟».

ردّ وهو ينحني لها: «**خانم سلام، من فكر كردم شما هم ايرانى هستيد** (السلام عليك يا خانم، وأنا أيضاً اعتقدت أنك إيرانية)».

- «**هستم**. (أنا كذلك بالفعل.)»

قال بالفارسية: «سأعود في الحال، سآتيك بشيء تشربيه».

اختفى عبر باب وراء المنضدة بينما أراحت رأسها على ظهر الكرسي، ثم عاد إليها بعد بضع دقائق حاملاً صينية فيها **چاى استكان** (كوب شاي) وصحن فيه مكعبات السكر.

- «لِمَ تكلفت العناء، أنا بخير».

- «لا عناء يذكر، فلدينا ساموفار هنا في المحل. هكذا نحن الفرس، كما تعلمين، يجب أن نشرب شاينا».

كانت لغته الفارسية متقنة. لا بدّ أنه عاش طفولته في إيران أو لعل والديه اهتما بتعليمه اللغة.

وضع الصينية أمامها قائلاً «**بفرماييد** (تفضلي) سيريح هذا الشاي أعصابك».

رشفت الشاي فملأت فمها نكهة ليمون البرغموت والهال الممزوجين مع قليل من بتائل الورد فأخذت ذاكرتها في جولة إلى الديار.

- «تعرف إعداد الشاي الإيراني الحقيقي. شكراً لك».

هز كتفيه قائلاً: «والداي علماني».

بدأ ذهنها يصفو من تأثير بخار الشاي وأريجه. كان الرجل في أواخر الأربعينات أو أوائل الخمسينات. ربما أتى إلى الولايات المتحدة في أواخر صباه مع أسرته في إطار موجة الهجرة التي شهدتها إيران عقب الثورة الإسلامية عام 1979.

- «عسى ألا أكون قد أرعبتكَ، كل ما في الأمر أني فقدت توازني لحظة. وأعصابي قليلاً». ثم وضعت الكأس فوق الصينية وأخذت تحملق فيه. «كما أنني، عدم المؤاخذة، أظن أن وجهك مألوف لدي».

رد باسماً: «نحن معشر الإيرانيين جميعنا نتشابه، أليس كذلك؟».

وعندها، أحكم على صدرها انقباض أحست أنه قد يطويها على نفسها. حدقت في الشاي ومن ثم جالت ببصرها في أرجاء المحل من جديد. كانت الرفوف مصفوفة على نحوٍ قطري وكانت الخزانة الزجاجية التي تحوي أقلام المداد صفت في خطوط متوازية. وفي إحدى زوايا الخزانة، رأت رفاً مستقلاً فيه كتب أغلفتها ورقية. لم تكن قد لاحظت ذلك الرف من قبل. واستطاعت من حيث تجلس تمييز ما على الأغلفة: كان عليها جميعاً رسوم تشبه المنمنمة الفارسية، وفي معظم هذه صور رجل على رأسه عمامة يحمل في يده آلة **سه تار**[1].

(1) آلة عزف وترية في فارس وهي من أسرة العود - المترجم.

سألته في وهن: «أنت تبيع الكتب أيضاً؟».

رد الرجل: «بعضها فقط. كتب تلوين للأطفال، وكتب لتعليم الأشغال اليدوية، وكتب الملصقات، وأشياء كهذه».

- «ولكن هذه هناك؟».

وأشارت إلى الرف الذي يفترض أن يكون عليه بطاقات معايدة وتقويمات طبعت عليها صور الكلاب والهررة والمحيطات، لكن بدلاً من ذلك، كانت عليه نسخ صغيرة لسلسلة من الكتيبات كانت رويا تعرفها، ذلك أنها كانت تشتري منها لكايل عندما كان صغيراً لتقرأ له بالإنجليزية الشعر الذي أحبته هي منذ صغرها، فيكتشف بنفسه الحكمة والولع في كلمات شاعرها المفضل دائماً.

- «تبيع كتب الرومي؟».

هز الرجل كتفيه من جديد وقال: «كانت نوعاً من شغف والدي. لطالما كانت له رؤيته الخاصة لما يجب أن يكون عليه هذا المكان. وبدقة».

- «حقاً؟».

- «نعم. واجهنا صعوبات في تطبيق تلك الرؤية والاستمرار على مر السنين. ولكن أنا وأختي صمدنا».

- «أختك؟».

- «نعم. توأمي. على كل حال، لقد كان لأبي رؤية ونحن عملنا جاهدين على تطبيقها على أرض الواقع. واليوم... طيب. نحب أن نحافظ على هذا المكان كما كان يريده». وتبسم من جديد، «استطعنا الصمود».

تسارعت نبضات قلب رويا فجأة، وشعرت أنها قد تتعرض

لأزمة قلبية. المحل على هذا الطراز؛ كتب الرومي الصغيرة المرتبة على رف دائري؛ التصميم؛ الرؤية. لا! مستحيل!

سألته لاهثة: «أبوك... هل لي أن أسأل عن اسمه؟».

- «بالتأكيد. إننا من طهران ووالدي اسمه بهمان أصلان».

الفصل السادس والعشرون

2013

الموعد

لدى رجوعها عند والتر لتستفسر عن حصة قوالب النعال الجديدة، كان وجهها متورداً وقد غدت على حافة الانهيار. يحسب المرء منا أن العالم مكان معقد مليء بالأرواح التائهة وأن الأشخاص الذين يمرون بحياته، فيختفون منها، لن يلقاهم بعد أبداً. بيد أن كل ذلك يمكن أن يتغير في النهاية، فما هو إلا محل، وفنجان شاي فينقلب كل ما حسبه المرء رأساً على عقب.

كان أوميد، ابن بهمان، حسن المعشر، وذلك من حسنات العيش في أمريكا، ومن حسنات جيله. كان منفتحاً ولم يتردد في إتيانها من حديث أخباره. لم يكن حذراً ولا ظناناً كما الناس من جيلها. فلما قالت له إنها عرفت والده في يوم من الأيام، اتسعت عيناه وصاح: «حقاً؟ هل تمزحين؟». لم تستطع رصف الكلمات لسؤاله عما إذا كان والده حياً أم ميتاً، فمنذ وفاة جهانگير انقطعت عنها أخبار بهمان، ثم بعد ذلك ألقت به في غياهب النسيان. لكنه قال لها: «هل أخبره أنني التقيت بك؟ سيسر كثيراً إن علم أنني التقيت بإحدى صديقاته القديمات».

- «لا حاجة لذلك، قطعاً. لا تزعجه بالأمر فبالكاد كنا نعرف بعضنا. كل ما في الأمر أني سررت لمعرفة أنه بخير. ولمقابلة نجله. سررت بالحديث إليك وأشكرك على الشاي، لكن ينبغي لي الرحيل الآن فزوجي ينتظرني».

- «طيب، كما تريدين. على كل حال هو الآن نزيل بدار دوكستون لرعاية المسنين، فقط من باب العلم بالشيء، ويعاني من الوحدة قليلاً. أنا وأختي نزوره ما وسعتنا ظروف الحياة المجنونة والتزاماتها».

لم تستطع تصور الفتى الذي سيغيّر العالم وهو نزيل بدار رعاية. تساءلت ما الذي حدث لشهلا، غير أنها لم تجرؤ على سؤال هذا الرجل الطيب عن والدته. قالت إنه ينبغي لها الرحيل ثم ظلا يكرران كلاماً عن كون العالم صغيراً وأنها يجب أن تكرر زيارتها له.

أخبرها والتر لدى عودتها إلى العيادة أن النعال الجديدة مصنوعة من المطاط الرغوي، وأنه تفاجأ من متانتها. «هل تتصورين ذلك؟». امتطيا السيارة فتأفف والتر من أخبار رأس الساعة الصادحة من المذياع: «أولئك المسؤولون في واشنطن لا يجيدون السياسة، يجب علينا أن نصوت ضدهم جميعاً». ثم وجه كلامه إليها: «ما خطبك يا رويا؟ تبدين شاحبة. رويا؟ رويا، ما الخطب؟».

- «لا شيء، انتابني شعور خفيف بالإغماء قبل قليل، هذا كل ما في الأمر».

- «أأوقف السيارة؟».

- «كلا، استمر يا والتر. هيا نواصل طريقنا».

عند بلوغهما البيت، كانت لا تزال لاهثة مرتعشة.

- «سأسخن القهوة. القهوة ستنعش أعصابك».

قال والتر ذلك وانتعل شبشب الموكاسين واتجه نحو آلة صنع القهوة التي تعمل بالتقطير. لم يكن لهما ماكينة الإسبريسو الفاخرة ذات الكبسولات التي لطالما شجعتهما زاري على اقتنائها، إذ كان والتر يفضل آلة تقليدية يبقي فيها القهوة ساخنة في إبريق طوال النهار.

- «شكراً لك، سأذهب إلى المرحاض!».

مرت بوالتر في طريقها هرعة فلم تر إلا وميض صورة من شبشبه ذي الفرو البني الذي كان يطل من حول كاحليه.

شعرت بطاقة غير مألوفة ومخيفة تتلبسها وتصعد بها السلم بسرعة نسيتها قبل سنين. هرعت إلى المكتب الذي جعله والتر في غرفة نومهما، جلست ثم شغّلت الحاسوب. كانت يداها متعرقتين (ربما بفعل القفازات الحرارية) وقلبها يخفق بقوة. رجحت أن تكون هذه أعراضاً لسكتة قلبية تلوح في الأفق، مثلما جرى لجارتهما السيدة مايكل التي كانت تعرضت لسكتة دماغية. ربما تموت فيسقط رأسها على لوحة المفاتيح إلى أن يجدها والتر على حالها ذاك ويدفن معها سر ما كانت تنوي كتابته. فكرت أن عليها التوقف، لكن رنين جرس المكتبة صدح في مسمعيها من جديد فجرت الدموع على وجنتيها. فتحت متصفح البحث كما علمها كايل، وعند ظهور خانة البحث، كتبت فيها: **دار دوكستون لرعاية المسنين.**

تذكرت قول أختها زاري:

لا أفهم لماذا لم تبحثي عنه في غوغل طوال هذه السنين يا أختي! عليم الله، لقد بحثت عن أخبار كل الرجال الذين أحببتهم

في يوم من الأيام. فمثلاً يوسف الذي من طهران أصبح اليوم طبيب جراحة الأعصاب في ماريلاند، فقد رأيت صورته على أحد المواقع الإلكترونية. ولكنك تصرين على ترك الماضي وراء ظهرك، عبثاً تحاولين يا أختي!

ارتعدت أصابعها. حسناً، إن كانت تنتظرها سكتة دماغية، فليكن ذلك، لكنها على الأقل ستكتشف سر الأحداث. في مساء ذلك الصيف، قرب الشجيرات ذات رائحة الياسمين، قبّلته قبلة حارة. ومنه تعلمت رقصة التانغو، وفي ذلك الصيف المشؤوم كانت تجري كل يوم لتتسلم رسائله، وبسببه كانت تدبج صفحة تلو الصفحة بقلم مداد وحبر أزرق. ومن أجله انتظرت في الميدان.

في الأسفل سيكون والتر بصدد سكب قهوته، أما هي فتناولت نظرات القراءة.

استقبلتها شاشة الحاسوب بصور وكتابات. دار دوكستون لرعاية المسنين مركز اجتماعي مجهز بمرفق خاص برعاية المسنين، ويقع في قلب مدينة دوكستون الجميلة بولاية ماساتشوستس. كانت واجهة الموقع الرسمي للدار مليئة بصور لأشجار تقف قرب بحيرة، وقاعة رقص للمسنين وصورة مقربة لطبق يخنة العجل مع الجزر والذرة مرفقة بتعليق: **طعام منزلي لذيذ!** تسلل إليها إحساس بأنها كانت تشهد شيئاً محرّماً ولكنه في الآن ذاته شيء عادي وطبيعي. كان الفتى الذي أعاد بناء مكتبتهما الطهرانية في الولايات المتحدة نزيل الدار التي تقع جنوب هذا المنزل بنحو 86 كيلومتراً - حسب إرشادات الموقع التي بحثت عنها في غوغل - المنزل حيث ينتظرها والتر. يا للعجب!

كان موقع الدار يُظهِر رقم الهاتف والفاكس، إضافة إلى

إرشادات توجهك خطوة بخطوة لتصل إلى بابها من كل الاتجاهات؛ جنوباً وشمالاً، شرقاً وغرباً. فركت رويا طرفَي عينيها. ما هذا!؟ عجوز سخيفة تعيد إحياء ذكريات خالت أنها دفنتها منذ ردح من الزمن.

نهضت بغية نزول السلم إلى حيث زوجها في الأسفل.

لكن أحست بقوة خفية تسحبها؛ قوة تتجاوز حدود الجاذبية، أرجعتها إلى الكرسي. دوت في نفسها رغبة لسؤاله: **لماذا**. لماذا كذب؟ لماذا تركها هناك؟ لماذا حطم كل شيء فجأة؟ لماذا غير رأيه؟ كانت تستحق أن تروي ضمأ فضولها على الأقل بعد كل هذه السنين. من يدري، قد تأتيها تلك الأزمة القلبية في أية لحظة، ولكنها تريد أن تعرف مرة واحدة وإلى الأبد.

ضغطت رابط «اتصل بنا» فوجدت رقم الهاتف.

لكنها لم تتصل، إنما نزلت السلم إلى والتر الذي سألها مرة أخرى ما خطبها.

في بداية مغازلتهما في كاليفورنيا، كانت قد ذكرت لوالتر أنها كان لها خليل عندما كانت في طهران، ولكن الأمر - قالت له - لم يكن أكثر من تعلق بأحدهم أيام المدرسة الثانوية. لم يكن أمراً مهماً. هي مغامرة طفولية كتلك التي لم تستثن منا أحداً، أليس كذلك؟

أحست أن في ذكر أمر مكتبة نيوتن لوالتر الآن، نشوزاً. أحست كأنها بذلك تفشي سر شخص آخر، وليس سرها هي. أحست كأنها ترفع الحجاب عن شيء مقدس وطيب ولكنه محفوف بالخطر.

صارت في ما تلى من أيام تبكي بلا سبب، وبلا مقدمات، وبلا إخطار. كانت نياط قلبها تتمزق كلما فكرت في مكتبة شارع والنوت

التي وجدت هناك طوال كل تلك السنين، في الولاية التي تعيش فيها وعلى بعد بضع مدن من حيث قضت أيامها، وغير بعيد عن منزلها على الطراز المعماري الاستعماري ذي مصاريع النوافذ الخضراء. كانت سائرة إلى الجنون في شيخوختها. وعندما كانت تتخيل أوميد، ابن بهمان، يرتب البضاعة في المحل، يغمرها شعور سريالي، مزيج من الحنين والاندهاش. تذكرت بوضوح كبير الكتبي الطيب الذي أخذ بيدها أول مرة في ذلك المحل بطهران. الصدمة وألم الخسران لم يغادرانها قط. ظلت تلك الذكريات لصق ذهنها أبداً. ولكنها اليوم بكت بكاء لم تبكيه منذ سنين، منذ وفاة ماريغولد. كانت تعيش نوبة حزن جديدة على شيء كانت تحسب أنها قطعت معه قبل سنوات.

لو كانت زاري معها لقالت لها: «تمالكي نفسك يا أختي!».

ولكن مع مرور كل يوم لا تفتأ تذكر كلام ابنه الطيب: «هل أخبره أنني التقيت بك؟ سيسر كثيراً إن علم أنني التقيت بإحدى صديقاته القديمات».

أرادت أن تلتقيه فقط لتعرف **لماذا**. فقط لتعرف أخيراً. وبهذا، وبعد أسبوع من زيارتها لتلك المكتبة في شارع والنوت، وبعد ستة عقود على اللقاء الأخير لها مع ذلك الفتى في مكتبة طهران، رفعت الهاتف.

موظفة استقبال: **أنا في الخدمة... امهليني حتى أتحدث إليه ثم أخبرك برده...** ثم اتصلت مرة أخرى: **نعم يمكنك المجيء، سيكون السيد أصلان في انتظارك.**

هكذا بكل سهولة.

وبعد المكالمة لبثت تنتظر أن تنشق الأرضية وتنهار الجدران.

ولكن عندما ذهبت إلى والتر وهو يجفف الأطباق بمنشفة عليها رسم لِصوص أصفر يحمل مظلة، وأخبرته أنها أخذت موعداً للقاء ذلك الفتى من ماضيها القديم، لا الأرضية انشقت ولا الجدران انهارت.

ثم بعد ذلك ستركب السيارة رفقة والتر في الثلج، هي وهو معاً. كان فيه طيبة جمة. قال إنه لا يريد لزوجته أن تعكف على التفكير والبكاء. إن أرادت أن تكلمه فلتفعل ذلك. «لقد بلغنا من العمر ما لم يعد لنا فيه أن نتألم دون سبب. عليم الله ما أشد هشاشة الحياة».

ثم سيترجلان من السيارة وسيتأكد هو أن وشاحها يحمي أنفها وفمها من الريح وسيصعدان درج بناية رمادية مكتوب عليه: **دار دوكستون لرعاية المسنين**. وفي الداخل ستقود مديرة شقراء رويا إلى بهو حيث يقتعد أحد المسنين كرسيه المتحرك قبالة النافذة، وهناك ستجتمع مجدداً بالفتى الذي حسبت يوماً أنه سيكون من نصيبها إلى الأبد.

الفصل السابع والعشرون

2013

لمّ الشمل

انصرفت المديرة عنهما وطرقت بكعبها سبيلها خارجاً فتركت رويا وبهمان وحدهما في بهو الطعام الساخن. أدار عجلات كرسيه المتحرك وتبسم فلمحت في عينيه شيئاً من ذلك الأمل قائماً باقياً.

- «كنتُ في انتظاركِ».

جاهدت لئلّا تخر ساقطة. خفق قلبها بقوة كبيرة. وعلامَ؟ ألم يفت الأوان على كليهما؟ شعرت بنفحة الريح تلك التي هبت داخل مكتبة السيد فخري لما دخل عليهما بهمان أول ثلاثاء في يناير قبل سنين خلت - كانت بالقوة نفسها. كان لها لحظتئذ؛ كما كان دائماً. حتى صوته كان هو نفسه، كما لو أنها ظلت تسمعه طوال هذه السنوات الستين. ها هو ذا الفتى الذي شاركها الرقص خلال أماسي الثلاثاء، الفتى الذي قبلها قرب شجيرات الياسمين لما قررا الزواج، الفتى الذي كان يكتب لها رسائل الحب إبان صيف الانقلاب.

نظرت إلى الأرض فلمحت حذاء العجوز الرمادي اللون وسميك النعل وتعلوه عقد صغيرة فأعادها ذلك إلى الحاضر. هي

اليوم في السابعة والسبعين. لم تعد فتاة في السابعة عشرة مغرمة بأحدهم لأول مرة في حياتها وتتطلع لحياة تعيشها مع الفتى الذي كان سيغيّر العالم. استيقظت عليها أحزان الماضي. ثم قالت: «حسنٌ. لكن ما أردتُ سؤالكَ عنه هو لماذا لم تنتظر في المرة الماضية بحق السماء؟».

أحست بالدوار من جديد فاضطرت إلى الجلوس. أقبلت على الكرسي البلاستيكي وارتمت عليه. ما كانت لتسمح لنفسها أن تهوي على الأرض أمامه. لم يفه ببنت شفة، ولم تسمع منه إلا طنين كرسيه الكهربائي المتحرك، ثم اقترب منها ولبثا على شأنهما، جنباً إلى جنب ينظران معاً إلى النافذة. لم تجرؤ على النظر إليه، ولو فعلت لشعرت كمن يحدق في قرص الشمس مباشرة أو في شعاع كشاف كهربائي قوي، وذلك أمر مؤلم جداً.

كان لوح الزجاج سميكاً ومتموجاً. أم ترى ذلك كان فقط من رؤيتها الضبابية؟ امتلأ جو البهو برنين المشعاع وأنفاس بهمان الشاقة، أما هي فبقيت تراقب رقائق الثلج تتكدس على حرف النافذة وعلى كبابيت السيارات المركونة في المرآب وسقف الجناح المقابل من المبنى وشقق الأرصفة وعلى قمم الأشجار في دوكستون. كانت أفكارها مثل رقائق الثلج تلك؛ هي كذلك احتاجت إلى النزول على الأرض والتجمع والاستعداد لهذا المشهد الجديد. لقد التأم شملها ببهمان من جديد، ها قد اختليا ببعضهما من جديد، وبعد فراق ستين عاماً، ها هما يجلسان جنباً إلى جنب ولوحدهما.

بالتأكيد كانت، طوال تلك السنين، تظن أنها ستلتق به يوماً ما. فالصدفة تلقي العباد في سبيل بعضهم البعض دائماً. ألم تتزوج هي والتر بسبب مرفقها الذي دلق قهوته من فوق المنضدة؟ تخيلت زاري

تقول لها: **انظري إليك يا أختي، جالسة كالبلهاء في هذا المكان ذي رائحة العجل اللاذعة وتحدقين في النافذة! كلميه على الأقل! انظري إليه!**

-«كنت قلقاً بشأن لقائك. كنت متوتراً. ولكن ها أنت ذي، هذه أنت». تكلم بالفارسية، بذلك الصوت الذي لم يغادر قط مسمعها.

منذ دهر بعيد، لم يحضر بهمان للقائها في الميدان، وتزوج فتاة أخرى ولم ينظر وراءه. ستقول ما جاءت لقوله:

- «لقد سامحتك».

نطقتها واضحة فصيحة كما لو أنها تدربت عليها أمام المرآة. ولكن، ليس هذا ما جاءت لقوله إطلاقاً. كانت تريد أن تسأله: **لماذا؟**. أما الآن وقد حضرت وجلست بقربه، لم يعد للجواب على ذلك السؤال أهمية. لقد كان كلاهما في أرذل عمره؛ لقد فات الأوان على هذه الأشياء وعلى أشياء أخرى كثيرة.

- «معذرة؟».

أسؤال كان هذا أم التماس مغفرة؟ التفتت إليه لتستوعب منه، وتتحمل في ذلك وهج الشعاع، بل تغمض عينيها إن تطلب الأمر. نظرت إليه فبدا لها مستضعفاً مرتعشاً فكررت مقالها: «لقد سامحتك يا بهمان (ألفت غرابة في نطق اسمه في حضرته من جديد، بل غرابة في نطق اسمه وحسب) كنا صغيرين، ولم نكن نعلم شيئاً عن الحياة».

رأت الحيرة في عينيه. أتراه لم يسمعها؟ أيكون له سماعة أذن لا يستعملها إسوة بكثير من الأصدقاء عرفتهم هي ووالتر؟

استرسلت بصوت أعلى: «لم آت ها هنا من أجل أخطاء

الماضي يا بهمان، حتى إني لا أريد سماع أي تفسير. ربما كنت أريد ذلك في الماضي، أما اليوم فقد تبدل الأمر».

- «سامحتني؟».

- «نعم».

- «لم أفهم».

- «اسمع، أنا لا ألوم إلا نفسي».

- «وعلامَ؟».

- «على أني حسبت أن يكون غير ما كان. ما أريد قوله هو أن للحياة صروفها، وإنني سامحتك وإنني ما أردت لقاءك إلا للقائك. أفكر في أننا لم نتكلم طوال تلك السنوات، ولماذا؟ بالتأكيد، كنت أسمع أخبارك من جهانگير - رحمه الله - ومنه كنت أعرف أحوالك لحين من الدهر. إلى أن أخبرتني زاري فيما بعد أن المسكين جهانگير مات في الحرب. ولكننا بلغنا سنّاً لا ينبغي لنا فيها حمل الأحقاد. هذا ما أردت قوله لك».

جاءتها رغبة في أن تربت على يده ولكنها لم تجرؤ. لقد كان هو؛ وكان لا يزال لديه سلطة عليها، حتى إنها لم تكد تصدق. ولكنها في حضرته، ويا للدهشة، كانت مفعمة حباً. وها هي تراه اليوم في خريف عمره! «بهمانها». الفتى الذي سيغيّر العالم، على هذا الكرسي المتحرك وفي هذا المكان.

نعم، لقد أحبته. كانت حقيقة حبها له قوية كموجة عاتية أغرقتها في السيول المالحة فعقدت شعرها ووخزت أنفها وجرفت الحياة من تحتها. بالطبع أحبّته. وفي وجهه رأت تلك الطيبة التي تذكرتها فيه. تذكرت كيف كان يعتني بها ويثق فيها، ويشاركها كل شيء. كيف كان يسند رأسه على كتفها إذا غلب عليه الحزن من

غضب أمه وافتقارها للمنطق. وفي النهاية، كان لأمه سلطة عليه أكثر مما كان لرويا. ولكنهما كانا في السابعة عشرة، وما كان بيدهما حيلة، وقد نفذت سُنة القدر فيهما.

- «سامحتني؟». خرج صوته نائياً.

لطمتها موجة أخرى لم تتوقعها. موجة باردة هذه المرة، وعاتية. بالتأكيد، كان يكرر الكلام مرة واثنتين. ثم لماذا كانت تتوقع أي شيء سوى ما ألفت؟ أيكون فقد الذاكرة؟ لعله الخرف. كان من المرجح أن بهمان لم يتذكر حتى من تكون. ربما أتت بعد فوات الأوان.

- «بهمان؟».

نادته ببطء كما لو كانت تكلم طفلاً. ربما كان عليها أن تضمه كما ضمها هو مرات عدة.

- «لو تدرين مدى السعادة التي حملتها إلي بمجيئك إلى هنا. لقد حلمت بلقائك. كان هذا حلمي».

ثم ومن دون تردد، أقبل على يدها وأمسكها.

تذكرت لمسته. بالتأكيد. كانت لمسة مألوفة جداً أنْ آلمتها. شمت فيه رائحة عطره، عطر العود. أيكون تعمد وضعه تحسباً لزيارتها؟ أكانا مثل المراهقين؛ متلهف كل منهما لنيل إعجاب الآخر من جديد؟ هي رفضت انتعال جزمة الثلج، فقط لتبرز في مظهر جميل.

- «لقد انتظرتكِ طوال فترة بعد الظهر».

ذكرته برقة: «إننا في الصباح».

- «لا، أقصد في الميدان».

- «عفواً؟».

- «كنت قلقاً أن تكوني مع من اعتُقل، أو أن يكون مسك مكروه. عندما لم تأتي دعوت الله ألا يكون مسك شر، فلما علمت فيما بعد أنك سالمة معافاة، ارتحت واسترحت. هذا كل ما كان يهمني. سلامتك. هذا كل ما زال يهمني. أريد معرفة أحوالك اليوم. قولي لي كيف حالك. أخبريني بكل شيء».

إنها أفاعيل الهرم، واضمحلال العقل! يا للرجل المسكين، لا يعلم تاريخهما.

قال فجأة: «توفيت شهلا».

فجأة، حضرت تلك الفتاة الطويلة ذات الشعر المتموج التي كانت قد تفرّست فيها من رأسها إلى قدميها في مقهى غنادي، والتي تسللت إليها في منزل جهانگير، وحدقت في الثريا بغضب، ومرت بهما لما كانت ترقص التانغو. حضرها طعم الشمام المهروس في الحفل تلك الليلة، والثلج داخل فمها. لم يكن الموت معطى غريباً، فقد مات كثير من أصدقائها خلال السنوات الماضية؛ ثم إن كلاهما فقد السيد فخري. وهي فقدت طفلتها! ولكن تلك الكلمات بالتأكيد ألقت في نفسها حزناً فقالت: «أنا آسفة. رحمها الله».

- «ربينا طفلين رائعين. توأماً».

- «ما شاء الله». سكتت ثم أرغمت نفسها على الاسترسال: «لقد تعرفت إلى ابنك أوميد». لم تذكر أمر المكتبة. لو فعلت لفتحت عوالم كثيرة من الذكريات، ولم يكن لها قِبل بذلك بعد.

- «أخبرني أوميد. يسرني أنك رأيت ما بنينا، فقد كنت أريد أن. . .». (وشد قبضته على يدها) «. . . أبني مكتبتنا».

أحست أنها على شفير الغرق من جديد، فما إن تذكرت المكتبة

التي في نيوتن حتى حضرتها صورة تلك المكتبة التي صارت رمداً بدداً في طهران.

تجرأت وسألته: «كيف ماتت شهلا؟».

- «حمداً لله لم تتعذب طويلاً. أخبرنا الطبيب بمرضها يوم الثلاثاء قبل عيد الشكر من سنة 2004، وتوفاها الله بحلول **النوروز**».

- «السرطان؟».

- «نعم، سرطان البنكرياس».

النوروز هو أول أيام الربيع، حسبَتْ رويا المدة بين التشخيص والوفاة فإذا هي شهور أربعة، مدة قصيرة، وقالت: «تغمدها اللّه بواسع رحمته».

- «كانت زوجة صالحة»، قال ثم سكت وأردف: «لكنها لم تكن أنت».

نكست رويا رأسها ونظرت إلى الأرض.

- «قولي لي، كيف حال ابنك؟».

- «وما أدراك أن لي ابناً؟».

- «لقد بحثت عنك على الإنترنت. إنه طبيب. رأيت ذلك. مبارك لك به. أرجو المعذرة، آمل ألا تعتقدين أنني أتطفل عليك. لم أستطع منع نفسي. وأعلم أيضاً أنك متزوجة من رجل يدعى والتر آرتشر، وهو محامٍ متقاعد اشتغل لدى ليبينسكوت وماكيفي. يا للإنترنت... لا تخفاه خافية». بدا عليه بعض الانزعاج لما لفظ اسم والتر، لفظه «فالتر» ولفظ ليبينسكوت «ليي-بيين-إس-سكوت».

قالت رويا: «مثل جهانگير. كان جهانگير شبكة الإنترنت لأخبارنا».

تهلل وجه بهمان لدى ذكر اسم صاحبه القديم وقال: «نعم، لطالما كان مركز الأخبار! أتذكرين حفلاته؟».

- «وكيف أنسى؟ تلك الأغاني التي كانت تصدح من الجراموفون!».

- «رويا...».

عندما نطق اسمها لم يعد شيء يهمّ: لا العقود، ولا الأطفال، ولا السرطان، ولا الخيانة، ولا الفقدان، ولا الانقلاب، ولا التاريخ. نطق اسمها كما كان يفعل دائماً. صارا بهمان ورويا من جديد؛ الحبيبان اللذان كانا يرقصان ويتكلمان ساعات طوالاً ساندين ظهريهما إلى ظهور الكتب في المكتبة. تمسكت بالكرسي البلاستيكي فلم يكن الوقت مناسباً للسقوط.

ارتفع صوت أنفاسه وكأن في صدره محركاً معطلاً. أما هي فالتفتت نحو النافذة تنظر إلى الخارج حيث تراكمت الثلوج ونزلت بغزارة. لم يأت أحد إلى البهو: لا أحد جاء يلعب البينغو ولا طعام قدم في هذا البهو الذي ملأت أرجاءه رائحة يخنة العجل. كانا لوحدهما تماماً. هل يكون زجاج النافذة بارداً إن لمسته؟ حتى مع كل هذه الحرارة التي كانت تستنسر بالداخل، هل ستشعر بالبرد لو هي لمست الزجاج؟ هاهنا، كانت رفقة شخص غريب، وهو نفسه حبيبها؛ هكذا تعايش هذان المعطيان في ذهنها فأخرساها عن الكلام.

- «اشتقت إليكِ كثيراً»، قال لها.

ربما ينجو الحب القديم من القيود والعراقيل ويصمد عقوداً مهما رفضه الرافضون.

- «وكذلك أنا اشتقت إليك».

- «هل أنتِ مرتاحة هنا؟».

- «بالتأكيد».

غيرت وضعية جلوسها ويدها لم تزل تمسك يده.

- «في أمريكا؟ في حياتك؟».

- «رهان موفق».

تكلمت على الطريقة الأمريكية.

- «لا أريدك أن تأسفي على وجودي في هذا المكان. أعلم أنه أمر مخزٍ في ثقافتنا، ولكن ابنتي تزورني بانتظام رفقة أسرتها. إنهم يعيشون هنا في دوكستون. وكذلك أوميد وزوجته وأطفاله. يزورونني أيضاً. إلا أنهم لم يسعهم الاعتناء بي، مع أنهم حاولوا ذلك، بيد أنني لم أشأ أن أحملهم وزر رعايتي، لا سيما بعدما أصابني الباركنسون. ثم إن هذا مكان جيد أيضاً، ينادونني 'السيد باتمان' هنا».

- «الباركنسون؟». تصلبت وأردفت: «ولكنك...».

- «لا أرتعش؟ ولا أرجف؟ في الحقيقة كل يوم وحاله. خلتني سأرتعش طوال الصباح عند لقياك، ولكن صدقاً، أشعر أني في أحسن حال».

- «لم أعلم أنـ...».

- «منذ زمان لم أشعر أني في حال أفضل مما أنا عليه اليوم، والفضل لك في ذلك».

- «كف عن هذا أرجوك، لسنا في السابعة عشرة».

- «سنظل دائماً في السابعة عشرة».

- «طيب يا سيد».

الآن وقد زالت الحواجز بينهما بعض الشيء، تيسر لهما

لانزلاق إلى الدعابة والمزاح، بيد أنها لم تستطع النزول بعيداً في هذا المنحدر الزلق. «قل لي إذاً، كم حفيدٍ لك؟».

- «ستة!».

- «ما شاء لله! أطال الله عمرهم جميعاً وحفظهم لآبائهم».

حمداً لله على كلام الفرس القديم وعلى العبارات التقليدية التي تنقذ المرء إن لم يعلم ما يقول.

- «لم أكف يوماً عن التفكير فيك. ما أريد قوله يا رويا جون هو أنني لم أتوقف عن التفكير فيك منذ ذلك اليوم في الميدان».

خلت سبيل يده ثم ربتت على ذراعه. تلك الذراع التي جعلتها في الماضي تشعر بالأمان التام. كان كم سترته صوفياً ومهترئاً. «لا بأس يا بهمان، لا بأس». هذا ما استطاعت إليه. مع والتر، لم تقلق قط بشأن مشاكل فقدان الذاكرة، ولا مع زاري. ويلاه! لكان ذلك كابوساً. كانت بعض صديقاتها يشتكين أحياناً من حالات النسيان، ولكنها ألفت حالة بهمان هذه مختلفة عنهن. كانت مترددة لا تدري إن كان يفترض بها أن تمشي مع روايته للأمور أم لا، فقد بلغها أن مرضى الخرف يغضبون إن لم يفهمهم مَن حولهم ومن ثم يجنحون إلى العنف.

- «ذلك اليوم في الميدان يا رويا؟ لبثت واقفاً هناك أنتظرك لساعات. كانت رغبتي في لقائك رغبة محمومة. كانت معي كل الوثائق اللازمة حتى يتسنى لنا الذهاب إلى مكتب المأذون الشرعي ونعقد زيجتنا. لبثت أنتظر هناك إذ اجتاح البلطجية المشهد وساروا إلى بيت رئيس الوزراء. أنصار مصدق الذين كانوا في الجمهور طلبوا مساعدتي، لكنني لم أنضمّ إلى المواجهة، لم أبرح موضعي. لم يكن في ذهني إلا أنت: ماذا كنتِ ستفعلين إن جئت ولم تجديني

هناك؟ لم أشأ أن أتركك هناك، لذا انتظرتك. انتظرتك لأنني لم أكن أريد شيئاً غير لقياك، لأشرح لك كل شيء، ولأضمك من جديد. ولكنك لم تأتي قط».

حاولت رويا أن تتذكر ما تعرفه عن داء الباركنسون، هل كان هذا واحداً من أعراضه؟ ثم همست له من جديد: «لقد سامحتك».

- «سامحتني؟ ولكن علامَ؟ كنت سأعطيك كل شيء لو أنك سمحت لي بذلك؛ لو أنك جئت».

وبرطم كأنه طفل صغير.

- «لقد تزوجت شهلا. ولكن لا بأس. لم نكن... من نصيب بعضنا... هذا ما في الأمر».

- «تزوجتها لأني خسرتك».

- «بل خسرتني لأنك تزوجتها!».

ارتعشت يد بهمان وقال: «لقد كانت الإطاحة بمصدق ومقتل السيد فخري وكثير من الناس خسارة فظيعة؛ ولكن لو وضعنا تلك الخسارة في كفة وخسارتي لكِ في كفة، لرجحت الثانية الرجحان الكبير. قط لم أعش في حياتي ألماً كذلك الذي لقيته من خسارتك. ستون سنة؛ ستون سنة بطولها ما برحتِ فكري. ومع هذا لم أكن لأقف في سبيلك. وعندما كتبت إلي أنك في النهاية لم تقدري على الزواج بي لما سيترتب عن ذلك من أوزار وتضحيات تتحمليها بسبب مزاج والدتي ونوبات غضبها، حزنت حزناً عظيماً. وجرحت جرحاً غائراً. ذلك أني لم يكن بيدي شيء إزاء حالتها النفسية، وإزاءها. لم يكن لي أن أغيّر من ذلك في شيء. كان أقارب والدي قد قطعوا رحمنا قبل ذلك للسبب ذاته. كنت معتاداً على الأمر، لذا لم يكن لي إلا أن أتركك لشأنك. لم أشأ أن أحملك وزر، ما كان أيامئذ،

خزي أسرتنا. لم ترغبي في رؤية أسرتي واختلالاتها بعد ذلك، فلم أشأ أن أقف حجر عثرة أمامك. أما شهلا، فلم يكن لها الموقف نفسه تجاه حال والدتي. كان لها موقف مختلف، وأعتقد أن شيئاً ما بداخلي شعر بالامتنان نحوها بسبب هذا الأمر».

يا للجنون. لقد فقد عقله كلياً. كلمته رويا برفق ولكن بنبرة صارمة: «بهمان، أنا لا أعرف عما تتحدث، أعلم أنك قد لا تتذكر كل شيء، ولكن أنا لم أقل شيئاً من هذا، وما كنت لأقول مثل هذا الكلام أو لأشعر بمدلولاته. أتركك بسبب والدتك؟ أتخلى عنك بسبب حالتها النفسية المضطربة؟ لقد أردتُ أن أشد أزرك وأكون معك في كل خطوة، وأن أكون عوناً لك ولأبيك، ولأمك أيضاً! بل أنت الذي قلت لي إنك تريد أن تمضي في حياتك من دوني. أتذكر هذا؟».

تسمر بهمان بلا حراك ثم تفرس في وجهها بهدوء لبضع ثوانٍ وفجأة شهق كمن يختنق.

صار عليها أن تعيد هذا الحوار إلى سكته القويمة بدل التواءاته السخيفة قبل أن يمد في ذلك ويلج، فقالت في نبرة كانت أهدأ ما وسعها: «كنت في الميدان. حسناً؟ وأنا من كنتُ قلقة بشأنك. فأنت الذي لم تأت. لقد أرادت لك أمك شهلا؛ لقد كان ذلك زمناً مختلفاً. صدقاً أقول يا بهمان، لا بأس. فكر الآن بأولادك وبأحفا...».

– «كلا». وارتجف رأسه ومعه عنقه وكتفاه. «يا إلهي».

– «اسمع، لا تشغل بالك، هلم ندفن الماضي رجاء».

تلوى وجهه بالألم إذ قال: «أنت لا تفهمين يا رويا جون...». ثم اجتاحت جسده موجة سعال وصرير. كانت شديدة أنْ خشيت

رويا لو تصيبه أزمة قلبية هناك، فلما تركه ذلك السعال نظر إليها سائلاً: «أين كنتِ؟».

- «هنا في الولايات المتحدة. تعلم أنني جئت للدراسة في كاليفورنيا. تذكر؟ قدم لي بابا ترشيحي لنيل أحد المقاعد الجامعية المتاحة للفتيات الإيرانيات في أمريكا، ألا تذكر؟».

- «بلى، لقد أخبرني جهانگير. أعرف كل هذا يا رويا جون، إنما سألتك أين كنت في ذلك اليوم؟».

تنهدت. لقد كان حقاً أمراً صعباً، يا للرجل المسكين.

- «كنت في الميدان».

- «أي ميدان؟».

لم يعد يرتعش الآن، غدا منتصباً كالجبل وقد غدا تنفسه أقل إجهاداً بعد نوبة السعال التي حضرته، وقد بدا وكأنه يحبس أنفاسه بالفعل.

- «حيث قلتَ لي أن ألقاك: ميدان سباه».

- «إنما قلت ميدان بهارستان».

لا حول ولا قوة إلا بالله. إذاً فهو يتذكر بعض الأمور ولكن ليس التفاصيل. كانت له روايته الشخصية للأحداث، وللحقيقة. لقد كان أمراً محزناً. أرادت أن تعود إلى والتر، إلى أمان لفافات الكركند والذكريات غير المشوشة، أرادت أن تعود إلى ذاكرة والتر الثابتة. ثم غمغمت: «لم تعد تذكر، لا بأس».

- «الرسائل...».

قاطعته طرقات الكعب العالي. إنها كلير. جاءت حاملة صينية بلاستيكية على شكل حبة الفاصولياء عليها قوارير وقالت: «سيد

باتمان، لقد حان موعد تناول الدواء!». ولما اقتربت منهما احمر وجهها خجلاً إذ كان بهمان على شفير البكاء. «آسفة على المقاطعة، يمكنني العودة بعد. . .».

وقفت رويا قائلة: «ينبغي لي الذهاب على كل حال. ينبغي لي الذهاب حقاً، فزوجي في انتظاري».

- «ابقي، رجاء ابقي»، قال بهمان.

- «سأعود حالاً»، ردّت كلير.

- «لا، رويا، أنتِ، أرجوك لا تذهبي، لنا أمور كثيرة نناقشها».

- «زوجي في انتظاري».

- «لقد بدأت تتضح لي الأمور»، همس.

- «هل تتناولين الغداء معنا؟»، سألتها كلير بلطف.

وقفت رويا منتعلة حذاءها الرمادي ذي النعل السميك، وقد تمزقت نياط قلبها لدى رؤية بهمان على تلك الحال: فقد صوابه أو يكاد، وتبعثرت ذاكرته، وأصابه داء الباركنسون والخرف. أرادت الفتى الذي كانت تعرفه، الفتى الذي سيغيّر العالم. فهي كانت لا تزال تحبه! وفجأة شعرت بإرهاق شديد. قالت في النهاية:

- «الثلج يتساقط بغزارة، وأمامنا طريق طويل. لا يمكنني البقاء، لا نريد أن يزداد خطر الطقس».

كانا بدلا لسانهما إلى الإنجليزية في حضرة كلير. هذا ما يُفترَض فعله مع الأمريكيين. وجت غرابة في سماعه يتكلم الإنجليزية. أرادت أن تعانقه لتودعه، وأرادت أن تعانقه على النسيان، وتعانقه على تذكر بعض الأمور. أرادت أن تعانقه من جديد وحسب.

- «من خدعنا يا رويا؟ أحدهم خدعنا. أنا قلت ميدان بهارستان وليس سباه. من يكون الشخص الذي غيّر في رسائلنا؟».

نظرت كلير إلى رويا ومن ثم إلى بهمان والصينية البلاستيكية في يدها تكاد تسقط منها.

- «ماذا عن أختك؟ فهي لم تحبني قط. أو ربما يكون جهانگير؟ من يا ترى فعل بنا هذا؟ شهلا؟ ما كانت قط لتلطخ يدها في أمر كهذا. مستحيل. أتكون هي؟ أيكون السيد فخري؟ بالطبع ليس أمي، مستحيل أن تكون وراء ذلك».

اشتدت سرعة نبضاتها إذ غمرتها سيول الماضي، وسبحت أمام عينيها صور كل أولئك الذين برزوا في حياتهما خلال ذلك الصيف؛ اشتدت سرعة نبضاتها وهي تصغي للرجل الذي أحبته والذي كان فقد الكثير، بما في ذلك عقله.

- «وداعاً يا بهمان».

- «عودي. عودي عندما يتيسر لك ذلك فثمة أمور كثيرة لا تعرفينها».

الفصل الثامن والعشرون

2012

غرفة التخزين الخلفية

وصلت رسالة بهمان عبر البريد، ووجهتها منزل رويا. لم يجد صعوبة إذاً في العثور على عنوان السيد والتر آرتشر والسيدة رويا آرتشر، ولا شك أن الأمر لم يتطلب منه إلا بحثاً بسيطاً على الإنترنت. فتحت رويا الظرف وسط شعور غريب أنها في موقف مرّت به من قبل (ديجا فو)، فقد اجتاحها ذلك الشعور القديم والمألوف بالانتشاء وهي جالسة في المطبخ - في عمر السابعة والسبعين! - تنتظر عودة والتر من محل البقالة.

عزيزتي رويا جون،

بعد انتهاء حفل خطبتنا، كانت غايتي أن أعوضك عن كل شيء. لقد حزنت حزناً كبيراً لمحاولة أمي عرقلة زواجنا. كل ما أردته هو أن تكون لي أم عادية؛ امرأة طيبة لا تهيمن على حياتي باستراتيجياتها وحساباتها وخططها التي تُعدّ ولا تحصى من أجل صنع الحياة التي أرادتني أن أحياها. كانت تريدني أن أتسلق درجات عالم البرجوازية

الزائف الذي كانت تشتهيه. كانت نوبات غضبها تفجعني وأبي معي. كانت تلك النوبات تجتاحنا كقوة من قوى الطبيعة، كسيل العرم. ثم بعد انقشاع السلام في بيتنا، على ندرته، نقعد مرهقين واهنين. كانت أمي مريضة وتحتاج المساعدة لكننا لم ندر إلى ذلك سبيلاً.

لقد ظلت بعد حفل خطبتنا بأيام ساخطة وجامحة، فنصحها أبي أن تجلس لممارسة فن الخط الذي كان قد علمها إياه على أمل أن يساعد في تهدئتها فيكون لها متنفساً وتسلية تمضي بها الوقت، وطريقة لتركيز طاقتها المضطربة على شيء إيجابي. ومن المدهش أنها أُغْرِمت بتلك الهواية ولو أنها لم تستطع أن تجاري مَن تعلم ذلك الفن منذ سن صغيرة جداً.

كان الخط مهارة يجيدها أنجب تلاميذ ذلك الجيل؛ أولئك الذين يدرسون في مدارس مرموقة ويتلقون الدروس من أنامل أساتذة محترفين يعلّمونهم كيف يتحكمون في أيديهم، ويخططون الانحناءات، ويمسكون القلم.

ولقد علمت في وقت لاحق الدمار الذي ألحقته بنا تلك المهارة والصدع الذي جعلته في حياتنا. فعندما جئتِ إلى دار دوكستون قبل بضعة أيام، أرغمتُ نفسي على الإقرار بما ظللتُ له منكراً طوال الدهر. لقد غيرتْ أمي رسائلنا. أو الأصوب أنها عدلت في محتواها حتى تجعل كل واحد منا يذهب إلى ميدان مختلف. ذلك أنها أكثر من كان يريد هذا يا رويا جون. هي من كانت تشعر أن حياتها ستنهار إن لم يتزوج ابنها الفتاة التي اختارتها له. ولعلك

تتساءلين كيف لأمي أن تقع على تلك الرسائل. إن الجواب على هذا السؤال يا رويا يقتضي مني إحاطتك بما لا تعلمين. وها أنا اليوم، إذ أجلس في مركز الرعاية هذا وأنا في أرذل العمر، مخبرك بما حدث خلال ذلك الصيف.

في يوم الجمعة الذي حلّ بعد أسبوعين على خطبتنا، لم تستطع أمي الجلوس. كانت تقوم وتذرع الغرفة غدوة وروحة وتشكو من لظى الحر ومن الحرارة التي لا تستطيع معها النوم ليلاً ومن الأصوات التي تملأ رأسها صخباً. طلبت شرائح الخيار الباردة لتضعها على عينيها فانطلقت إلى الخيار وقشرته ووضعت الشرائح على جفنيها ثم طفقت أروح عليها بمروحة الخيزران كما تحب. كنت أغلي بداخلي لكني كنت أدللها طمعاً في أن تهدأ وتسترخي وتكبح جماح شياطينها.

عبثاً حاولت. لم ينفع معها شيء. رمت بشرائح الخيار على الأرض، وأرغت وأزبدت. قالت لي إنني لا أعرف مدى الألم الذي ألحقته بها، وإنها لم ترد شيئاً غير أن ينعم ابنها بحياة ناجحة ومليئة بأناس صائبين وأن يعيش في أفضل الطبقات الاجتماعية. وذلك يعني أن أتزوج من شهلا. كانت تحدثني كيف اختارت لي شهلا وكلمت والديها وخططت لكل شيء. كيف ترفض الذي هو خير لك؟ أتدري ما أنت بصانع؟ هكذا تسأل ثم تردف أنها لم تكن سوى ابنة بائع شمام وما أنجاها من حياة البؤس إلا زواجها من مهندس محترم وطيب والأهم أنه من طبقة

عليا. ثم تسترسل سائلة: هل تعرف معنى أن تحيا حياة جامدة، وألا تكون لك مكانة، وأن تحفر الصخر من أجل تحسين ظروف حياتك لكنك لا تجد إلى ذلك منفذاً فقط بسبب نسبك الضعيف وبسبب والدك الأمي وبسبب الطبقة الاجتماعية التي ولدت فيها؟

أغضبني كلامها. لقد كسرت هي رسن الطبقة التي ولدت فيها، ثم، بدل أن تدعني أتزوج من أحب قلبي، ترغمني على المضي وكأنني عداء يجب عليه تسلم مشعلها. فلا يسمح لي بالتوقف عن العدو ولا الالتفات خلفي كما لو أن زواجي ممن أحب قلبي سيقوض ذلك «التقدم» الذي حققته في مشوار ثورتها على القدر.

التقطتُ شرائح الخيار من الأرض وقد صارت ساخنة من حرارة جفنيها. كانت رطبة ومرتخية فاشمأزت منها نفسي لما لمستها. ناظرتها في علاقتنا وبسطت لها محاسنك، من ذكاء متقد وعلامات ممتازة وتفانٍ في الدراسة، حتى لقد دافعت عن وظيفة والدك الحكومية. ولكم تؤلمني اليوم، وأنا في نهاية عمري أكتب لك هذه الرسالة، فكرة أنني فهت بتلك الكلمات. كما لو كان من واجبي إقناعها، كما لو أن حبنا لم يكن كافياً. صدقاً إنني مندهش من ضعفي آنئذ.

جاء أبي بمحبرة جديدة وقرّب منها قلم التخطيط وتوسّل إليها أن تخط بعض الأبيات المفضلة لديها. كان يحاول جعلها تركز على أي شيء لتنصرف عن جماحتها. لكنها قالت: «أعرف أنني سأفقد بهمان إن تزوج تلك

الفتاة. ليست رويا كشهلا، فهي لن تدعني أبقى قريبة منه. ألا يكفيني خسارة الأولاد الآخرين؟».

انكمش والدي عند تلك الكلمات ودفن رأسه بين كفيه وتسمر في موضعه.

تركتنا وذهبت تتميز غيظاً ثم تناهى إلى سمعنا صوت أدراج المطبخ تفتح وتغلق ثم سمعناها تصفق باب غرفة النوم كما تفعل دائماً.

جلسنا أنا وأبي في صمتنا المعتاد ننتظر أن تهمد نار غضبها وتنجلي عاصفتها المدمرة. أغمضت عيني ورددت من شعر الرومي في خاطري لأشتت أفكاري عن الأمر. بعد ذلك شممت رائحة شيء حلو ومتخمر ففتحت عيني. كانت رائحة الهواء مثل الورد الفاسد. لقد عادت أمي إلى غرفة الجلوس وقد لبسَتْ ثياب الخروج وتزينت. رشت الكثير من العطر وغطت وجنتيها بطبقات سميكة من الروج وقد حملت حقيبتها اليدوية متأهبة ثم صفقت باب المنزل قبل أن يتمكن والدي من قول أي شيء وقبل أن أستطيع توسلها ألا تخرج.

في بعض الأحيان، كان خروجها من المنزل يزيل عنا طبقة خانقة من السخم. أما هذه المرة، فلم تبرحنا الغمة بعد خروجها. لم أستطع الحراك. لم أعلم كم لبثت قاعداً أنتظر أن تستعيد قدماي طاقتهما كي أنهض وأتبعها. لم يفه أبي ببنت شفة وبدا متجاوَزاً. كان يجب علينا أن نتبعها بالتأكيد فلا أحد يدري أي متاعب قد تزج بنفسها فيها عندما تكون في هذا المزاج. لقد كنت قلقاً بشأن صحتها النفسية

والجسدية، وكنت قلقاً حتى بشأن نظرات المارة إليها وخفت أن تجعل من نفسها موضوع سخرية.

قلت لأبي: «سأخرج في أثرها، وأعيدها إلى البيت».

خرجت من البيت أمشي على غير هدى وجلدت نفسي لأني تأخرت في اللحاق بها في الوقت الذي كان ينبغي لي أن أهب من فوري وأتبعها. لم أعلم أية وجهة ولت أو أي شارع ذهبت فيه. ولأنه كان يوم جمعة، فقد كانت الشوارع فارغة والناس إما في بيوتهم يرتاحون وإما في الجوامع يصلون ولا يوجد إلا بعض المارة، ثم عماذا قد أسألهم: هل رأيتم امرأة تمشي بوجه ملطخ بالروج وتستشيط غضباً؟

كل ما أردته ساعتئذ هو أن أكون معك. أردت أن أراك وأمسك يدك وأشعر بك قربي. أحسست بإغراء كي أسير إلى منزلك، ولكن كان ينبغي لي العثور على أمي.

ذات مرة كانت عند الخضرواتي فقضمت رؤوس عدد من حبات الباذنجان لأنها قالت إن الرجل عاملها كما يعامل الفلاحين الدهاتيين. «تعاملني كحيوان، فسأتصرف كحيوان، ما قولك في هذا؟» فالتهمني الحرج التهاماً. وذات مرة، قابلت بائع الشمندر وابنته في زقاق وهو يدفع عربته فقالت له «إياك أن تغفل عن ابنتك فمن السهل أن تصبح عاهرة أو زانية وتحبل قبل أوانها».

عندما كان يستولي الجنون على أمي، كانت تنفث ضراوتها كما تنفث الحية سمها على نحوٍ غير متوقع وجامح.

لم أجدها. كانت المحلات مغلقة بمناسبة يوم الجمعة

والشوارع ليس فيها غير عدد قليل من المارة. وكنت أحياناً أرى امرأة تسير أمامي فأحسبها هي ولكنها لم تكن هي بالطبع. بحثت في كل مكان. كنت أدور في دوائر ولا أحس إلا بالمزيد من التيه.

تعبت وتشنجت أعصابي، فقصدت المكان الوحيد الذي له أن يهدئ من روعي. كنت أعلم أن السيد فخري أحياناً يستغل يوم الجمعة ليكمل ما بقي له من جرد ولينظم أشياءه في غرفة التخزين الخلفية داخل مكتبته، ففي أيام الثانوية كان يصادف أن أساعده في فتح كراتين الكتب يوم الجمعة وأنا فخور بكوني مساعده من نوع ما.

أراحني صوت الجرس الصافي عندما فتحتُ باب المكتبة. كان الباب غير مقفل فعلمت أن السيد فخري موجود في الداخل، مشغول بعمله. وتذكرت الأسلوب الذي خاطَبَتْه به والدتي يوم خطبتنا. كانت غليظة وجريئة معه، آخذة في لومه على كونه حجر الرحى في الجمع بيننا. أظن أنني كنت أريد أن أعتذر له نيابة عنها، بالقدر الذي أردت أن أنعم بصحبة السيد فخري الهادئة والمسكنة.

لما ولجت المحل، سمعت أصواتاً مكتومة تعلو نبرتها كمن في جدال. نظرت من حولي فلم أر في المحل أحداً. كان ثمة رائحة تعكِّر الرائحة المألوفة للكتب والنشرات المغبرة. رائحة الورد الذابل. رائحة عطر أمي.

يممت إلى الباب المفضي إلى غرفة التخزين الخلفية فارتفعت نبرة الأصوات، وفجأة بدأت أشعر أن الأرض غير مستوية، وأخذت الساعة المعلقة في المحل تحوزق كأنها

كانت معطلة. كرهت رائحة ذلك العطر، وودت أن يكون تقديري خاطئاً، ولكن آنئذ كنت قد ميزت صوت أمي من وراء الباب، فسمعتها تقول:

- «قل لي إنك تحبني».

- «لا تفعلي هذا يا بدري».

كان صوت السيد فخري ولم أسمعه قط يتكلم في وهن كالذي سمعته يومئذ، فأدركت في تلك اللحظة كيف كان صوته في صباه. لماذا يخاطب السيد فخري والدتي باسمها الشخصي؟ ثم ما الذي تفعله هي هاهنا أصلاً؟

- «تذكر سيف أبي الذي كان يشرح به الشمام؟ لقد كنت خبيرة في استخدامه، وأستطيع استخدام هذه الآن وأنهي كل الألم الذي سبّبته لي. لقد كنت دائماً وستظل أبداً الجبان الضعيف عديم النفع والمنفعة قاتل طفله».

- «بدري، أرجوكِ»، توسّل السيد فخري.

عند ذلك فتحت الباب فرأيت أمي تقف على سلم متنقل صغير ويداها تتدليان على جانبيها، وفي اليمنى منهما سكين جزارة كبيرة. تجمد الدم في عروقي، فلم أرد التصديق أنها كانت تمسك السكين بالفعل. من أين لها بها؟ أمن مطبخنا؟ أكانت تلك التي كان أبي يقطع بها اللحم، تلك التي كان يضعها في درج المطبخ؟ في انعكاس السكين ذي الشكل المنجلي رأيت نظارات السيد فخري.

وبحركة سريعة، رفعت أمي السكين ووخزت عنقها.

لم أدر كيف قطعت عرض الغرفة فجرفت في طريقي ما لا شك أنه كان أكواماً من الكتب وكراتين من المجلات

والنشرات، فلما وصلت إليها قفزتُ وأخذت منها السكين وأحكمت عليها قبضتي حتى كادت تنفجر.

اصفر وجه أمي وقالت: «بهمان؟».

امتلأ فمي بطعم معدني صفيحي وظننتني سأتقيأ عندها. كل ما استطعت فعله كان لف ذراعَي حول ركبتَي أمي وهي لم تزل واقفة على السلم، وأنا لم أزل أمسك بالسكين.

داعبَتْ شعري بلطف، وعندما رفعتُ بصري إليها أبصرت قطرات دم تتدفق من عنقها، فتركتُ السكين من يدي فسقطت على الأرض محدثة قعقعة صاخبة.

سحبتها من على السلم، وقد كانت في حال من الذهول، ووجهها المخضب بالدموع محمراً وبقعاً. وضعتْ إحدى يديها على جرح عنقها ثم بسطت ذراعها أمام عينيها تنظر إلى الدم على أصابعها قائلة: «انظر إلى ما دفعتني إليه، كل هذا بسببك يا علي».

أخذ السيد فخري يتأرجح مهمهماً بدعاء ما، ثم ركل سكين أمي بعيداً عن طريقه بحذائه الملمع بعناية، واقترب منها ثم أخرج من جيبه منديلاً مربعاً وانحنى إليها وهمّ بوضعه على عنقها، فتراجعت منه وهسهست: «لا تفعل».

كبر حجم نقط الدم المتدفقة من الجرح واتخذت ما بدا خطاً متناسقاً بغرابة.

«في البداية أنت، والآن أنا، صحيح؟»، قالت ذلك وابتسمت لي ابتسامة حزينة. لم ترد النظر إلى السيد فخري وأكملت كلامها إلي: «أنت جرحت عنقك في مظاهرة،

وأنا أتعامل مع كذب وخيانة هذا الخائن. ولكن لحسن الحظ أن كلانا يعرف طبيباً ماهراً. أتعتقد أن والد جهانگير سيعطينا خصماً عائلياً؟».

شعرت بالغثيان. كانت الكتب التي أوقعتها لما أسرعت إليها متناثرة على الأرض والسكين قرب كومة من المجلات السياسية. كانت محاولتها لافتعال المزاح لمصلحتي، فرأيت في عينيها خوفها من خوفي. لماذا كانت تتصرف على هذا النحو بحق السماء؟ لماذا كانت تعذبنا، تخيفنا، تهددنا؟

بعدها أفسحَت المجال أمام دموعها وغرقت في حالة عاطفية عميقة إلى درجة أن الأصوات التي أصدرتها بدتت رقيقة تقريباً. كنت قد سمعتها تبكي بحرقة وبشدة مرات عديدة، ولكني لم أسمعها قط تبكي بكاء ذلك اليوم. «لقد فات الأوان، فات الأوان تماماً، فات الأوان على طفلي».

حسبتها تقصدني أنا. حسبتها تقصد زواجي المنتظر والذي لم توافق عليه. حسبتها تقصد، بأسلوبها الملتوي، أن الأوان قد فات علي لأحظى بالحياة التي خططتها لي.

«جعلتني أقتل طفلي، بيدي». والتفتت بالكلام إلى السيد فخري، «لأنك جبان».

علقت أنفاسي في حلقي وتسمرت في مكاني.

قال لها السيد فخري: «أرجوك يا بدري، لا تفعلي هذا الآن».

- «بعدما قتلته، تعطل جسدي (نظرت إلى بطنها كمن يتكلم مع قوة ما كانت استنجدت بها من قبل). أصبح

جسدي معطلاً جداً أنْ قتل كل الذين تلوا من بعده، كلهم». ثم التفتت إلي وقالت: «هل تعلم كم طفلاً دفنت؟ كان ينبغي لي إخبارك بهذا من قبل».

همس السيد فخري: «بدري كفي عن هذا».

- «يخرجون من بطنك فتظن أنهم كاملون، تعتقد أنك ستستطيع أن تحبهم وتربيهم وتدللهم. ولكن بعد ذلك يخرجون ليس كما ينبغي، فبعد مدة قصيرة من خروجهم، أو فور خروجهم. . . يكونون صامتين، ودافئين، وأموات».

لم أكد أصدق ما سمعت. لم أكن أدري من قبل أن أمي فقدت أطفالها، فلا هي ولا أبي أخبراني بذلك، كنت في السابعة عشرة من عمري وأسمع ذلك للمرة الأولى.

- «حسبت أنك تستطيع أن تفعل بي ما تريد يا علي. خلف الجامع، في تلك الساحة، أفلتت بفعلتك. كنتَ تملك المال، والحظوة، بينما أنا لم أكن أملك شيئاً. (دست رأسها بين يديها وبكت) كنت لا أزال طفلة!».

قال برقة: «أنا آسف جداً. أنا آسف جداً جداً».

تحركت حبات الغبار على طول خيط الشمس الذي تسلل من النافذة الصغيرة الوحيدة في تلك الغرفة. لم تكن الرائحة التي ملأت الجو حينئذ رائحة الكتب أو عطر أمي أو رائحة العرق الذي كان يتصبب مني. لقد كان شيئاً مختلفاً، شيء لم أستطع تحديده، وسيظل يلف ذلك اليوم والأيام التي تلته أبداً. لقد كانت، حسب ظني، رائحة الحزن.

أقبل إليها السيد فخري، فارتمت في حضنه وبكت بين

ذراعيه. تكلمت عن أطفال ماتوا، فعلمت من روايتها المشتتة والضبابية أنني لست أول من ولدت؛ لست الثاني ولا الثالث ولا الرابع. لقد كنت خامس ولد. الوحيد الذي عاش، والذي علمتُ متأخراً أنه الذي صبت فيه أمي الآمال والأحلام التي كانت لها عن الأخرين. وبقشعريرة غزت بدني، أدركت في غرفة التخزين تلك، أن ولد أمي الأول - ذلك الذي أسقطته حتى قبل أن يولد، وربما فعلت ذلك بيديها - كان ابن صاحب مكتبتنا اللطيف والهادئ، ابن السيد فخري.

وقفتُ وسط الكتب المتساقطة، وسط كلمات الشعراء الذين قضوا ساعات طويلة سعيدة يكتبون، شعراء شحذوا كلماتهم لسنوات. انحنى السيد فخري على أمي كحيوان مجروح وأخذ يمزق في نفسه.

أردت أن أرحل بلا رجعة عن ذلك المحل، أردت أن أترك المدينة فأهرب وأختفي بأرض ما.

هرعت إلى الخارج وعلى الرصيف انحنيت فتقيأت وغطيت دموعي ما استطعت لئلّا يراني المارة.

عندما رأى أبي جرحها أسرع بنا إلى بيت جهانگير، ذلك أننا لم نجرؤ على الذهاب إلى مستشفى في طهران لما كان يلف القضية برمتها من عار حينئذ يا رويا جون، عار في كل شيء؛ في مرضها، وفي محاولة قتل نفسها، وفي محض فكرة الانتحار حتى.

كان جهانگير في البيت لما أخذنا أمي إلى والده. عانقني وطمأنني بأن سرَّنا محفوظ معه كما أن والده وعدنا ألا يحكي حرفاً عما حاولت أمي الإقدام عليه.

حمداً لله لم يتسن لها قطع جلدها بالعمق الكافي لإلحاق الضرر. أخذت منها السكين في اللحظة المناسبة. وفي النهاية، وفت ضمادة شاش ومرهم إكثيول بالغرض، وهز والد جهانگير رأسه قائلاً: «كان لثانية واحدة هنا أو هناك، أو زلة صغيرة أن...».

كان من شأنها أن تضع وشاحاً حول عنقها وتخرج به. وكان من شأنها أيضاً أن تلزم البيت إلى أن يلتئم الجرح. ولكننا أصبنا كلنا - أمي، أبي، وأنا - بالذهول. الذهول التام. وليس ذلك مما كادت تفعله وحسب، ليس من علمنا أن الأمر لم يكن ليتطلب إلا «ثانية واحدة هنا أو هناك» لنكون أمام نتيجة مختلفة، ولكنني كنت لا أزال أحاول استيعاب ما حدث بين أمي والسيد فخري، وتساءلت إن كان أبي، بأسلوبه الهادئ، قد علم بالأمر.

جهانگير هو من كان أشار علينا بالذهاب إلى فيلاتنا في الشمال، وأن نلبث هناك لأيام قلائل، ريثما نستعيد هدانا، ريثما تشفى أمي، وريثما تعود مياهنا إلى بعض مجاريها. وعدني أنه سينقل لك كل المستجدات، ولكن أظن أنه تكاسل في ذلك.

بيد أنني أحببتك، لم أرد فتاة غيرك. ولو جمع الله بيننا لفعلت أي شيء من أجلك. وكذلك وعدني جهانگير أنه سيحرص على تمام التواصل بيننا. لقد كان له الفضل

في توصيل رسائلنا. لقد كان قناتي، ومؤتمن سري، ووسيطي. لقد كان طيب القلب يا رويا جون، وكان يسعى إلى حمايتنا. وما كان عندي مثقال ذرة شك أنه كان يريد سعادتي فوق كل شيء. فمن الذي غيّر رسائلنا في الأخير حتى انتهى بنا المطاف كلٌّ في ميدان مختلف؟ أريد القول إن أمي هي مَن فعلت، فعليم الله ما كرهَتْ شيئاً كما كرهَتْ زواجنا. ولكن يا رويا جون، أمي كانت معي في فيلاتنا في الشمال كل ذلك الوقت. ومع أنها كانت تعاني، لا أحسب لها يد في ذلك. لقد كانت فعلة شخص وثق فيه كلانا، ولكنه شخص كان يشعر بدين يجثم عليه فكان عليه قضاؤه.

لقد أقنعت السيد فخري بفعلها. بالطبع. ما أدركت ذلك إلا الآن؛ بعد عقود من محاولة حل هذا اللغز. لقد كان مديناً لها. كان مديناً لها لأنه هجرها وتركها مع جنينها الذي أسقطته بيديها، لكون الإجهاض كان مجرماً آنئذ في إيران.

كنت أريد أن أخبرك أين كنت في اليوم الموالي. ظننتني سأجد هاتفاً هناك فأتصل بك وأعلمك. أردت أن أجعل جهانگير يخبرك.

لكن في الصباح الموالي، كنت في الفيلا، فدخلت غرفة أمي. لم أكن بحاجة للكلام حتى. لم أكن بحاجة لإخبارها أني أريد الاتصال بك. رمقتني بنظرة منها وقالت: «إذا اتصلت بتلك الفتاة، وأخبرتها بمكاننا، وأسررت لها بشيء، أتعلم ما سيحدث عندها يا بهمان؟»

وارتسمت بسمة واسعة على وجهها الشاحب. «سأفعلها من جديد. ولكن هذه المرة سأحرص على أن ينجح الأمر، صدقني».

تنهدت ورفعت يدها إلى عنقها مردفة: «اتركها يا بهمان. من أجلي. اتصل بها، وسأفعلها من جديد».

أذكر أن الألواح الخشبية في الغرفة الرئيسية من الفيلا كان فيها صدع، ومن خلال ذلك الصدع تهب الريح فتلسع بسياطها ليلاً. ولا تستثنى من ذلك ليالي الصيف. تعلمين كيف تكون الليالي هناك في الشمال. كان أبي قد حشا ذلك الصدع بخرقة قماش حتى يمنع ما يتسرب منها، ولكن ذلك لم يكن له تأثير كبير، فجلست اللية تلو الأخرى تاركاً الريح تلسع ظهري، وكنت أحرص على الجلوس قبالة الصدع لتضرب الريح عمودي الفقري.

طبختُ. وأخيراً بدأت أمي تشاركنا المأكل. التهمها التخريف، فصارت تتحدث باستمرار عن زواجي من شهلا. أراد أبي تغيير دفة الحديث فتكلم عن مشاكل رئيس الوزراء مصدق. أما أنا فكنت مشتاقاً إليك، وكانت فيّ رغبة محمومة في رؤيتك، ولكنني خجلت كثيراً أن أقول لك إننا تركنا المدينة لأن أمي حاولت قتل نفسها.

تسلل الحزن إلى ذلك المكان ولم يكن له من مرد، مثله كمثل الريح الذي يتسرب من صدع الألواح الخشبية دون أن تفلح محاولة أبي في سده. ولكن رسائلك ساعدتني

على المضي قدماً. لم أشأ إخبارك بكل ما جرى، فقد صدني عن ذلك خجلي وارتباكي. وددت لو كانت أمي أماً طبيعية كما باقي الأمهات؛ أردتها أن ترعاني وتدعمني. أردتها أن تكون في عرسنا وأن تدعنا نحيا حياتنا. ما أردت شيئاً أكثر مما أردت هذا. ولكنها لم تكن كباقي الأمهات. كانت أماً فريدة. كانت تعاني من نوبات الغضب ومن الاكتئاب وكانت عنيفة وضارية ورفضت أن تدعني أعيش في سلام. كانت تريد السيطرة على حياتي. قالت لي إنها أحبتني حباً أنْ أرادت لي الأفضل. كما أخبرتني أنها عاشت فقراً مدقعاً وأنها ضحت بالكثير حتى تؤهلني لأقطع دابره.

أكان أبي محض سُلَّم تسلقته لبلوغ منزلة اجتماعية سامية؟ هل أحبته يوماً بحق؟

كنت أفرغ قلبي في تلك الرسائل التي أرسلتها إليك. أما زلت محتفظة بها يا رويا جون؟ هل احتفظت بها؟ أحسب أنك فرطت فيها.

ما كان علينا أنا وأبي أن نحاول التصدي للأمر برمته وحدنا. أُدرك ذلك الآن. ولكنني كنت في سن لا تؤهلني لمعرفة أفضل مما عرفت. بقيتُ قلقاً بشأنك. وبقيتُ أرفض شهلا، وكلما دفعتها عليّ أمي، قاومت ورفضت. ولم تكن مقاومتي ورفضي عنتاً وتعنتاً رغم أن هذا ما كانت أمي تعتقده. لم أرفض شهلا من باب التمرد. أنا لم أكن أرى إلا أنت تقفين في المكتبة وضفيرتاك منسدلتان على كتفيك

وحقيبتك المدرسية على ظهرك. لم أكن أسمع إلا صوتك. وجدتُ السلم في وجودك.

كنتُ عازماً على الزواج منك، غير آبه بالتهديدات وبالمرض وبالجحيم. لهذا كتبتُ تلك الرسالة الأخيرة. لم يكن لها أن توقفنا. لم يكن لها أن تنهي سعادتنا بتهديد الانتحار! ضقت ذرعاً فقررت الهرب. ذلك أننا كنا بمثابة رهينتين لها بسبب تلك التهديدات، ولكن لم أرد أن أترك لها تلك السلطة عليّ.

كانت تعلم أنني انتظرتك في الميدان، وتعلم أنني كنت قلقاً جداً عليك. ولما قرأتُ رسالتك الأخيرة، وأخبرتها في غضب وارتباك أنك ما عدت ترغبين في رؤيتي (لم أجد الكلمات لأخبرها أنك لم تستطيعي تحملها)، فضحكتْ وقالت: «جميل، لقد خبّرتك، خبّرتك أن تلك الفتاة ليست صالحة». ثم هددتني أن تنتحر جوعاً إن حاولت مصالحتك، إن حاولت استرجاعك.

كان من المفترض بي أن أكون «الفتى الذي سيغيّر العالم». ولكن للحياة أساليبها في تحطيم الأحلام والمخططات والمثاليات. وفي الأخير، بالكاد استطعت خدمة بلدي. كنت ناشطاً سياسياً أعمل في توزيع المنشورات السياسية لفائدة الجبهة الوطنية، هذا صحيح. في عام 1953 كنت نشطاً في السياسة. لكن خيبة أملي من السياسة كانت عظيمة غداة انقلاب 53 حتى إني بالكاد فرحت كما فرح الناس إذ شهدنا الإطاحة بالشاه عام 1979. كان فيّ قلق مقيت من تعاقب أحداث أمرّ. وفي

الأخير، لقد فعل جهانگير أكثر مما فعلتُ. لقد ذهب إلى جبهة القتال! وسار على درب أبيه فصار طبيباً. داوى الجنود الجرحى في الحرب بالأهواز، فقُتِل في هجوم انفجاري. أما بخصوص موضوعنا، فلا، خلال تلك الأسابيع التي غبتُ فيها، لم أكن في السجن ولم أكن مختبئاً لأسباب سياسية، إنما كنت أحاول أن أبقي أمي على قيد الحياة وأن أهتدي إلى حل لمعضلة تهديداتها وميلها إلى إعادة الكرة، ولمعضلة مخططَين لا يمكن التوفيق بينهما.

تذكرين كم كنت تخشين من عين الحسد؟ كنت أزدري الفكرة برمتها آنذاك وكنت أراها محض خرافة، ولكني أنظر اليوم إلى الحياة التي عشتها من دونك، فأقول لعلها عين الحسد، وما يدريك؟ ولعل ثمة شيء في وجس ثقافتنا من عين الحسد، فانظري إلى ما حدث مع والدتي.

لم أكف عن حبك قط، ولا حتى بعدما بلغتني رسالتك الأخيرة تطلبين مني فيها ألا ألقاك وألا أتصل بك بعد ذلك أبداً. وإني أكره التفكير في هذا الاحتمال، فهل كان ذلك حقاً ما كتبتِه؟ لأنني لستُ متأكداً الآن.

ثم يا عزيزتي رويا، إني لما لقيتك الأسبوع الماضي في الدار، لمحت في عينيك قلقاً بادياً أن أكون قد فقدتُ جادتي أو ذاكرتي. ولكن فلتعلمي يجزيك الله أنني قد أكون ناسياً لبعض الأمور، كمثل أي طعام أكلت من يومين أو أي دواء أتناول ومتى؛ وفي هذا لا أستغني عن مساعدة كلير.

أما إذا تعلق الأمر بتفاصيل ما جرى خلال ذلك الصيف، أو إذا تعلق بمعرفة قلبي، فإن ذاكرتي حادة كالسيف.

الحقيقة يا رويا جون أني لم أنعم قط بسعادة توازي سعادتي لما كنتُ معك. لقد عشت لحظات رائعة مع أولادي، ونعم، مع شهلا، ولكن سعادتي بذلك لم توازِ قط سعادتي معك. قضيت أعواماً لا ينبلج فيها صباحي إلا كنتِ أول ما فكرت فيه. كان كل شيء يذكرني بك. بطبيعة الحال، كنت أعلم أنك من نصيب رجل آخر وكذلك كنت أنا من نصيب امرأة أخرى، ولكنك يا رويا لطالما كنتِ قطعة مني، فبعض الأمور في حياتنا لا نستطيع إليها من شيء.

واليوم أجدني مضطراً للتوقف.

إني كلما تذكرت السماء الأرجوانية عشية خطبتنا واللحظات التي قضيناها معاً، علمت أن ثمة جمالاً في هذه الدنيا. ولكن بعد ما حل ببلادنا، وبحق، عندما أتأمل في هذا العالم المعاصر من حولي، لا أستطيع كف نفسي عن التفكير في وجود شناعة، ونزعة من الوحشية لا تبقي ولا تذر. حاولت أن أجنح لروح التفاؤل فيّ كما يجنح لها الأمريكيون. حاولت ألا أكون من هؤلاء المسنين المتأففين. وكلير تعاملني بالحسنى هنا. تناديني «السيد باتمان»، وهي لا تضجر قط من قصصي. وقد آمنتها على أسراري، حتى لقد قصصت عليها من حبنا أيام الشباب. إن لحظات الجمال والاتصال هذه تسعفني على المضي قدماً. تنفحني رؤية أولادي وأحفادي السعادة، أما الباقي - السياسة والاضطراب النفسي الذي كان يطوق أمي

ومنقلبات الدهر مرها وأمرها - إن هو إلا الجزء السيئ من الحياة أحياناً. وكلما فكّرت في هذا الأمر، انجرفت إلى قنوط ما له مثيل.

وفي الأخير، أقول لك إني أحببتك. أحببتك آنذاك، وأحبك الآن، وسأحبك إلى الأبد.

أنت حبي.

بهمان

الفصل التاسع والعشرون

2013

شراشف برائحة معجون الأسنان

انطلقت رويا إلى هاتفها وفتشت عن رقم هاتف دار الرعاية. السيدة أصلان والسيد فخري. جنين لم يُكتب له أن يرى النور. ثم بعد ذلك بطن السيدة أصلان ينقلب عليها ويقتل كل حمل لها. ما عدا واحد.

تذكرت رويا السيدة أصلان بوجنتيها الملطختين بالروج ذلك المساء في حفل الخطبة. هي الآن تعلم كيف يدمر فقدان المرء ولداً كل شيء في حياته، فكيف بأربعة؟ تذكرت قول زاري: **لقد كان زمناً مختلفاً يا أختي، ألا تذكرين؟ كانت النساء يفقدن أطفالهن طوال الوقت.**

لقد طال انتظارها، طال دهراً. والآن لا الثلج ولا سواه، انس الأمر. يجب عليها تكرار زيارتها إلى دار الرعاية ومقابلته من جديد.

- «أخشى أن الوقت يداهمكِ».

كذلك قالت كلير عبر الهاتف.

- «عفواً؟».

مكتبة
t.me/soramnqraa

- «لقد تدهورت حاله يا سيدة آرتشر وقد حضر ابنه وابنته في اليومين الماضيين».

- «ولكني قابلته قبل أقل من أسبوعين، ووصلتني رسالته...».

- «كتبها وكأن حياته متوقفة عليها وطلب مني أن أبعث بها. اسمعيني، أحياناً تأتي حالات تخيفنا. وأحياناً تتصاعد حدة الباركنسون ثم تتحسن حاله من جديد. نرجو من الله خيراً».

- «ويلاه».

- «ولكن إن كنت تريدين رؤيته... فأنصحك أن تعجلي ما استطعت».

لدى وصولها إلى دار الرعاية، لم تكن طبقات الجليد قد ذابت بشكل كامل. كان الثلج لا يزال يغطي كل أركان المرآب، عدا أنه غدا الآن رمادي اللون ومتسخاً وشقوقه مليئة بالتراب.

لما دخلت، توقعت رويا أن كلير ستمشي بها إلى بهو الطعام ذاك. كانت رائحة يخنة العجل لا تزال تملأ الجو في الردهة (رباه ألا يتغدون شيئاً غير يخنة العجل هنا؟). كانت تود أن تقودها كلير إلى آخر الرواق حيث بهو الطعام لتقابل بهمان وهو على كرسيه قرب النافذة. ربما وضعوا لها كرسياً بلاستيكياً في نفس المكان، حيث سيمكن لهما الجلوس والرنو إلى المرآب من جديد، ومشاهدة الثلج يتساقط، رغم أنه الآن صار رمادياً ودنساً. ستخرج الرسالة من حقيبتها فتمتلئ عينا بهمان بذلك الأمل اللعين نفسه، وستحدّثه عن كل الأحداث التي لم تحط بها خبراً حتى اليوم.

ولكن كلير أخذتها إلى مكان آخر تماماً. كان لون جدرانه كذلك

الذي في كل أروقة المستشفيات التي رأتها، كلون جدران المكان الذي حملت فيه ماريغولد للمرة الأخيرة. بذلت كل قواها كي تضع قدماً أمام الأخرى، بحيث إنها عندما بلغت الغرفة التي دخلتها كلير، كان العرق يقطر منها. ربما كان ينبغي لها خلع المعطف السميك الذي ترتديه.

كانت الغرفة مظلمة منسدلة الستائر، فلما تكيّفت عيناها مع عتمة المكان، رأت سريراً بجانبه كرسي، ومنضدة سرير فوقها مزهرية، وطاولة في الزاوية قرب حوض المياه. كان بهمان مستلقياً على السرير وأنفاسه كأنها صوت آلة معطلة.

قالت لها كلير: «اسمحي لي أن أساعدك على خلع معطفك»، فسحبت كماً فالآخر ثم تعاونتا على خلع المعطف، واتجهت رويا نحو الكرسي الذي قرب السرير وجلست. كانت قريبة جداً من بهمان حتى إنها استطاعت رؤية الخطوط التي حول فمه. كانت عيناه مغمضتين، ولكن لم تكن ثمة أنابيب بلاستيكية تخرج من أنفه ولا سوائل طبية موصلة إليه. كان حاضراً تماماً. «بهمانها». لا بد أنه على ما يرام.

- «إن احتجت شيئاً فستجيدينني في الردهة. ما عليك إلا الضغط على ذلك الجرس الذي قرب السرير وسآتي في الحال، ولكن يا سيدة آرتشر». . .

- «نعم؟».

- «ابقي ما شئت».

«أوه!». هذا ما فاهت به رويا. أما ما كتمت في صدرها فهو: **لِمَ هو على هذا السرير وليس على كرسيّه؟ وأرجوك لا تذهبي.** فلما انحسر صوت طرق كعبي كلير، اختلت به رويا من جديد. كان

صدره يعلو وينزل تحت شرشف أبيض وبطانية لفتية. ساورتها رغبة في فتح الستائر وإضاءة الغرفة.

قال: «كنتُ في انتظاركِ». وفتح عينيه فأضاف: «كيف كانت رحلتك؟ كيف حالك؟».

كان صوته واهناً وخشناً.

- «كانت جيدة. ماذا حل بك يا بهمان؟ ماذا أصابك؟».

- «أنا على خير وعافية، ما زلت صامداً، كما يقول الأمريكيون. جاءت إلي ابنتي صباح اليوم، وستعود في المساء».

كان يجدر برويا المجيء قبل ذلك. تخيلته يكتب رسالته إليها. كل تلك الاعترافات. وفجأة، لم يعد لأي من ذلك أهمية. أحدهم غيّر رسائلهما في شبابهما، وسواء كان ذلك الأحد السيد فخري بإيعاز من السيدة أصلان، حسبما اشتبه بهمان، أو حتى شهلا، أو جهانگير، فقد لا تعرف ذلك أبداً. ولكنها أرادته أن يعرف أنها من جانبها أيضاً، قضت أياماً كان هو أول مَن تفكر فيه؛ أياماً لم يكن من مناها إلا قربه. حدث أمر ما عندما كانا شابين؛ أمر غامض ولا مرد له. كانت علاقتهما وثيقة وكانت عروتهما وثيقة لا انفصام لها. لقد أحبته حباً جماً، ثم حاولت أن ترمي ذلك الحب إلى النسيان، حاولت أن تواريه، وحاولت أن تجعله يختفي، ولكنه ظل دائماً هناك، ظل يطوف بين أغصان الأشجار خارج مسكنها الجامعي في كاليفورنيا، وظل بين طبقات الغيوم في نيو إنجلاند، وظل بين ريش الصدر الأحمر المنفوخ للطائر الذي كان ينشد في الشتاء. ظل في كل مكان. موجوداً وساكناً إلى الآن.

- «بهمان؟».

نظرت إلى الشعرات على وجهه والخطوط في جبينه.

قال لها: «لم يمر يوم إلا اشتقت إليك فيه».

- «وأنا كذلك اشتقت إليك».

جرت الدموع على خدّيها إذ قالت ذلك. قرّبت كرسيها من السرير بقدر ما استطاعت وأمسكت يده فألفتها جافة وأصغر مما كانت عليه عندما مسكتها قبل أسبوعين.

انتصبت في وقفتها ووازنت جسدها على قدمها اليسرى ثم وبكل ما أوتيت من قوة حملت نفسها إلى السرير. اتسعت حدقتا عينيه لما رآها تتمدد إلى جانبه. وضعت ذراعها عليه. تناسبا مع بعضهما تماماً، وكان شعوراً طبيعياً جداً أن تتمدد بجانبه. مرّغت رأسها في كتفه.

«رويا جون».

كانت رائحة معجون الأسنان تفوح من الشراشف، بينما كانت تفوح منه هو رائحة الريح، رائحة الماء والملح، رائحة وقتهما معاً عندما كانا شابين.

وفي عالم موازٍ، كان الفتى الذي علّمها معنى الوقوع في الحب، والذي وعدها أن ينتظرها، كان ليكون دائماً لها. كانت على السرير في دار الرعاية، وكانت ساندة ظهرها إلى رفوف الكتب تسترق القبل. كانت في كلا المكانين في الوقت ذاته. سيكون دائماً هناك.

احتضنته تحت الشراشف ذات رائحة معجون الأسنان، وفي ذات الوقت داخل محلات الحلوى في مدينة تغيرت منذ زمن، حيث خرجا معاً من ردهة سينما متروبول ذي الكنبة الحمراء المدورة ليتبادلا القبل تحت السماء. كانت مشاهد متباعدة في الزمن ولكنها اجتمعت في لحظة واحدة في ذهنها. وقبل أن تدري، كانت في بهو منزل جهانگير

تؤدي خطوات الرقص على السجاد الفارسي ذي التصاميم المألوفة من أشكال هندسية بيضاء وزرقاء. يرفع بهمان ذقنها برفق قائلاً: «انظري إلي». ويشبك أصابعه مع أصابعها. كان للغراموفون بوق نحاسي كبير تخرج منه موسيقى التانغو فتملأ أرجاء البهو. لم يكن بهمان يعرف ما يفعل - وكيف له - ولكنه أخذ زمام الأمور. كانت حركاتهما ملخبطة في البدء، إذ لم يستطيعا أن يتحركا في تزامن. كان العشاق من حولهما يرقصون بينما جرى العرق على عمودها الفقري. أمسك أسفل ظهرها ثم ما لبثا أن تحكما في الإيقاع وانسجما في كيان واحد. كانت تشعر وكأنه يحملها وهما يتحركان سوياً في ذلك البهو الساخن. استقرت الموسيقى في طيات فستانها الأخضر ونزلت على شعرها. كانت ثملة من استنشاق عبقه. وهكذا بقيا يتأرجحان معاً الجسد لصق الجسد. حمل وجهها إليه وقبلها. حسبت أن القبلة ستحمل شعوراً بالطيران، بيد أنها شعرت كمن يحط على أرض رقة وحلاوة.

على السرير وتحت الشراشف ذات رائحة معجون الأسنان، مسدت رويا صدره وأمسكت ذراعيه. تلك العضلات التي كانت تعرفها جيداً. قبّلت عينيه وعظمتي خديه وشفتيه. وضعت خدّها على قلبه واستلقت هناك. كانت ممتنة على الوقت الذي قضته معه، سيان أكان طويلاً أم قصيراً، ممتنة لأنها عرفته، وممتنة لأنها مرت في شبابها بتجربة حب قوي لم تقوضه لا عقود الزمن ولا المسافات ولا الأميال ولا الأولاد ولا الأكاذيب ولا الرسائل. عانقته بين ذراعيها وقالت له كل ما كانت في حاجة إلى قوله، فخلال ذلك الجزء من الزمن، كان برمته ملك يديها.

الفصل الثلاثون

2013

علبة زرقاء مستديرة

- «لا تقلقي، سيحضر بعض أصدقائه من دار الرعاية أيضاً».
- «ويلي، لا أستطيع، سيكون ذلك غريباً».
- «ستُعَدّين نزيلة من النزلاء. صديقة من بين الأصدقاء».
- «نعم، حسناً، وليكن. والتر سيكون في اجتماع في المدينة، وأنا لا أحب القيادة في هذا الجليد».
- «سيدة آرتشر، يمكنني أن أقلك ذهاباً وإياباً. ثم إنني أعتقد أنه كان ليود أن تحضري. اتفقنا؟».

يا للأمريكيين واتفاقاتهم وخططهم الجيدة. ولكن هذه الشابة كانت على شيء من الطيبة بحق. كلير. لقد أصرت أن وجودها في مراسيم العزاء لن تشوبه شائبة.

وعليه، ذهبت رويا.

طوال عقود، لم ينته شيء مع بهمان، لم تودعه، وظلت أمور كثيرة في أفق التسوية بينهما. ولكن ذلك اليوم الأخير معه وحده - حسناً، ستظل دائماً ممتنة لذلك الوقت معه. أرادت أن تذهب لتأبينه، أرادت أن تكون هناك من أجله.

أقيمت المراسيم في كنيسة كونية بدوكستون. كان قد طلب أن تُحرق جثته، فبهمان لم يكن متديناً، ولم يمارس أية طقوس دينية، لذا ناسبه برج الكنيسة الكونية الأبيض والغارق في الشمس بشكل مثالي على نحو ما.

صعدت رويا السلالم ودخلت الكنيسة بمساعدة كلير. ألفت في لقاء أوميد وامرأة تشبهه كثيراً، غرابة ولكنه كان أيضاً أمراً مريحاً على نحو غريب. قدّمها أوميد إلى أخته التوأم ساناز، وكانت لها نفس ابتسامة بهمان. استنجدت رويا بكل ما أوتيت من قوة للمحافظة على ثباتها إذ أقبلت على ابنَي بهمان تقدم لهما عزاءها. قدمها أوميد لأخته باعتبارها «من أصدقاء أبينا القدامى» ثم شد على يدها.

بدأت المراسيم فجلست رويا إلى جانب كلير على أحد المقاعد الخشبية الطويلة، واعتلى قس المنصة فشكر وثنى على الحضور وقال إنه ليود أن يفتتح بأبيات من قصيدة السيد بهمان أصلان المفضلة. اهتز كيان رويا لما سمعت كلمات قصيدة الرومي التي تشاركتها معه لأول مرة في المكتبة، وهي القصيدة ذاتها التي احتوت صفحات ديوانها رسائل كانا تبادلاها.

انظر إلى الحب
يتشابك مع العاشق

انظر إلى الروح
تندمج مع الأرض
فتحييها من جديد

قام ولداه فخطبا. ذكرا مدى حبه من لدن مجتمعه ومن لدن زبائن مكتبته. فالتقطت رويا من خطابيهما ومضات من حياة بهمان.

قالت ساناز: «كانت أمي وأبي يحبان الاحتفال **بالنوروز**، فكانت رائحة الأرز الفارسي تملأ بيتنا دائماً كما أن أبي كان دائم الحرص على إعداد سفرتنا بعناصر **الهفت سين** التقليدية، التي ترمز إلى الربيع».

قال أوميد الذي بدا نهماً في رواية حياة والدهما الصالح: «كان أبي لا يفتأ يحثنا على التفاني في دراستنا، ولطالما أراد أن يغيّر العالم».

أنصتت رويا لخطب ولديه الراشدين الكفوءين والفصيحين. أدركت حينئذ أن بهمان قد غيّر العالم في الأخير؛ فها هما ولداه يخطبان من فوق المنصة، من أعماق قلبيهما.

حسبت في مرحلة ما أن الحب الذي تشاركته مع بهمان كان كبيراً كبر الكون؛ فهو بدا لها بهذه القوة. ولكن الحال أن ذلك الحب لم يكن سوى شظية، شريحة صغيرة من حياة بهمان. كان ولداه وأعياد ميلادهما وشركائهما وأزواجهما وأطفالهما؛ كان ذلك حياته. وزوجته. كانت أيضاً حياته.

انقضت المراسيم فانتقلوا جميعاً إلى بهو الاستقبال في قلب الكنيسة. بكت كلير بصوت خفيض. أرادت رويا أن تواسيها لكنها لم تدر ماذا تفعل. ولما اختلط الضيوف ببعض، لمحت مائدة بوفيه فقالت لكلير وهي تربت على كتفها: «سآتيك بشيء تأكليه».

على المائدة، وقفت ساناز ترتب الحلوى في أطباق ثم قالت

لرويا وهي تقدم لها الطبق: «كانت هذه حلوته المفضلة، وكان يحب تسميتها 'آذان الفيل'».

أرادت أن تقول **أعرف ذلك**. كان الفتى الذي أحضر لها الحلويات في مقهى غنادي يقف بجانبها، وسيظل دائماً بجانبها؛ لقد استطاعت أن تشم رائحة القرفة والسكر في ذلك المكان المزدحم. شكرت ساناز ووضعت زوجين من آذان الفيل في طبق ورقي وعادت إلى كلير.

- «ماذا في يديك يا سيدة آرتشر؟».
- «ذوقي من هذه. لقد كانت حلوته المفضلة».

قضمت كلير من حلوى أذن الفيل بينما غاصت رويا في كرسيها تتدبر في مرور الزمن.

لما نشطت خلايا الأولاد الصغار من أكل الحلوى، أخذوا يذرعون البهو جرياً. تلطفت الأجواء، فأكل الناس وهذروا وضحكوا. حمل إليها وجودها مع هؤلاء الغرباء الذين كانوا جميعاً على صلة ببهمان إحساساً عذباً. لم تكن تعرف منهم أحداً باستثناء كلير وأوميد، ولكن الواضح أن كل من حضر وحَّدهم إعزازهم لبهمان؛ لحيويته ولطفه. كانت مقتطفات من المحادثات تطفو في الأرجاء فتسمع منها: «أتذكر كم كان يحب...»، «رباه، كان غناؤه يثير الجنون...». وكلما طال الأمد برويا في البهو، سمعت أشياء عن بهمان، وشاركت جلستها مع أناس شاركوها حبه. وعندما ستغادر الكنيسة ستعود إلى حياة لا يعرفه فيه أحد. شعرت برغبة في البكاء. لكي تشتت ذهنها عن الأمر، حاولت معرفة أي من الأولاد

كانوا أحفاد بهمان. لمحت مراهقة تسند جسمها إلى الجدار وتمضغ العلكة. لقد كانت نسخة مصغرة من السيدة أصلان.

وفي الختام، وقف أوميد وساناز وأزواجهما قرب باب الخروج يصافحون الضيوف ويشكرون ويثنون على الحضور. شعرت رويا برغبة غريبة في البقاء قربهم ما وسعها. لقد كانوا صلتها الوحيدة بالفتى الذي أحبته، ثم إنها لن ترى أياً منهم بعد ذلك أبداً.

سألتها كلير بعينين محمرتين بالدموع: «جاهزة؟ هلم أقلك إلى البيت».

فرملت كلير في مدخل البيت من الطراز المعماري الاستعماري ذي مصاريع نوافذ خضراء، ففتحت رويا حزام الأمان لكنها لم تترجل بل توجهت إلى كلير: «هل تودين الدخول؟».

قالت ذلك من باب الأدب، وأيضا لأن كلير كانت تعرف عن رويا وبهمان أكثر من أي شخص آخر. لقد كانت أمينة سر بهمان في دار الرعاية، حيث روى لها قصته مع رويا. شعرت الأخيرة برغبة غيبية في الوجود مع كلير. فولداه لم يكونا وحدهما صلة وصلها به، بل كذلك كانت كلير.

ردت مذهولة: «إن لم يكن في ذلك أي إزعاج...».

- «لا إزعاج مطلقاً».

- «حسنٌ، شكراً لك. لدي شيء كنت سأعطيه لك عند نزولك، أما الآن فسأعطيه لك في الداخل».

- «ما هو؟».

- «أرادك أن تحصلي عليه. هذا كل ما أعلم».

وضعت رويا الغلاية على الموقد وأشارت لضيفتها بالجلوس إلى طاولة المطبخ. لن يعود والتر من اجتماعه في المدينة إلا بعد حين، فتلك الاجتماعات يطول أمدها وتدوم لساعات من الجدال.

جلست كلير ثم تحسست حقيبتها فأخرجت منها علبة قصدير زرقاء مستديرة عليها صور لبسكويت الدانيش باتر.

كانت رويا قد تقاسمت الكثير من هذا البسكويت مع والتر على مر السنين، وقد كان لها علبة مثلها تماماً في خزانتها وفيها كانت تبقي لوازم الخياطة من بكرات خيط ودبابيس وإبر وكستبان وأزرار.

- «أصر كثيراً على أن تُسلَّم لك هذه. أخذ ولداه بقية متاعه، لكنه كان ملحاً ألا يرى هذه العلبة أحد غيرك».

أحست رويا بإغماء طفيف. دفعت إليها كلير العلبة برقّة فأزالت عنها الغطاء بيدين مرتعشتين ونظرت إلى ما فيها.

ورق. كان في العلبة كومة أوراق أخذت منها واحدة وفتحتها. كان الخط مألوفاً جداً بيد أنها لم تستطع تذكر صاحبه. توقف قلبها.

إنه خطها هي. أسقطت الورقة وطفقت تفتش بقية محتويات العلبة. كان فيها الرسائل التي أرسلتها إلى بهمان في صيف 1953. كانت تلك محتويات قلبها. عجلت برد الرسالة الأولى مكانها كما لو أنها ستحرق أصابعها إن أطالت إمساكها، ثم أغلقت العلبة بإحكام ووضعتها في درج خزانة المطبخ.

لم تنبس كلير بكلمة.

قالت رويا: «والآن، أي أنواع الشاي تحبين؟».

احتكر بهمان حديثهما في البداية. حكت لها كلير قصصاً وقعت له في دار الرعاية، فيما تجرأت رويا وحكت لها بعضاً من ذكرياتها معه من 1953. سألت رويا بعد ذلك عن أسرة كلير. أخبرتها أن السرطان أخذ والدتها وأن والدها كان قد قضى في حادث سيارة وهي بنت الربيعين. كان في عيني كلير تعابير حزن مسّت شيئاً في رويا. لقد كانت هذه الشابة تعاني وحدة كبيرة.

قالت كلير إذ أنهت شايها الفارسي وحلوى البقلاوة: «ينبغي لي الذهاب».

- «أرجوك، ابقي للعشاء».

كانت رويا بالكاد تعرف هذه الشابة ولم يكن لهما ما يجمعهما إلا إعزازهما المشترك للرجل الذي كانت كلير تناديه بالسيد باتمان، ولكن والتر لم يكن قد عاد من المدينة بعد، وكان الظلام قد بدأ يحلّ فأحست في نفسها بقلق من أن يستفرد الحزن بالفتاة إذا غادرت الآن.

صاحت رويا: «هل سبق لك أن ذقت المطبخ الفارسي؟».

غمغمت كلير: «هناك مطعم كباب في واترتاون».

- «انسي أمر الكباب. هل جربت أياً من أنواع **الخورش**؟ هل جربت خلطات الأرز الفارسية؟».

- «كنت دائماً أسمع السيد باتمان يتكلم عنها بالتأكيد. كان يفضل شيئاً يسمى آلبيالوو. . .».

- «**آلبالو**! الأرز مع الكرز الحامض؟».

- «نعم هو ذاك. ثم إنه كان دائماً يتكلم عن شيء يقال له **سبزي**؟».

- «**قورمه سبزي**! اسمعي، كنت أنوي إعداد أصابع السمك

للعشاء، فوالتر يحبها مع الكاتشب والمايونيز. هو الآن في المدينة لمناقشة بعض الشؤون. تعلمين، خير له أن يشغل نفسه. ينبغي للمرء أن يشغل نفسه. لكن إن شئت، يمكننا أن نفاجئه بعشاء لذيذ. إن بقيتِ».

في الليلة الأولى من دروس الطبخ في إقامة السيدة كيشبو، كان والتر قد حضر بشعره المصفف بعناية مرتدياً قبعة أنيقة. ليلتئذ حضّرت له **خورش** الباذنجان بالدجاج. لم يكن دارجاً استعمال الدجاج في ذلك الطبق وإنما العجل، ولكنها عملتها وكان طبقاً رائعاً. والآن تبدو هذه الفتاة بحاجة إلى وجبة منزلية جيدة. ولم لا؟ فبعد كل ما فعلته كلير من أجل بهمان، أقل ما يمكن لرويا فعله هو أن تكافئها بعشاء طيب. لقد مرّ دهر لم تعلّم أحداً الطبخ الفارسي. فباتريسيا وأليس لم تكترثا قط بالأمر. أما هذه الشابة اليتيمة الأبوين الجالسة في مطبخها فتستحق عشاء مميزاً، فقد بذلت وقتها في التكلم مع بهمان وفي الإنصات إليه والعناية به وذهبت بذلك أبعد من واجبات وظيفتها بكثير.

كررت رويا المحاولة: «إن ساعدتني، نستطيع القيام بذلك».

هزت كلير كتفيها قائلة: «قولي لي من أين أبدأ».

تبحرتا في المطبخ سوياً. أرت رويا كلير مكان كل شيء. غسلتا أرز البسمتي ونقعتاه ثم طلبت رويا من ضيفتها تشغيل آلة طبخ الأرز الفارسي التي كان والتر قد اشتراها من موقع أمازون. لا داعي لوضع قطعة قماش تحت غطاء القدر لمنع خروج البخار كما كانت ماما تفعل من أجل الحصول على **تهديج** مثالي، فآلة طبخ الأرز هذه تفعل لك ذلك!

أخرجت كيساً فيه ليمون فارسي مجفف، وأخرجت البازلاء الصفراء المقسومة، ثم أخرجت الدجاج من البراد. لقد أعدت لوالتر **خورش بادمجان** بالدجاج في تلك الليلة الأولى في منزل السيدة كيشبو، أما الآن فلا باذنجان لها، لذا ستعد **الخورش قيمه** بالبازلاء الصفراء المقسومة. قطعتا وشرحتا وقلتا وأضافتا الزعفران والكركم وسائر البهار الفارسي. انفتحت لها كلير وأطلقت العنان لقصصها عن السيد باتمان. حكت لها كيف ناضل من أجل إقامة دروس التانغو في دار الرعاية وكيف شارك فيها بنفسه ولو على كرسييه المتحرك. حكت لها كيف كان لا يذر مقالاً وقعت عليه يداه إلا قرأه، إن كان عن الاكتئاب والقلق النفسي وآثار الفقدان.

- «لقد كان حريصاً على تعزيز معرفته عن حالة أمه. قال لي إنه تمنى لو كانت ولدت في مكان وزمان مختلفين، فربما لكان بالإمكان تشخيص حالتها وإخضاعها لعلاج». سكتت ثم أردفت: «لقد كانت صلتي به الأوثق من بين نزلاء الدار جميعاً. كان يحب أن يحكي قصصه، وأنا أحببت تلك القصص، كما أحببت طيبته».

في نهاية المطاف، استسلم قلبه. كان ذلك بعد أن تركته رويا نائماً يتنفس الحياة في سريره. أسلم الروح إلى بارئها بعد أن جاءت إليه ابنته في مساء ذلك اليوم. وستظل رويا ممتنة أبداً لتلك الساعة التي قضتها معه في السرير في آخر حياته، وستظل ممتنة أبداً لكلير على إتاحة لها تلك الفرصة. وستظل ممتنة أبداً لوالتر الذي اختار ألا يمنعها من ذلك.

- «مرحباً؟».

كان هذا صوت والتر من الردهة، فنغّمت رويا بصوت عالٍ: «ها نحن هنا!».

كانت رويا، لسبب ما، سعيدة سعادة لم تشعر بها من لحظة خبر وفاة بهمان. سعادة لم تشعر بها منذ زمن طويل في الحقيقة. كانت مستمتعة بصحبة كلير. ربما كانت رائحة الزعفران المنبعثة من **الخورش** تعطيها ثمالة طبيعية. كانت زاري دائماً تقول إن الزعفران مضاد اكتئاب طبيعي. **نعم، كما أنه منشط جنسي يا أختي! أذيبي نصف ملعقة صغيرة من الزعفران في قدح من الماء الساخن واشربيه. ولا تنسي أن تزيدي منه في طعام والتر!**

دخل والتر إلى المطبخ. «آه جميل، انظروا من لدينا هنا». نظر إلى رويا ومن ثم إلى كلير فأعاد النظر إلى رويا مرة أخرى وقال: «رويا، الرائحة هنا رائعة! ألفيتني أتساءل عن صاحب السيارة المركونة في الخارج! مرحباً كلير».

- «مرحباً سيد آرتشر».

- «كنت أحسب أني سأجد أصابع السمك في انتظاري، وحسبت ذلك مكافأة، ولكن أظنني أشم رائحة **الخورش** اللذيذة».

- «حظيت بمساعِدة ممتازة، فأردت أن أُعِدّ لك مفاجأة».

- «أمر مضحك، فأنا أيضاً لدي مفاجأة لك! انظري من وجدته يركن سيارته في المدخل!».

ولج كايل بوجهٍ محمر من البرد، وكان قد خلع حذاءه وبقي بالجوربَين، ذلك أنها ربته ألا يدخل البيت بحذائه. لم تكن من الجرأة بما يكفي لتطلب من كلير خلع حذائها، فمن غير اللائق أن تلح على ذلك في أول زيارة لها. رأت رويا في وجه ابنها لحية خفيفة، فلا شك أن كايل كان منشغلاً في الأيام القليلة الماضية. ما شاء الله، ما أحسن طلة هذا الولد، ولدها.

- «كايل!» هلعت رويا إلى ولدها تعانقه.

- «كيف حالك يا أمي؟».

- «كايل، أقدم لك كلير، إنها...». كانت ستقول **مديرة دار الرعاية**، ولكنها سكتت ثم تداركت: «إنها صديقتي».

أقبل كايل على كلير يصافحها: «سررت بلقياك»، فاحمرّ وجهها.

هيأ والتر المائدة بينما أعد كايل المشروبات، ثم جلس الأربعة إلى طاولة المطبخ وتشاركوا بعض **الخورش**. اجتاحت رائحة الأرز البيت وشعرت رويا أنها في ديارها تماماً. لم يستبدلا بيتهما ببيت أصغر. ولم ينتقلا إلى دار رعاية مهما نكدت عليها زاري بشأن ذلك كلما أتيحت لها الفرصة. فرويا كانت تريد مطبخها وقدورها وكتب وصفاتها وكرسيها ذا الذراعين وراحة غرفة نومها الواسعة وجمال فنائها الخلفي. أرادت أن تظل في منزلها ما وسعها ذلك. فهل سينتهي بهما المطاف، هي ووالتر، في مكان كدار دوكستون؟ لم ترد أن تفكر في ذلك.

كان **الخورش** مزيجاً متوازناً من الحموضة والحلاوة، والأرز له طعم مميز ولذيذ، والنكهات امتزجت ببعضها على نحو مثالي. وفي هذه الليلة، كانت رويا سعيدة بتناول العشاء رفقة والتر وكايل وهذه الشابة اللطيفة التي كانت تبتسم وتمضغ **التهديج**.

التهم كايل طعامه قائلاً: «لا أطيب من هذا الطعام، شكراً لك يا أمي».

انتعل كايل حذاءه في الردهة بينما أعطى والتر لكلير معطفها محذراً: «انتبهي للسلالم، يمكن أن تكون زلقة!».

قالت رويا: «رباه، لا أحد منكما يرتدي قفازات. ستتجمد أيديكما».

وقف الزوجان معاً عند الباب الأمامي يراقبان كلير وكايل يمتطي كل منهما سيارته ويتوليان عنهما.

سألها والتر بعد أن أغلق الباب وقد أصبحا وحدهما: «كيف تتعاملين مع الأمر؟ هل أنت بخير؟».

- «بخير، والحمد لله».

- «والتأبين؟».

- «أحببت ولدَيه».

- «طيب، إذاً. سأنهي أنا عمل المطبخ، وستصعدين أنت إلى الغرفة لكي ترتاحي. خطة جيدة؟».

في غرفة نومها، جلست رويا على الكرسي ذي الذراعين الذي كان قد عوّض الكرسي الهزاز حيث أرضعت ماريغولد. لم تكن تتخيل في بداية هذا الشتاء أن ذكريات من غياهب الماضي ستعود إليها وتذهلها، وأنها ستجد ذلك الفتى من عالم آخر، وأنها ستذهب فعلاً إلى دار الرعاية وتكلمه. كانت تحسب أن لا شيء يمكنه النفاذ إلى حياتها المشمعة بعناية في سنها هذه. ولكن بالطبع كان ذلك ممكناً دائماً. وبالطبع لم يكن الأوان قد فات قط على أي شيء.

قبل أشهر قليلة، كانت لو قال لها قائل إنها ستجلس قرب بهمان أصلان من جديد وتسمع صوته (الصوت نفسه!) وتناقش وإياه أموراً غطاها غبار الزمن، ما كانت لتصدقه. ما كانت لتفهم آنئذ أن الزمن ليس مستقيماً، بل دائرياً. فلا ماضي ولا حاضر ولا مستقبل.

فقد كانت رويا المرأة التي هي عليها اليوم، وكانت في الوقت نفسه الفتاة ذات الأعوام السبعة عشر التي تتسكع في المكتبة. كانت هي وبهمان كياناً واحداً، وكانت هي ووالتر متحدين. وكان كايل روحها، وماريغولد لن تموت فيها أبداً.

الماضي لطالما كان موجوداً. مستتراً في الزوايا يغمز لك، معلَّقاً بأعضائك من الداخل، بينما تحسب أنت أنك خلصت منه، ومضيت عنه.

في ساعة لاحقة، فتحت رويا العلبة الزرقاء المستديرة وأخرجت منها الرسائل واحدة تلو الأخرى، وقرأتها جميعاً. فيها سترى ما كتبت لبهمان طوال كل تلك السنوات التي خلت، كما سترى الرسالة الأخيرة التي لم تكتبها هي وإنما كُتِبت باسمها وبخط يشبه خطها، وأُرسِلت إلى بهمان. وستعلم أن أحدهم أضاف تلك الرسالة يخبره فيها أنها لم تعد ترغب في لقياه أبداً. وإلى جانب ذلك، قرأت رسائل بهمان واحدة واحدة، الرسائل التي كتبها لها طوال السنين، يأتيها فيها من أخباره، ويخبرها عن حياته وعن عمله وأولاده وأيامه، رسائل لم يُكْتَب لها أن تُرْسَل ولكنه احتفظ بها في العلبة الزرقاء المستديرة مع رسائل شبابها.

أضافت إلى العلبة الرسالة الأخيرة التي بعثها بهمان بعد اجتماعهما في دار دوكستون.

سيذوب الثلج قريباً. وسيحل الربيع. وبمناسبة أول أيام الربيع الذي يصادف السنة الفارسية الجديدة، سيغسلان الستائر ويمسحان النوافذ، وسينظفان منزلهما شبراً شبراً. وسيحتفلان بالبعث

والتجديد. فكرت في والديها في إيران اللذين لم يكتب لهما أن يعرفا ابنها. فكرت في زاري وجاك والأولاد وكل أحفادهما في كاليفورنيا. فكرت في جهانگير يرقص التانغو مع بهمان ويموت في الحرب بين إيران والعراق. تذكرت يوم الانقلاب، وكيف وقفت في ذلك الميدان بينما بلادها تنهار من حولها. فكرت في كل الأوقات التي كانت فيها بلادها مفعمة فخراً وأملاً لتتداعى بعدها في يد الخوف والقمع. ولكنها قد تتحرر يوماً. فكرت في ابنتها التي كان من المفترض أن تكون معها في المطبخ هذه الليلة، وفي الرجل الذي شاركته السرير في آخر يوم في حياته، فاجتاحتها أمواج الحب له ولوالتر ولكل من رحل ولكل من بقي واستمر.

الخاتمة

19 أغسطس 1953

كاتم الأسرار

يرتاد الناس البازار الرئيسي بوسط المدينة في كل وقت وحين؛ حتى الناس من طبقته الاجتماعية. ففيه يباع الذهب والسجاد والأساور التي تزين الأرساغ الرقيقة للنساء الأنيقات كمثل عطية. يباع الزعفران في أكوام قرمزية، وتعلق ملابس النساء الداخلية من الدانتيل على الحبال بملاقط الملابس، وتعرض صناديق الفسيفساء مختلفة الألوان في أهرام للزبائن. ولكن علياً كان يتجنب الذهاب إلى البازار كما يتجنب المرء وجع القلب. يكره رائحة الفاكهة المعروضة تحت الشمس، ويكره سماع البائعين المتجولين ينادون على سلعهم. إن استنشاق ولو نفحة من رائحة الشمام قد يصيبه بالعمى. ثم إنه ليس مضطراً للتبضع هناك، ذلك أن البيت مليء بكل شيء وعطية تديره بانتظام ودقة. لا يلقى الكثير من المتاعب من أبنائه. أما البنات فكبرن وتزوجن رجالاً صالحين. أفيطمع أن ينال أكثر من هذا؟ بالله عليك يا علي.

فتح المكتبة لمساعدة الشباب، وأَوْلَى أول اهتماماته لجلب الكتب والقرطاسية إلى المحل. عناوين كتب من كل أنحاء العالم،

وظهور كتب عليها حروف سالبة، وكلمات العظماء من السلف والحداثيين، ومجلدات من المعارف والأدب والمخاطرة. هذا المحل - هذا الملاذ - هو الذي أنقذه، لا سيما لما حرمته ضحكة أبيه البلغمية من الزواج من ذات رائحة الشمام التي ما زال يريدها. ولكن سلطان الحشمة والعرف و«بالله عليك يا علي» قادته إلى زيجة مستقرة نالت رضا أهل الطرفين. وهو وعطية ختما على مستقبلهما وأعرضا عن الفتاة التي وازنت طشت قشور الشمام على وركها وقبّلت علياً في الباحة وراء البازار، ليلقيا بها في غياهب النسيان. أو كادا.

والأولاد. ما هي إلا أن يأتي الأول حتى يعمل الحبل على الغارب للبقية. فرزقه الله بأربعة أولاد كلهم في كامل العافية، ولله المنة والفضل. تربوا تحت رعاية والدتهم وبإرشاد منه هو. ترك ابنان بصمتهما في العلم مما جعل أبا علي يشعر ببراءة الذمة لما رأى أن حفيديه على الأقل اتبعا نهجه الأكاديمي، رغم أن علياً ترك الدراسة «ليبيع البضائع مثل تاجر، مثل بازاري».

وفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين من مرداد، كان علي يشتغل وحيداً في مكتبته. كان رئيس الوزراء طلب من الناس أن يلزموا منازلهم وألا يخرجوا إلى الشوارع. المحل ساكن إلا من قعقعات السلم المتنقل الذي يجره على أرضية غرفة التخزين الخلفية. أقبضت عليه ذكرى بدري على ذلك السلم قبل بضعة أسابيع حيث شقت السكين عنقها وجرت نقط الدم تخضب جلدها.

تصبب عرقاً فجأة. ولكن ذلك سيمضي؛ هذا السيل من الذعر، هذه الفوضى بدواخله التي تعني دقائق من الألم المشل، لا بد أن تمضي.

انس الفتاة يا علي.

ينبغي لعلي إنهاء ترتيب الكتب، وينبغي له العودة إلى البيت باكراً حيث تنتظره عطية، فيحدث أحياناً أن تظن به شراً إذا تأخر في العودة إلى المنزل، فتشك أنه يلقى امرأة غيرها.

أخذ المكنسة وكنس البلاط، فما لبثت أن سلبت خاطره مرة أخرى. عجيب أمر علي، كيف له أن يحملها معه طوال الوقت، فلما دخلت حياته من جديد في هذا المحل برفقة ابنها بعد كل تلك السنين، عادت به ذاكرته إلى حاويات القمامة خلف البازار من جديد. أم تراه لم يبرح ذلك المكان أصلاً؟ ذلك المكان حيث كان الكون طوع يديهما بينما كان الناس يرفعون أكف الصلاة لله عز وجل داخل الجامع.

اشتاق لها الآن. لم يزل يشتاق لها. لماذا يفعل ما يفعله من أجلها؟ لماذا يعجز عن رد طلبها؟ هي تقول له بإصرار إن بهمان ورويا يستحيل أن ينتهي بهما الأمر تحت سقف واحد.

طلبت منه أن يغير الرسائل. جعلته يقسم على ذلك ففعل. ذلك أنه مدين لها. أليس هو مَن زرع طفلاً في أحشائها؟ أليس هو مَن سرق شرفها، وأنهى براءتها؟ أليس هو الرجل - نعم مراهق ولكن في النهاية رجل - الذي استغل طفلة في الرابعة عشرة؟ ثم لما كان عليه الزواج منها، تركها وأطاع والديه وتزوج عطية. عطية ذات البشرة الثلجية، ذات شخصية الزبادي، عطية التي تستحق رجلاً أفضل من رجل يريد بدري.

لا يريد علي إلا مساعدة الشباب الذين يأتون إليه متعطشين للمعرفة. يريد أن ينقذهم من الحياة المخطط لها ومن الركود. يريد أن يحررهم من فخ العادات والتقاليد.

ينشر الخطب السياسية والمقالات لأنه يؤمن بالديمقراطية، ويعلم عن رئيس الوزراء مصدق أنه قائد عادل ومنصف.

عندما يأتيه فتيان كبهمان أصلان (آه، أول يوم أحضرته فيه أمه إلى المكتبة، امتزج عليه الألم مع السرور لدى رؤية بدري من جديد)، يرغب في مساعدتهم على النضوج. ولعله يستطيع إرشاد هؤلاء الغلمان والصبايا المفعمين بالمثاليات إلى استخدام ذكائهم ومهاراتهم لتحسين حال البلاد. لعله يستطيع إنقاذهم.

وها هي رويا كايهاني كانت كلما هرعت إلى مكتبته بعد المدرسة وطلبت نصيحته في كتاب تقرأه، أحس بالانتشاء والرضا.

ولا شيء أسعد له من ري بتلة الحب بين الشباب من خلال الرسائل التي يضعها في الكتب. فرسائل الحب التي يمررها بين المحبين الشباب هي قناة تواصل ما كانوا ليصيبوها لولاه وكتبه، وهي لهم متنفس من ضغوط أهليهم ومن العادات الخانقة التي تطوقهم جميعاً. ينقل تلك الرسائل الغرامية لفائدة عشاق ليس لهم أن يلقى أحدهما الآخر، عشاق حالت بينهم الطبقية أو الدين أو المواريث الثقافية لكن ليس الرغبة في اللقاء. لفائدة بنات لا تجعلهن أسمالهن المهترئة كفؤاً للأولاد الأثرياء، وأولاد ليسوا في وضع مادي يسمح لهم أن يكونوا أنداداً لبنات النخبة. لفائدة المسلمين الذين لهم أحبة من غير المسلمين، والشيوعيين الذين لهم أحبة من الملكيين.

وهو سعيد بفعل هذا الأمر. ذلك أنه يريد لهم أن ينالوا ما حُرِم منه هو: الحق في الحب.

فعباس وليلى غلامي، وهما من أكثر الأزواج فعلاً للخير في طهران، ما كان لهما أن يجتمعا لولا مساعدته. كما أن جاليه

تباتبابيه وكوروش غودوسي؛ شيوعية وملكي، على موعد مع الزواج والفضل له. يساعده تذكر أولئك الذين ساعدهم، فهذا يجعله يتشبث بالخير.

ثم إنه ساعد بهمان ورويا على الوقوع في الحب. ألم يمض إلى المصرف علماً منه أنهما سيختليان ببعضهما؟ ألم يدأب على الدخول إلى غرفة التخزين الخلفية ليتكلما بسلام؟ لقد ساعدهما وأعطاهما مجالاً مقدساً لينعما بالخلوة، أعطاهما الوقت ليكونا مع بعضهما. فكان يراقب بسرور ابن بدري وهو يمضي إلى الوقوع في حب رويا هناك تحت سقف مكتبته، بل إنه سيعمل على إيصال رسائلهما فيما بعد.

إلى أن طلبت منه أن يضع حداً للأمر.

لماذا لا يخلي قلبُه سبيلَ الماضي؟ لماذا يستقر بعض الناس في أرواحنا أبداً، ويعلقون في حلقنا، ويُطبَعون في أذهاننا أبداً؟

انس الفتاة يا علي.

رويا الآن في الميدان. تنتظر.

سامحه لله. أبرأه الله.

قالت له بدري إنها أجهضت ولدهما بيديها، وإن بطنها قد تعطل منذئذ. باستثناء بهمان، ولهذا فإن علياً يحاول إنقاذ بهمان. يحاول إعطاءه كل ما يريد: الكتب، والسياسة، والحب. ولكن بدري لا تريد له أحد هذه الأمور مخافة أن تتقوض خططها. فلها خطط لبهمان، وتلك الخطط لا تتضمن رويا.

عندما وخزت عنقها ذلك اليوم وكادت تموت، وعندما سافرت بعد ذلك إلى الشمال حيث البحر لتتعافى، لم تتوقف عن التأثير فيه، فجعلته يقطع لها وعداً.

نعم. لقد أعاد كتابة رسالة بهمان كما طلبت منه. غيّر كلمة واحدة فقط. لا شيء آخر. اسم الميدان. ولكن ذلك الاسم كان أقسى كلمة قد يغيّرها المرء. أرادت أن تمنحهما الأمل، وأن تجعل كل منهما ينتظر في مكان مختلف. لم ترد إنهاء الأمر مرة واحدة. أرادت أن تمدد المعاناة، وأن ترى معاناة رويا. بقيت تهاتفه من الشمال كي تطمئن أنه فعل ما طلبته منه. كانت تستلذ بتلك المأساة. الخطر والوحشية. وما زاد رهبته أنها لجت في أمرها وأَمْلَت عليه رسالتين إضافيتين: واحدة من بهمان إلى رويا والأخرى من رويا إلى بهمان، وأخذت منه وعداً أن يكتبهما ويبعث بهما قبل «لقاء» الولدين في الميدانين ببضعة أيام، حتى يتلقى كل منهما رسالته بعد مدة قصيرة من لقائهما المزمع، في وقت سيكون كلاهما لا يزال ملسوعاً من انتظار العدم.

وبهذا ستتمكن بدري من إنهاء القصة على النحو الذي تريد.

وافق. وافق رغماً عنه، لكنه وافق. فعل كما أرادت منه أن يفعل، حتى يعوضها عن إخفاقه في الماضي، رغم علمه أن فعله لن يقود إلا إلى المزيد من انفطار القلوب.

كان له خط رائع - كما كان دائماً. كان يستطيع نسخ أي شيء. ذلك أنه تتلمذ في سن صغيرة في أفضل المدارس حتى أتقن فن الخط إتقان المعلم. لقد كان نتاج زمن كان فيه الخط الجميل علامة على علو المنزلة. وكان علي في مهارة يصعب محاكاتها.

هل يغفر له ربه يا ترى؟

ولكن ما كانت بدري لتلوم سواه لو تزوج بهمان برويا. ماذا كان سيفعل بعد ذلك؟ ماذا كانت ستفعل؟ ستقتل نفسها؟ لئن حدث ذلك لن يستطيع العيش بعد ذلك أبداً.

وقف هناك على سلمه المتنقل ولم يزل يرتعش. تساءل إن كان فَعَل ما فعله بناء على إصرار بدري حقاً، أم أن قسماً بداخله كان، رغم كل حسن نوياه، يحمل غيرة تجاه ما كان سينعم به الولدان: حياة مفعمة بالحب. شيء لم ينعم به هو قط.

تذكر نظرات رويا إلى ذلك الفتى في مكتبته.

غرق في عرقه، وأدرك شيئاً وهو يجلس هناك ورأسه مدفون بين كفيه:

لا. هذا خطأ.

إنه يعرف في قرارة قلبه ما ينبغي له فعله.

أغلق المحل.

طفق يجري.

كان يجري ويجري ويجري. لم يجر بهذه السرعة منذ كان شاباً وكان هو نفسه مغرماً. يجري ومع كل متر يقطعه ومع كل خطوة يخطوها يشعر بطاقة تتجدد في قلبه. لقد أخطأت بدري الصواب؛ لا يمكن لهما تفريق شمل قلبين شابين. لم يستطع علي نسيان الفتاة. الفتاة التي تقف في الميدان.

كانت الأزقة والشوارع والحشود المتعاظمة من الناس تظهر له في صورة ضبابية وهو يجري. بلغ مرماه أخيراً، لاهثاً، وطفق يدفع الأجساد ويشق مسلكاً له بين جمهور الناس. كفانا احتجاجات عقيمة. متى سيفهم الناس؟

رويا. رويا. رويا.

هو يعرف أين تقف، فيشق طريقه ثم لا يلبث أن يلمحها هناك وسط الجماهير والفوضى، فيدفع بنفسه متجاوزاً الأجساد الغاضبة حتى أمسكها من كتفيها.

- «رويا!».

تنفس الصعداء. ها قد وجدها وسيخبرها.

بدت مرهقة ومتعبة. كان وجهها شاحباً وشفتاها جافتين. ملأته رغبة في حمايتها ومساعدتها وحملها بعيداً عن هذا الهرج والمرج. يجب أن يخبرها.

- «الحمد للّه! سيد فخري! هل رأيت...».

أطبق على كتفيها بكلتا يديه مقاطعاً: «رويا خانم، أرجوك اسمعيني...».

- «يجب أن أجد بهمان».

- «رويا خانم، أرجوك أريدك أن تعرفي شيئاً...».

ابتعدت عن قبضته، ثم فجأة سمعت دوي انفجار. طار في السماء ثم هوى على الأرض في الوقت نفسه. انذهل من تأثير الضربة وأخذ يصارع للتنفس، وكل ما يدريه الآن أنه ملقى على الأرض وصدره مبلل والبلل لا يتوقف ولا ينحسر. أراد أن يجد رويا ليخبرها بسوء صنعه، ويخبرها أنها في المكان الخطأ بسببه هو، وأنها يجب أن تلتحق ببهمان الذي يوجد في ميدان بهارستان، وأنهما يجب أن يذهبا إلى مكتب المأذون، وأنهما يجب أن يستغلا هذه اللحظة. أراد أن يخبرها أنهما يجب ألا يتخليا عن حبهما، وأنهما يجب أن يعيشا معاً أعواماً طويلة وأن يشيخا معاً، وأنهما سيكبران ويزدادان كبراً، وسيصبحان أرق وأنضج، وسيربيان معاً أولاداً، وسيعملان أشياء رائعة، وسيردان إلى أرذل عمرهما. أراد الاعتذار إليها وأراد الاعتذار إلى بدري، ثم تذكر تلك الساحة وراء البازار بذبابها وقشور الشمام التي فيها. تذكر كيف بنى تلك المكتبة طوبة طوبة وكتاباً كتاباً، وفكر في أولاده وصيحات فرحهم لما كانوا

صغاراً. لقد أخطأ. رأى عطية جالسة على كرسيّها في الليل تخيط الملابس في هدوء. أراد أن ينفجر في وجه الدنيا صاحياً معلناً اعتذاره. وذلك الولد الذي أسقطته بدري من أحشائها كان ليكمل السادسة والثلاثين هذا الصيف، بيد أنه لم يعرف قط ذلك الولد ولم يمسك يده قط. هو آسف. هو آسف. كان وجه رويا أمامه الآن ووجوه أخرى عدة. أقبل عليه أحد الرجال وضغط على صدره المبلل لكنه لم يقو على التنفس. أحس أنه يطفو فلاحت له بدري واقفة في البازار وهي تقف على أصابع قدميها لمدة صورت له أنها نتفة من الزمن مستقلة عن كل شيء سواها. أحس بشفتيها ساخنتين ولزقتين على وجهه، شعر كأنها شعلة نارية. والآن أحس بخرقة ثوب بلون الشمام على صدره. أتراه يحلم؟ نظر إلى ناحية مكتبته؛ تلك التي بناها لنشر المعرفة وسقي بتائل الحب، تكفيراً عن ذنوبه. ظن أنه يرى أدخنة ولكنه متأكّد أن ما حسبه ليس صحيحاً. ستستمر. وسيستمر الناس في ارتياد مكتبته حتى بعد مماته. لا يعرف كيف سيحدث ذلك، ولكنه يعلم أنه سيحدث. سيأخذ أحدهم مشعله، وسيحرص على الاستمرار. أما هو فآخذ في الاضمحلال، آخذ في التقلص، والسماء تغدو حالكة فأحلك، والستائر تنسدل من كل جانب. إنه يتلاشى ولكن الحب سيستمر، وسيستمر الشباب في آمالهم. والكفاح من أجل الديمقراطية لن يموت. كتبه والكلمات والرسائل والأمل، لن تزول أبداً. إنه حب لا نتعافى منه أبداً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مرجان كمالي

مكتبتنا الصغيرة في طهران

«العاشقان لا يلتقيان،
لأن كل واحد منهما يسكن الآخر إلى الأبد».
- جلال الدين الرومي -

* * *

رويا فتاة حالمة «كل ما رغبت فيه حقاً هو مطالعة الروايات المترجمة وقراءة أشعار أعظم شعراء فارس كالرومي وحافظ الشيرازي، وكانت المكتبة أحب الأماكن إلى قلبها في طهران كلها».

في ذلك الملاذ الآمن، ذلك الملجأ للسكون والتعلم «حيث لا يبقي السيد فخري على رفوفه ركناً شاغراً إلا وملأه بالكتب الفارسية القديمة ودواوين الشعر وترجمات الأدب العالمي»، من أمثال دوستويفسكي وهمنغواي وديكنز، تلتقي بهمان، الشاب الوسيم المتمرد، «الفتى الذي سيغيّر العالم»، وتُغرم به.

قبل زواجهما بفترة وجيزة، يتفق الحبيبان على اللقاء في أحد ميادين المدينة، إلا أن بهمان لم يأتِ إلى موعدهما واختفى من حياتها فجأة كما ظهر. بقلبٍ مفطورٍ، تمضي رويا في حياتها نحو رجل آخر، وبلد آخر، ومستقبل آخر، إلا أن العديد من الأسئلة العالقة ستظلّ تطاردها: لماذا رحل؟ أين ذهب؟ كيف له أن ينساها؟ إلى أن تقودها تصاريف القدر، بعد عقود، إلى لقاء بهمان مجدداً وتعطيها الفرصة لتطرح عليه كل تلك الأسئلة.

فهل قدر الإنسان مدوّن حقاً على جبينه بالحبر الخفي منذ يوم ولادته كما كانت تردّد والدة رويا؟

رواية رائعة، آسرة ومؤثرة، تُصالحنا مع الفقدان وألاعيب القدر، وتزرع فينا روحَ التسامحِ والسلامَ الداخلي، وتمنحنا السلوان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com